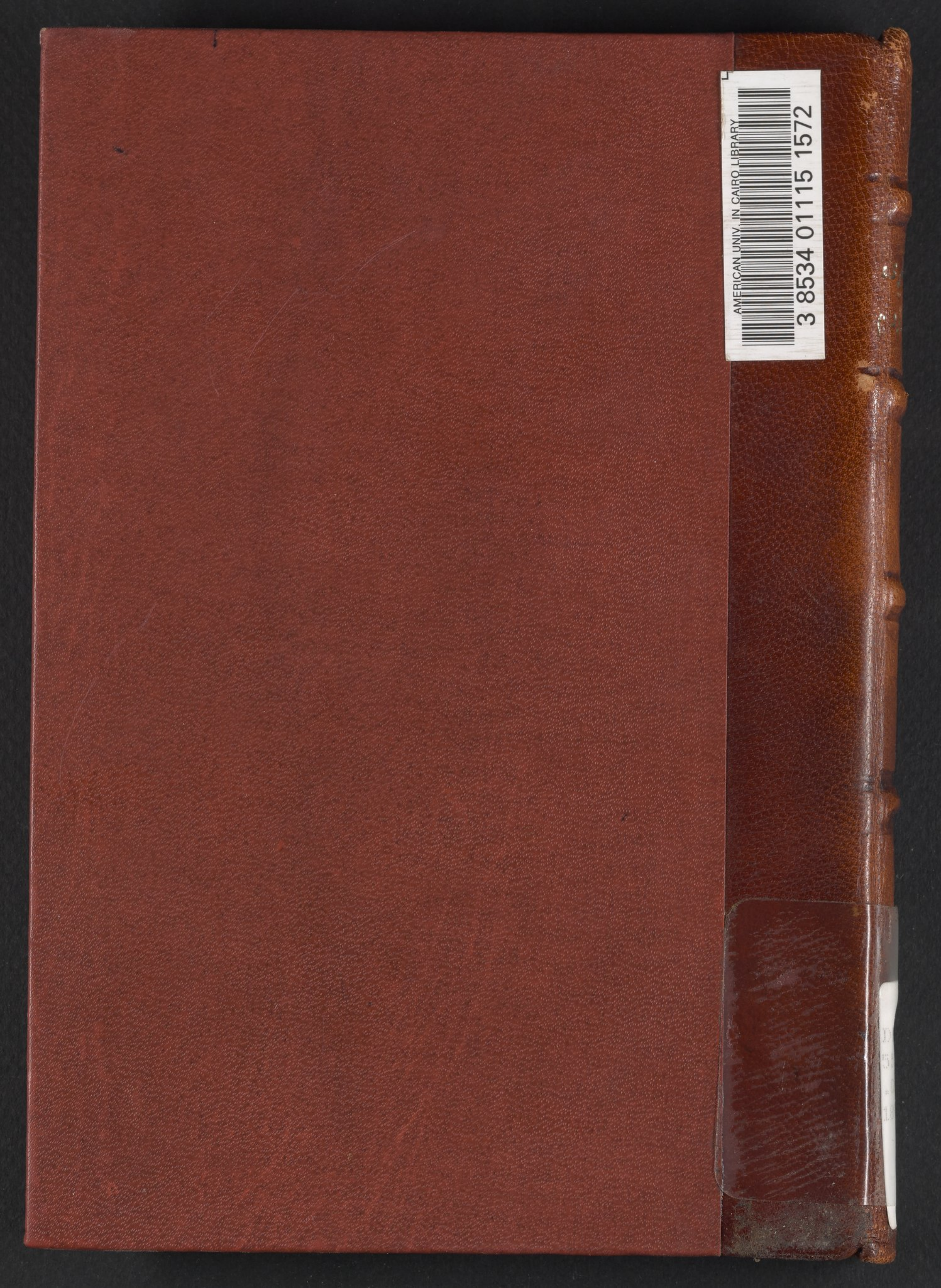
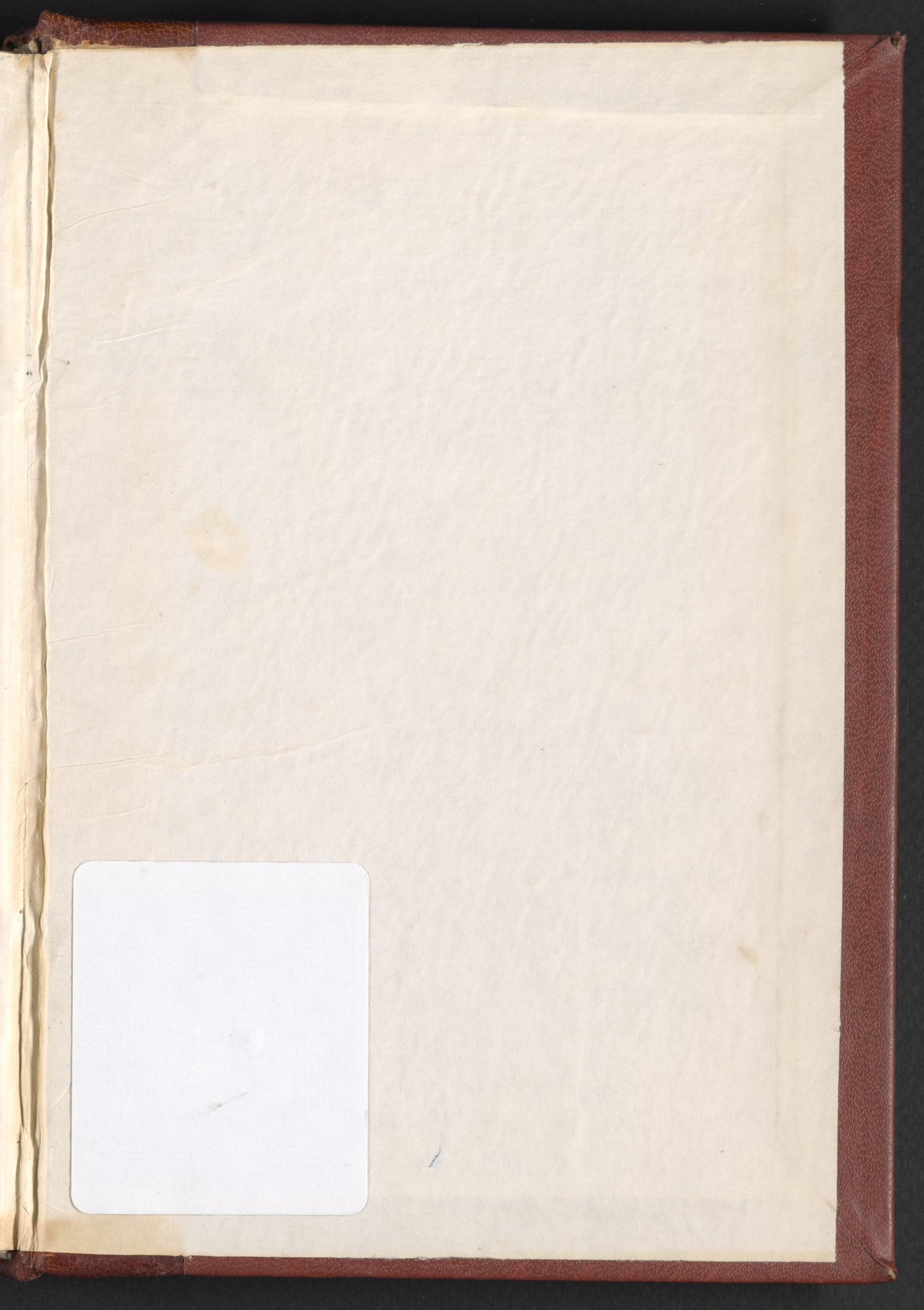
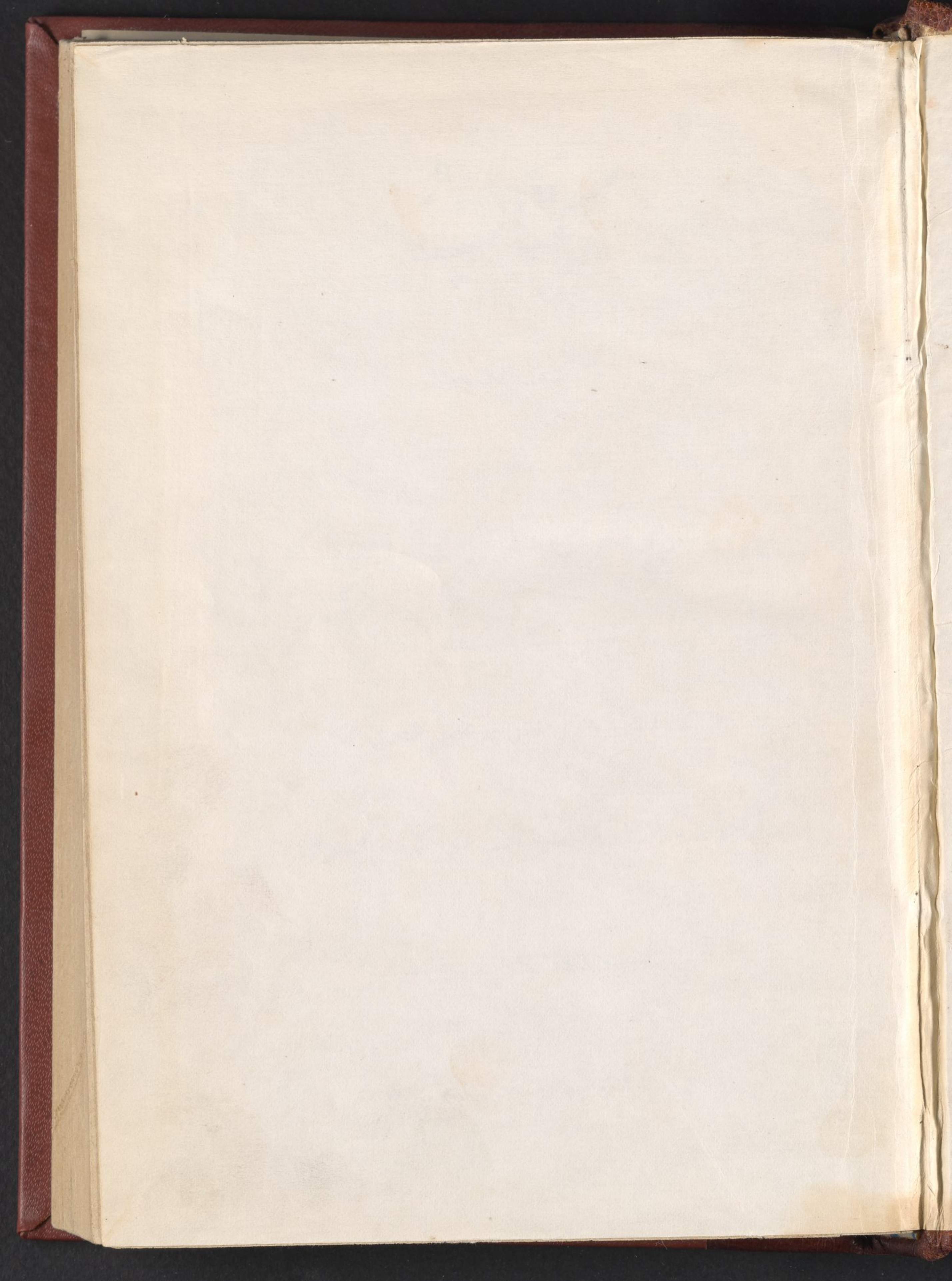
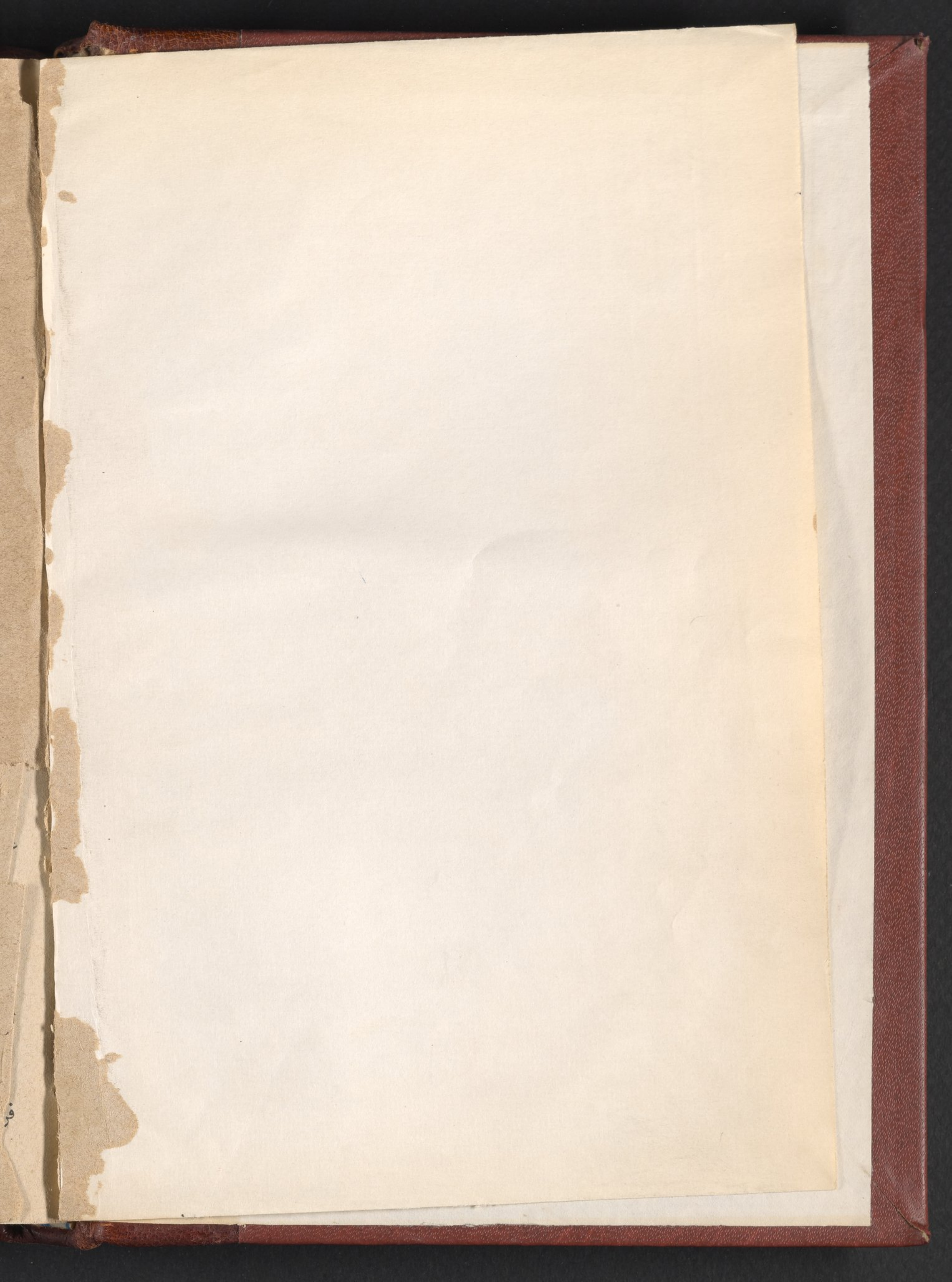
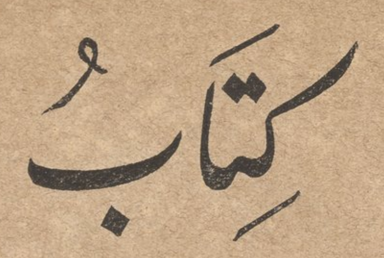


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01115 1572









كشف المكتوم

في

تاريخ آخري سلاطين الروم

بقلم الفقير اليه تعالى خليل بن مخائيل البدوي

أملاهُ عليهِ بالفرنسية حضرة الاب دي كوبيه اليسوعي

في مطبعة الاباء اليسوعيين بيروت سنة ١٨٩٠

تمهيد

القيصر مانويل الثاني

هو ابن القيصر يوحنا السابع من آل باليولوغ وابو القيصرين يوحنا الثامن وقسطنطين الثالث عشر اللذين خلفاهُ على تخت القسطنطينية وامتازا بالحكمة والدراية والشجاعة لِما لقيا منهُ من حسن التهذيب وصلاح التربية فانه رغمًا عن شواغل مهام المملكة قد تفرَّغ لتهذيبهما مع سائر اولادهِ على اجلّ مبادئ الفطنة حتى انهُ أَلَّف كتابًا خصوصيًا لتأديبهم فضلًا عن انهُ علمهم بمثلهِ ان يكونوا رابطي الجاش ثابتي الجنان بازاء ما يدهمهم من خطوب الحدثان ونوائب الزمان

وكان مانويل اميَل الى السلم منهُ الى الحرب ولذا ذهب بعض المؤرخين الى انهُ لم يشتهر بالشجاعة ولعلَّهم صدقوا بالنسبة الى ما جرى في عصرهِ من الوقائع المهولة واخصها حرب تيمرلنك مع السلطان بايزيد اشهر وقائع ذلك الجيل الّا انهُ كان على جانب عظيم من المهارة في السياسة دمث الاخلاق ليّن العريكة. عقدَ الصلات الوديّة مع سلاطين آل عثمان بايزيد الثاني ومحمَّد الاوَّل ومراد الاوَّل الذين كانوا يجلُّون مقامهُ وكان لديهم عزيزًا

وقد انتشرت علائقه السلمية في المغرب وكان محبَّبًا الى ملوكهِ ولاسيما ملك فرنسا كرل السادس الذي اكرم مثواهُ حين قدومهِ عليهِ في باريس. ولمَّا كان سفر مانويل هذا دستورًا لوليّ عهدهِ يوحنا وسبيلًا للاعانات التي جاءت قسطنطين من المغرب كان لا بد من ذكر شيءٍ منهُ كتمهيد لهذا التاريخ فنقول:

خرج مانويل من القسطنطينية صحبة القائد الفرنسي بوسيكو الذي ارسلهُ لهُ ملك فرنسا فعرَّج على البندقية وجنوا وميلان فلقي فيها اجلّ اكرام ولاسيما لدى امير

ميلان الذي قدّم لهُ شيئـاً كثيرًا من الذهب والفضة والخيول المطهّمة مع عُددها النفيسة لاستخدامها في سفرهِ ودخولهِ بابهةٍ الى فرنسا

فلما بلغ كرل السادس قدوم مانويل لزيارتهِ انفذ الامر الى جميع المدن التى يجتاز بها ان تقوم بابهى الاحتفال عند مرور القيصر بهـا . وارسل لتحيتهِ على بعد ساعتين من عاصمتهِ الفي فارس من الاعيان والنبـلاء وقبل وصوله اليها هنأهُ كبير وزراء فرنسا واعضاء مجالس الدولة وثلاثة كرادلة يليهم الملك كرل يكتنفـهُ جميع آل عترتهِ الملكية وقوم كثير من شرفاء المملكـة والبلاط . فلما وقعت عين القيصر على الملك ترجّلا كلاهما وتقدما وتعانقا فتبادلا عبارات الوداد والاخاء ثم ركبا ودخلا باربس حاضرة الفرنسيس بموكب جليل لم يسبق لهُ مثيل وكانت الناس من على الجانبين الوفًا وقوفًا صفوفًا فاقام القيصر في ضيـافة ملك فرنسا اشهرًا تقلب فيها على وُثُر المسارّ والافراح مما كاد ينسيه الاشجان ويذهلهُ عما جرّ وراءَهُ من الهموم والاحزان

الّا ان الملك كرل اختلّ شعورهُ بعد حين فسافر القيصر الى انكلترا حيث وجد لدى ملكها هنري الرابع إعظامًا وترحيبًا على انهُ لم يقضِ لهُ اربًا . فعاد الى باريس وكان كرل قد نقه فدعاه لحضور صلاة الشكر لله على شفائهِ فلم يأنف القيصر من مصاحبتهِ الى كنيسة الرهبان البنادكتيين

وكان مانويل كثيرًا ما يتردّد الى كنائس باريس ويتحادث مع الاكليرس الفرنسي وخصوصًا الرهبان البنادكتيـين سكان دير القديس ديونيسيوس . واحبّ ان يطلع الفرنسيس على شيءٍ من عظمة الطقوس اليونانية فاقام كهنة الروم الذين كانوا في صحبتهِ في كنيسة قصرلفر الذي كان نازلهُ قداسًا غايةً في الاحتفال حضرهُ الملك كرل وخلق كثير من الشعب الباريسي فسرّوا جدًّا من بهاء وابهة تلك الطقوس الجليلة

ولما عاد القيصر الى القسطنطينية تذكر ما لاقى من حسن الترحيب في فرنسا ولاسيما من موأنسة الرهبان البنادكتيين سكان دير القديس ديونيسيوس فارسل لهم هدية

ثمينة وهي نسخة خطية من تآليف القديس ديونيسيوس الاريوباجيتي اليونانية

وفي هذه الاثناء عقد لوليّ عهدهِ يوحنا على صوفيا بنت امير منفرّات وتوّجهُ حينئذٍ قيصرًا شريكًا لهُ في الملك وعينّهُ خليفةً لهُ بعد وفاتهِ

ولمّا شعر مانويل بدنو اجلهِ وزّع اثمن ما لديهِ من الحلي على اولاده واوصى بان يقسم باقي مالهِ اربعة اقسام قسم منهُ يوقف للكنيسة وقسم ينفق على احتفال مأتمهِ وقسم يوزّع على الفقراءِ والقسم الرابع لاطبائهِ وسائر الذين اعتنوا بهِ في مرضهِ الاخير . ثم ترمّل بثوب راهب وفاضت روحهُ في ٢١ تموز سنة ١٤٢٥ بالغًا من العمر ٧٧ سنة بعد ان ملك ٥٢ سنة منها ٢٨ سنة مشتركًا مع ابيهِ يوحنا الاوّل و٣٤ سنة وحدهُ . وكان لهُ ستة اولاد : يوحنا الثامن وليُّ عهدهِ وثاودور امير سلفرة ولقدمونية واندرونيك امير تسالونيكية وتوما وقسطنطين الثالث عشر خليفة اخيهِ يوحنا وديمتري الذي صحب اباهُ في سفرهِ الى فرنسا

القسم الاول

في تاريخ مُلك القيصر يوحنا

الفصل الاول

في اوائل مُلك يوحنا

١

١ مخابرته مع السلطان بايزيد وتزوجهُ بمريم كمنين . ـ ٢ـ استيلاء اخيهِ قسطنطين على ولاية صغيرة وتوسيع نطاقها بفتح مدينة بتراس . ـ ٣ـ تسلُّط توما بن مانويل على ولاية اركاديا ـ ٤ـ بيع تسالونيكية للبنادقة وفتحها عنوةً من العثمانيين . ـ ٥ـ حملة العثمانيين على القسطنطينية ورجوعهم عنها بلا جدوى وتخريبهم عدَّة بلاد . ـ ٦ـ تنازع اخوة يوحنا والتوفيق بينهم . ـ ٧ـ محاصرة الجنويين للقسطنطينية وفشلهم

لما استقل يوحنا بعرش السلطنة انفذ الى السلطان مراد الثاني وفدًا ينبئهُ بخلافتهِ لابيهِ ويخابره في اقرار السلم فرحب السلطان برجال الوفد واكرم مثواهم لانهُ كان يعرف سيدهم يوحنا شابًّا ويحبهُ لما عهد فيه من لين الجانب وطيب الاخلاق ايام كان يوحنا في بلاطهِ حين نطق بين يديهِ بخطبة بديعة خلب القلوب بفصاحتها تأبينًا لابيهِ السلطان بايزيد . على ان السلطان أبى ان يعقد معهُ عرى السلم ما لم يتنازل لهُ يوحنا عن بعض مدن في ساحل البحر الاسود ويؤدّ لهُ في كل سنة ضريبة معلومة من المال

فقضى يوحنا السنين الاولى براحة وسلام وعُقد لهُ في السنة الثانية بعد وفاة امرأتهِ الاولى على الاميرة مريم كمنين بنت الكسيس احد ملوك طرابزون وكانت بارعة

الجمال مزدانة باجلّ مزايا الكمال متضلعة من العلم ثاقبة الفهم وقد تمَّ زفافها بما لا مزيد عليهِ من البهاء والاحتفاء وحينئذٍ توَّجها يوحنا امبراطورة

٢

وبعد مضي بضعة اشهر من زفاف عرسهِ طلب منهُ اخوه ثاودور صاحب لقدمونية ان يستقدم شقيقهُ قسطنطين فيوليهُ ذلك الاقليم عوضاً عنهُ لانهُ كان راغباً في الزهد والترهُّب في احد الاديرة فذهب الملك يوحنا واخوه قسطنطين الى مدينة سبرطة حاضرة الولاية فوجدا ثاودور قد عدل عن عزمهِ وآثر البقاء في كرسيهِ الَّا انهُ تنازل مع ذلك عن بعض مدن لاخيهِ قسطنطين

فلما تولى قسطنطين هذه المدن تاقت نفسهُ الى توسيع نطاق ولايتهِ الصغيرة فطمحت ابصاره الى بتراس حاضرة اخائيَّة التي كان يتنازعها اللاتين والاتراك. وكانت هذه المدينة في وسط جنات فيحاء تسقيها المياه من كل الانحاء تفوح من اشجارها البهية اذكى الروائح العطريَّة ويكثر فيها البرتقان والآس وكانت حينئذٍ سوق التجارة فيها رائجة. وفيها قلعة حصينة على تلّ مشرف على كل المدينة. فلما رأى قسطنطين انهُ لا يستطيع سبيلاً الى فتحها عنوةً عمد الى الحيلة. فسبر اولاً غور الاهالي الذين كان اكثرهم من الروم فوجدهم ميَّالين الى تمليكهِ عليهم خلعاً لربقة اللاتين عن اعناقهم فابرم معهم الدسيسة وزحف بعساكره القليلين حتى دنا من ضواحيها

فلما كان احد الشعانين خرج قسطنطين برجالهِ الى تلك الضواحي وامرهم فقطعوا اغصاناً من الآس والليمون وجعلوها بايديهم وطافوا حول اسوار المدينة كانهم محتفلون بطواف ذلك اليوم الشريف على عادة الروم وقصد بذلك ان يهاجم المدينة بغتة ويدخلها خدعة

الَّا ان سكان المدينة أَبِهوا للدسيسة فاغلقوا في وجههِ الابواب ووصَّدوها توصيداً فعسكر حول البلدة كانه محاصرٌ لها

ففي سبت النور بعد ان حضر قسطنطين الاحتفالات البيعية اخذ يتجاذب اطراف الحديث بهدوءٍ مع المؤرّخ فرنتزيس المشهور واذا بطائفة من فرسان حامية بتراس خرجوا منها وهجموا على قومهِ بسرعة غريبة لم يستطيعوا معها الّا ركب الخيل والاركان الى الفرار

وقد أُصيب فرس قسطنطين بسهم فكبا فتركهُ وولّى على رجليهِ مدبرًا فتعقبهُ الفرسان وكادوا يدركونهُ ويأسرونهُ لولا المؤرّخ فرنتزيس الذي كافح عن سيدهِ وردّ هجمات الاعداء بامانة غريبة حتى مكّنهُ من النجاة ببذل حياتهِ في سبيلهِ اذا أُسر بعد ان أُثخن بالجراح وكبل بالقيود وسجن في احد اهراء القمح حيث بقي اربعين يومًا معذّبًا بلدغات الديدان والحشرات التي كانت ترعى ذلك الهري كالجرذ والفار والنمل وما اشبه فضلًا عما كان يقاسيهِ من مضض الآلام من جراء جراحهِ وثقل سلاسلهِ وبعد مضي هذه المدة نجا من السجن والاسر باداء مال كثير فلما اتى معسكر الروم ورآه قسطنطين على تلك الحال التعيسة أقبل عليهِ كل الاقبال واكرمهُ اكرامًا جزيلًا وهيّأ لهُ مضربًا فاخرًا علّق لهُ في صدرهِ سيفًا مرصعًا بالحجارة الكريمة وبجانبهِ خلعة سنية وصرّة دنانير فيها ثلثون الف وزنة من الذهب وذلك جزاء عن شجاعتهِ وامانتهِ

وبعد رجوع فرنتزيس من اسره انفذ السلطان مراد رسولاً الى قسطنطين يتشكى من انهُ نصب الحصار على مدينة تعدُّ من بلادهِ لانها تؤدي لهُ الجزية وتهدّده بانهُ ان لم يرجع عنها زحف اليهِ بخيلهِ ورَجله . فاعتذر اليهِ قسطنطين بانهُ لم يعلم ان للاتراك عليها يدًا لانهُ رأى فيها جنودًا من اعداء الاتراك ومع ذلك إِرضاءً لخاطر السلطان ورغبةً في عدم قطع علائق السلم اجابهُ الى طلبهِ ورحل عن المدينة هو وجيشهُ

لكن هيهات ان ينثني قسطنطين عن عزمهِ فجعل يترقب الفرص لاحتلال هذه

البلدة البهية وشرع يدسُّ الدسائس سرًّا مع الروم سكان المدينة حتى بلغ مناهُ بعد سنةٍ وذلك ان عظماء المدينة وكبراءها فتحوا لهُ ابوابها فدخلها دخلة انتصار واستقبلهُ الاهلون استقبالًا جليلًا حافلًا وقد فرشوا لهُ اغصان الاشجار الخضرة في كل الطرق التي مرَّ فيها وقد دخل على النـاس يومئذٍ فرح عظيم فاخذوا ينثرون على ذلك الموكب البهي من نوافذ البيوت ازهارًا نضرة وماءً عطرًا

وفي اليوم الثاني نُودي بقسطنطين ملكًا لبتراس وأَقسم لهُ جميع السكَّان يمين الطاعة والامانة

اما جنود حامية المدينة فلم يكونوا ليرضوا باستيلاء قسطنطين عليها فتحصنوا في القلعة واخذوا يرشقون الموكب بالنبـل بدل الازهار فلم تصب احدًا. على انهم بعد ان اقاموا في القلعة اياماً ولم يبلغهم المدد اضطرُّوا الى التسليم فاستقـلَّ قسطنطين بتلك المدينة وضواحيها. ثم استولى ايضـًا على امارة كلارنس بعد تزوجهِ بثاوودورة بنت ليونرد اميرها

٣

وكان توما رابع اولاد مانويـل يتوق الى الاستيلاء على ولاية اركاديا فحمل عليها واشهر الحرب على كنتيريون امير اخائيَّة فلم يستطع هذا الى دفعه سبيلًا فدعاه الى الصلح فلم يرضَ توما بهِ الَّا بشريطة ان يزوجه بابنتهِ ويعطيهُ بلاد مسينة وايثوم وكل سواحل اركاديا كصداقٍ لها فملك توما هذه البلاد صلحًا

٤

امَّا اندرونيك ثالث اولاد القيصر المتوفى فلم يسعدهُ الحظ في امارة تسالونيكيـة التي كان والدهُ ولَّاه عليها في حياتهِ لان الاهلين خافوا من انهُ لا يقوى على دفـاع حاضرتها ضد هجمات الاتراك فسلموها بالرغم عنهُ للبنادقة عام ١٤٢٥ لِما عهدوا فيهم

من طول الباع في اساليب الحرب وفنون القتـال وارضوا الامير بتأديتهم لهُ خمسين الف دينار تعويضاً لهُ عن هذه الخسارة

فلما تسلط البنادقة على تسالونيكية انشرح اهلها صدرًا لما ابداه اولئك نحوهم من لين الجـانب ورقة الحواشي حتى اطلقوا لهم الحرّية في ان يسوسوا انفسهم على شاكلتهم الّا ان هذه الحال لم تدم على هذه المنوال فان البنادقة قلبوا لهم ظهر المجن إما لخوفهم من تقلبات التسالونيكيين الفطرية واما لاكتشافهم على مؤامرة خفيـة فاخذوا يختلقون حججًا متنوعة لاذلالهم فنفوا من المدينة خلقًا كثيرًا وبددوهم في جزائر الارخبيل التي كانت يومئذٍ في حوزتهم ولو امهلهم السلطان مراد لكانوا بدّلوا جميع سكان تسالونيكية بغيرهم

الا ان هذا السلطان لم ينظر بعين الرضى الى استيلاء البنادقة على هذه المدينة العظيمة لانهُ كان يحسبهم الدّ اعدائهِ ولم يخفِ ما طوى في صدره من قصد اغتصابها منهم . فشمّر البنادقة عن ساعد الجـدّ والهمة في احباط مسعاهُ فاستغاثوا بالقيصر يوحنا ليتوسط بينهم وبينهُ

فانفذ يوحنا الى السلطان مراد سفيرًا يذكره بان المدينة التي عزم على افتتاحها لم تكن من مدن الاعداء فاجاب السلطان بان تسالونيكية لو كانت باقية بيد اخيهِ اندرونيك لما كان قصد لها شرًّا انما يريد ان ينزعها من ايدي البنادقة اعدائهِ

فلما اخفق سعي القيصر ورأى البنادقـة ان السلطان مصرّ على قصده اخذوا يتجهزون للدفاع وحصنوا تسالونيكية احسن تحصين

وفي تلك الاثناء ارسلوا ايضاً عمارتهم لاحراق السفن العثمانيـة الراسية في مينا غاليبولي وعقدوا لواء هذه الحملة البحريّة لاندراوس موكنيكو قبطان خليج البندقية فلم يدّخر كدًّا ولم يألُ جهدًا في ما سعى اليـهِ حتى تمكن من مفاجأة العثمانيين في المرفإِ بسفينتهِ التي كانت ماخرة في مقدمة العمارة بعد ان قطع السلاسل الغليظـة

المعترضة عبور السفن فهالهم الامر جدًّا الا ان سائر رفقائهِ لم يقتفوا اثر بسالتهِ بل تركوه وعادوا القهقرى فقام وحدهُ بازاء سائر السفن العثمانية وناصبها القتال زمانًا طويلًا الَّا انهُ اضطرّ اخيرًا ان يكف عن القتال لان سفينتهُ قد خرقتها قنبلتا مدفع وتحطم صاريها الاكبر بقنبلة اخرى فانسحب من المرفإِ ولم يستطع احد ان يتأَثره

وقد سهَّلت هذه الكسرة البحريَّة فتح تسالونيكية فان الجيوش العثمانية المحاصرة هذه المدينة لما بلغهم تقهقر العمارة البندقية شدَّدوا الحصار بنصب جزيل وقد ساعدهم بعض السكان فكانوا يخرجون منها بالاسراب المفتوحة تحت الاسوار ويخابرون المحاصرين

اما حامية البندقيين الذين كانوا يدافعون عن قلعة تسالونيكية فخرجوا من المدينة بحرًا ونجوا بنفوسهم وتركوا الاهلين تحت رحمة الظافرين

فدخل العثمانيون الى تسالونيكية عنوةً سنة ١٤٣١ وبقيت في ايديهم ولا تزال حتى يومنا هذا ويسمونها الان سلانيك وهي حاضرة ولاية كبيرة مهمة وعدد سكانها نحو من ستين الف نفس ونيف

لما سقطت تسالونيكية في ايدي العثمانيين تزعزعت اركان سلطنة الروم وانخلعت لها قلوب اهل القسطنطينية وباتوا يتوقعون ان يصيب حاضرتهم مثل ما اصاب تلك المدينة العظيمة . نعم لم تكن تسالونيكية للروم وانما عظم عليهم فتحها لان كل ما كان يأْخذهُ العثمانيون من البلاد سواء كانت لهم او للاتين كانوا يعتبرونهُ إِضعافًا لشوكتهم وتقوية للفاتحين

اما اندرونيك باليولوغ الذي كان امير تسالونيكية واكرههُ شعبهُ على تسليمها للبنادقة فقد ترهب وتوفي بالبرص في القسطنطينية بعد زمان يسير

وبعد ان ملك العثمانيون تسالونيكية وسَّعوا نطاق فتوحاتهم في اقاليم اكسرنانية واخائيَّة وابيرا وايتوليا وكانت الدائرة فيها تارة على الروم وطورًا على اللاتين على انهم

لم يفلحوا في غزوة شنوها على الالبانيين . ولا يخفى ان في البانيا جبالاً وعرة وغاباً كثيفة كأنَّ لها منها حصناً حصيناً يدفع عنها هجمات الغزاة فضلاً عن ان اهلها اشداء ذوو بأس

٥

وكان السلطان مراد لا يهدأُ لهُ بال ما لم يفتح عاصمة الروم فاحتال لذلك بان جهز عمارة قوية مؤلفة من اربعين سفينـة فسارت حتى رست على مقربة من القسطنطينيـة واستأجر البحارة العثمانيون بعض صيادي الروم ليدلوهم على باب المرفإ ويسهلوا لهم سبيل الدخول الى الميناء فلم يسعدهم الوقت بل انكشف امرهم وقبض الروم على الصيادين وقتلوهم فعدل العثمانيون عن أربهم الا انهم انتشروا في سواحل البحر الاسود وخرَّبوها حتى ابواب طرابزون

ففرح الروم بنجاة الحاضرة الّا ان فرحهم قد تنغص بما اوهن عزائمهم من داهية نزلت بهم وعدُّوها من اتعس المصائب : كان في القسطنطينية كنيسة لوالدة الاله من ابهى كنائسها واغناها تعرف بكنيسة ڤلاشرناس وكان الروم يجلّونها جداً لحفظهم فيها ثوب العذراء ولِما كان يجري فيها على يد امّ الله من المعجزات الباهرة فاتفق ان بعض الاغرار صعدوا الى وقنات الحمام في جدران هاتهِ الكنيسة حاملين بايديهم شهباً متقدة فنشبت فيها النار والتهمتها كلها فارتاع الروم لهذا المصاب وتشاءموا بهِ اي تشاؤم

اما العثمانيون فلما اخفقت سريتهم في البانيا تلهبوا غيظاً وعادوا فجهزوا جيشاً قويّاً وزحفوا بهِ اليها فأوتوا على الالبانيين النصر وأكرهوا ملكهم يوحنا كستريوت ان يدخل في ذمَّة السلطان ويؤدي لهُ الجزية ويرسل الى دار السلطان اولاده الاربعة رهائن

وكان السلطان مراد لا يبرح موجهاً ابصارهُ الى القسطنطينية والى ما يجاورها من الممالك الصغيرة مترقباً كل الفرص لالتهامها شيئاً فشيئاً فحدث في تلك الغضون ان استفان بن لعازر امير سربيا مات دون عقب فخلفهُ ابن اختهِ جرجس برنكوفتش

واستمر في تخت المملكة بسلام بضع سنين بلا منازع وقد اقرَّه القيصر يوحنا وبعث اليهِ بالتاج وسائر الشارات الملكية الّا ان السلطان مرادًا اخذ ينازعهُ الملك بحجة ان جدَّه بايزيد الاول كان قد تزوَّج ملياف بنت لعازر فاولادها احق بالملك من جرجس فادرك الامير ما وراء هذه المنازعة من وخيم العاقبة فآثر ان يستميل اليه السلطان بتضحية بعض مملكتهِ في سبيلهِ على ان يفقدها كلها فخالفهُ على ان يزوجهُ بشقيقتهِ الاميرة مريم ويصدقها جانباً كبيرًا من مملكتهِ وكانت مريم بارعة الجمال فنالت حظوة في عيني السلطان فصالح اخاها واحتفل بالزفاف احتفالاً عظيماً

وبعد الزفاف بايام تجهز السلطان للحملة على بلاد المجر وقد ورَّطهُ فيها دراكولا امير الفلاخ بتزيينهِ لهُ اخلاص خدمتهِ ووعدهِ اياه بامدادهِ بالرجال لفتحها فاغترَّ السلطان بتملقات هذا المدالس الذي دلَّه على طرق وعرة قفرة توغلت فيها جيوشهُ فانهكها العناء والجوع لخلوّ تلك الفيافي من المآكل حتى اذا بلغوا الى ضواحي زبينيوم حاضرة ترنسلڤانيا وقد خارت قواهم لاقوا في وجههم جيشاً عظيماً من الصناديد الابطال متأهباً للنزال والقتال فانقضوا عليهم كالأُسد الضواري فمزقوا شملهم فعاد السلطان بمن بقي معهُ واسرع في عبور الدانوب وقد ندم على مجاراة دراكولا وانقياده لمشورتهِ ولذا لما مثل هذا الامير بين يديه مسلماً عليهِ امر بهِ فقبض عليهِ الا انهُ عرف بما طُبع عليهِ من الحيل والتملق ان يسترضي السلطان فاطلقهُ واذن لهُ بالعود الى تخت امارتهِ

٦

وكان الروم ينظرون بعين الرضى الى انشغال السلطان مراد بغزواتهِ وفتوحاتهِ القاصية ويودُّون لو يبقى بعيدًا عنهم ولاسيما في حين كان القيصر يوحنا لا بدَّ لهُ من الراحة والهدوّ في الخارج حتى يتمكن من اعادة السلام والاتفاق بين آله

كان يوحنا يؤثر قسطنطين على سائر اخوتهِ لما كان يعهد فيهِ من علوّ الهمة ورجاحة العقل والشهامة وعقد العزم على تعيينهِ خليفة لهُ فاستدعاه الى بلاطهِ ليكون بجانبهِ اذا

طرأت بعض النوائب فحرَّك ذلك شقيقهُ ثاودور فترك اقليم بليبونيز الذي كان عليهِ اميراً واقام في القسطنطينية رغم انف القيصر معرباً عن انهُ لم يكن ليتنزل عن حق الخلافة وهو اسنُّ من اخيهِ قسطنطين

اما قسطنطين فاجبر اخاه ثاودور ان يترك العاصمة عاجلاً وذلك بان خرج منها سرًّا وتحالف مع شقيقهِ توما فاغارا كلاهما على اقليم بليبونيز فتميَّز ثاودور غيظاً وجهز عمارة قويَّة وعاد الى امارتهِ لطرد اخيهِ منها وكادت نار القتال تضطرم اضطراماً لو لم يتلافها القيصر يوحنا بايفاده الى الفريقين رجالاً أُلي سطوة وفطنة فاخمدوا ما كان يستعر في القلوب من اجيج الضغائن الاخويَّة فتصالح الفريقان وتركا السلاح على ان ثاودور وتوما يبقيان إما في بليبونيز او المورة وان يعود قسطنطين الى البلاط القيصري

٧

وانتهز الجنويون فرصة اضطرابات الروم الداخلية ليصطادوهم غنيمة باردة وذلك لان التتر كانوا قد شنوا الغارة على مستعمرة الجنويين على سواحل البحر الاسود فخربوها ونهبوا اغنى مدنهم واوسعها تجارة مدينة ثاودوسية في اقليم القريم وكانوا قد احتكروا فيها تجارة كل البحر الاسود وحشدوا من ذلك ارباحاً عظيمة فلماَّ غلبهم التتر فكروا في ان يعوضوا خسارتهم من الروم الذين كانوا (اي الجنويون) قد قطعوا عنهم (اي عن الروم) موارد الثروة بسدّهم في وجوههم ابواب التجارة ولذا كثيراً ما كانت تقع بينهم المخاصمات بشأن التجارة ثم تخمد بعقد مواثيق وعهود قلَّما روعيت حرمتها

فوقعت في تلك الغضون منازعة تجاريَّة طفيفة اتخذها الجنويون ذريعة الى اضرام نار الوغى على جيرانهم فالتمسوا المدد من جمهوريَّة جنوا فجهزت لهم على الفور عمارة قويَّة عليها ثمانية آلاف مقاتل وارسلتها الى مياه القسطنطينية

فسار الجنويون وفي قلوبهم من العجب بقوتهم والازدراء بالروم ما زيَّن لهم

الفوز الاكيد والنصر القريب الا ان يوحنا لاونتار كبير قوَّاد الروم لاقاهم بقلب دونهُ قلب الضرغام وصدمهم صدمة شديدة مزَّقتهم كل ممزَّق فولوا الادبار على اعقابهم وعادوا بالخيبة والعار الى جنوا تاركين مواطنيهم الذين دعوهم لنجدتهم هدفاً لهجمات الروم

فزحف لاونتار على غلطة وحاصرها وضيَّق عليها جدًّا حتى كاد الاهلون يهلكون جوعاً وناصبت حينئذٍ سفنه سفن الاعداء فحطمتها واخذت منها عددًا كبيرًا . فضاق الجنويون ذرعاً ورأوا انهم اذا لم يتلافوا امرهم تمكن الروم من تخريب بحريتهم وتجارتهم تخريباً يتعذر اصلاحهُ فطأطؤوا الرؤس بعد ان كانت تناجي عنان السماء كبرًا والتمسوا بتذلل عقد الصلح فاجابهم القيصر يوحنا اليهِ ببعض شرائط منها تغريمهم بدفع الف دينار ترميماً للقلعة السلطانية التي هدمتها قنابل مدافع السفن الجنوية واجبارهم على تأدية مبلغ من المال تعويضاً عما لحق من الخسائر اصحاب الحوانيت والمخازن التي كانت في جوار تلك القلعة وذلك لان القيصر لما كان مفطورًا على الشفقة والمحبة لرعيتهِ دون تمييز الاغنياء عن السفلة كان يأنف ان يحمّل شعبهُ خسارة سبَّبها لهم بالحرب وكانوا عنها في غنًى وهذا كان يحبب القيصر يوحنا الى رعيتهِ كلها جمعاء

الفصل الثاني

سعي القيصر يوحنا بعقد مجمع مسكوني لاتحاد الروم مع اللاتين

١ الاتفاق بين يوحنا والبابا اوجانيوس الرابع لعقد المجمع — ٢ — خروج القيصر مع البطريرك القسطنطيني وسائر آباء الروم وحسن استقبالهم في البندقية وفرَّارة — ٣ — الاهتمام بعقد الجلسة الافتتاحية

١

لما استتب الامر في السلطنة وضرب السلم اطنابه حيناً اخذ يوحنا يفكر في اتيان امرٍ عظيم ينجم عنهُ الخير العميم لهُ ولامته ولمملكته معاً ألا وهو السعي في التوفيق بين الكنيستين الشرقية والغربية وكان قد سبقهُ الى ذلك احد اجدادهِ النبلاء الملك ميخائيل باليولوغ وتمَّ بجمع اساقفة الروم واللاتين في مدينة ليون (من فرنسا) في كنيسة القديس يوحنا المعمدان الكبرى التي لم تزل حتى يومنا من اشهر كنائس المغرب وقد اسعدها الحظ بمشاهدتها اعضاء الكنيستين مجتمعين فيها بالقلب والروح مرغمين قانون الايمان الكاثوليكي الارثذكسي باليونانية واللاتينية لكن لم يلبث ذلك الاتفاق ان انفصمت عراه بخلع البطريرك الكاثوليكي فكوس بدسائس الامبراطورة افلوجية في ايام القيصر اندرونيك فلم يأتِ بثمرة

وكان القيصر مانويل ابو يوحنا قد فكر بهذا الامر الخطير وخابر بشأنهِ البابا مَرتينس الخامس الذي كان كلفاً بالروم ويحب رجوعهم الى الوحدة لكن هذه المخابرات قد انقطعت بموت البابا والقيصر وحُفظ تحقيق ذلك السعي الجليل الى خلفيهما البابا اوجانيوس الرابع والقيصر يوحنا الثامن

وكان حينئذٍ كثيرون من اساقفة الغرب عاقدين مجمعاً في مدينة بال من

اعمال سويسرة لملاشاة هرطقة البوهيميين فانفذ البابا اليهم نائبهُ يسألهم ان يوجهوا هممهم الى اتحاد الروم فاعتذروا عن ذلك بحجج لا طائل تحتها اما اوجانيوس فلم يكن ليرجع عن عزمهِ الصالح حبًّا بخير المؤمنين فبعث برسولٍ خصوصيّ الى القيصر صحبة بعض اللاهوتيين المتضلعين من العلوم تمهيدًا للاتحاد فاجلَّ القيصر والبطريرك القسطنطيني وفادتهم وكان لنبإ عقد المجمع احسن وقع لديهما

فلما بلغ آباء مجمع بال افتتاح باب المخابرة بين البابا والقيصر رأسًا رغبوا ان يعقد المجمع في بال وانفذوا في الحال وفدًا الى القيصر يوحنا يستميلونه الى رأيهم فآثر رأي الحبر الاعظم الراغب في عقدهِ في احدى مدن ايطاليا وانتهز هذه الفرصة للجري على سنن سلفائهِ القياصرة الذين كانوا يختصون انفسهم بامتياز الدعوة الى المجمع المسكوني واختيار المكان الذي يشاؤُونه لعقده فرضي البابا بان تكون الدعوة الى المجمع العام الجديد باسم ملك القسطنطينية وعُينت لذلك مدينة فراره من اعمال ايطاليا

واشترط القيصر لضيق ذات اليد حينئذٍ ان جميع نفقات المجمع يتحملها اللاتين بحيث ان جميع الروم الذين يحضرون المجمع ويبلغ عددهم سبعمائة نفس من ساعة خروجهم من مواطنهم الى حين عودهم اليها لا ينفقون شيئًا الّا من مال اللاتين فرضي البابا اوجانيوس ابتغاء الخير العام بهذه الشريطة مع غيرها من الشرائط الموافقة للروم لئلا تبقى ادنى عثرة في سبيل هذا المشروع الخطير وارسل الى القسطنطينية اربع سفن بهية فاقلّت القيصر يوحنا والبطريرك القسطنطيني يوسف ونواب بطاركة المشرق ومطارنتهُ ومطران كياف جثليق جميع الكنيسة الروسية وعددًا كبيرًا من الاساقفة ورؤَساء الاديرة والعلماء والاعيان وعُقد لواء هذه السفن الاربع لاحد ذوي قربى البابا الادنين

٢

وكان خروج الروم من ثغر القسطنطينية في السابع والعشرين من تشرين الثاني

سنة ١٤٣٧ ولم يعبأ القيصر بما تهدده بهِ السلطان مراد باستئناف الحرب اذا لم ينثنِ عن السفر الى ايطاليا بل سار واثقاً بالله مقتحماً الاخطار متجشماً اهوال البحار. وكان سفرهم شاقاً وهبّت عليهم عواصف شديدة ولم يبلغوا الى ثغر البندقية الاّ في الثامن من شباط سنة ١٤٣٨

وكان البنادقة قد اعدّوا لاستقبال القيصر اعدادات اكرام يقصر القلم عن وصفها وقد فصّلها المؤرخون المعاصرون تفصيلاً يكاد لا يصدّق فركب الدوق رئيس جمهورية البندقية مع رجال مجلس الاعيان سفينةً في منتهى البهاء والزينة مفروشة بديباج قرمزي ومزدهية باجمل النقوش والصور الممثلة اشهر حوادث التاريخ يكتنفها اثنتا عشرة سفينة تحاكيها بجمال الزينة وكانت تقلُّ كبار اعيان البنادقة وموسريهم واشرف نبلائهم وقد نُصب فوق كل سفينة لواءان في الواحد مثال نسر ذي رأسين رمزاً عن سلطنة الروم التي كانت متسلطةً على المشرق والمغرب وفي اللواء الاخر رسم اسد رمزاً عن مملكة البنادقة وكان على النوتية انفسهم اثواب جميلة من المخمل القانئ

فلما بلغ دوق البنادقة الى القيصر استقبله بما فُطر عليهِ من اللطف والمجاملة وقبل دعوته فانتقل الى سفينتهِ وجلس على العرش المعدّ لهُ فيها واجلس الدوق من عن يمينه واخاه ديمتري الذي جاء معهُ من القسطنطينية عن يساره وجرت بهم تحدق بها سفن كبار الامراء ووجهاء الشعب ومن حولها زوارق كثيرة مزينة ركبها تجار واعيان البلد فدخل القيصر الى البندقية محفوفاً بهذا الموكب العظيم الذي لم يسبق لهُ مثال بالاحتفاء والاجلال فكانت اجراس الكنائس تقرع والموسيقى العسكرية تضرب بالحانها الشجية والشعب كلهُ يتهلل طرباً ويترنم جذلاً ويبدي اعظم عواطف الوقار وقصارى ما يقال ان ذلك الاحتفال كان نادر المثال يضنُّ الزمان ان ياتي بما يباريه من الابهة والاجلال

فاقام القيصر يوحنا في البندقيـــة طلباً للراحة عشرين يوماً ولما كان الثامن والعشرون من شباط ركب قارباً وسار في نهر بادو فوصل فرضة فرنكولين البعيدة عن فرَّاره نصف فرسخ فلما علم مركيس فراره نيقولا دي إست تحفز لاستقبالـــهِ على الشاطئ مع جميع اعيان ووجهاء المدينة وكل الكرادلة والاساقفة الذين كانوا مجتمعين في فرَّاره لعقد المجمع

فدخل قيصر الروم بابهة الى فراره في رابع آذار ممتطياً جواداً ادهم مسرجاً باثمن العُدد يتقدمه فرس ابيض كريم عليهِ كساء فاخر من المخمل القرمزي الموشى بعدة صور على شكل النسور ذات الرأسين مرصعة بالحجارة الكريمة . وكان فوق القيصر مظـلّة سندسية يحملها اولاد المركيس نيقولا واجل ذوي قرباه الادنين

فلما دنا هذا الموكب الملكي العظيم من بـلاط البابا اوجان الرابع ترَّجل جميع الركَّاب الَّا القيصر الذي تقدَّم على جوادهِ صاعداً الدرج المؤدية الى مدخل الحجرة البابوية فترَّجل حينئذٍ وعبر المدخل الى الحجرة فتقدم البابا لاستقبالهِ في وسطها وكان القيصر قد تهيَّأَ لاحناء ركبتهِ لكن البابا امسكه وعانقهُ كولدٍ حبيب وسمح لهُ بيدهِ فلثمها الملك بوقار عظيم ثم اخذه الحبر الاعظم بيدهِ الى غرفتهِ الداخليـة واجلسهُ عن يمينهِ واخذ يتجاذب معـهُ اطراف الحديث برهة ثم ذهب بهِ الى الحجرة البهية التي أُعدت لهُ وقد تؤُنق بتزيينها جهد الطاقة حتى اصبحت تضارع احسن الردهات الملكية في القسطنطينية

اما البطريرك فلم يصل الى فراره الَّا بعد ثلثة ايام وكان راكباً سفينة غاية في الزخارف اشبه بقصر ملكي كان قد ارسلها المركيس نقولا دي إست اكراماً لغبطتهِ على انه بقي في السفينة في مرفإِ المدينة يوماً كاملاً لم يخرج الى البرّ انتظاراً لترتيب هيئة استقبالهِ على ما يروم لانهُ كان يقول بما ان اولية البابا قضية سيبحث فيها في المجمع فلا يجب ان يُجري الآن بحسبها قبل اثباتها . ومن ثم ان هذا البطريرك المعظم الذي

صار اوَّل من اقرّ واثبت بخط يدهِ قبل آخر المجمع سلطة البابا المسكونية كان محافظاً كل المحافظة على ما بهِ شرف الشرق بالرتبة والسلطة حتى انهُ قال حين خروجه من السفينة : اذا كان البابا اكبر مني سنًّا اعتبرتهُ كأَبي واذا كان تِرْبي حسبتهُ كأَخي واذا كان اصغر مني عددته كابنٍ لي

اما البابا الذي كان يشتهي من اقصى قلبهِ ان تتوثق علائق الاتحاد بين الكنيستين فبذل غاية جده في ارضاء البطريرك واستقبلهُ استقبالاً عظيماً يكاد يشبهُ استقبال الباباوات وبما ان البطريرك طلب ان يرسل الكرادلة لملاقاتهِ بعث البابا باربعة كرادلة وخمسة وعشرين مطراناً وعدداً كبيراً من احبار وعظماء البلاط البابوي والمركيس نيقولا وجمًّا غفيراً من اعيان البلد واغنيائهِ هؤُلاء كلهم وقفوا على الشاطئ منتظرين قدوم البطريرك فلما خرج من السفينة رحبوا بهِ وحيّوه مهنئين . فركب وحاشيتهُ جياداً كانت معدَّة لهم وساروا الى قصر البابا وكان على جانبي البطريرك كردينالان احدهما بروسبر كولونا ابن اخي البابا مرتينس الخامس ولما بلغ الموكب الى باب البلاط البابوي ترجل البطريرك وصعد المرقاة مخترقاً عدة غرف وردهات حتى حجرة الحبر الاعظم الخصوصية فدخل البطريرك مع ستة من كبار مطارنتهِ وهم مطارنة طرابزون وافسس وكيزيك وسردوس ونيقية ونيقوميدية فقام البابا من عرشهِ ولما اقترب اليهِ البطريرك تعانقا بمحبة واستقام البابا على عرشهِ وجلس البطريرك من عن يمينهِ على كرسي ككراسي الكرادلة ثم تقدَّم المطارنة الستة وقبّلوا البابا ايضاً ثم اصطفوا بجانب البطريرك ولبثوا واقفين كسائر رجال البطريرك الذين دخلوا يحيّون البابا ستة ستة وكان الاساقفة منهم يقبلون يد البابا ووجنتهُ اما الخوارنة وسائر خدمة الدين فكانوا ينحنون انحناءً بليغاً واما العالميون فكانوا يجثون لاثمين قدمي الحبر الاعظم

٣

ثم اخذ البابا والملك والبطريرك يهتمون بعقد حفلة افتتاح المجمع بحضور الكنيستين

معاً لان البابا كان قد عقد قبلاً جلستين استعداديتين لافتتاح المجمع رأس الاولى الكردينال نيقولا البرغاتي في ٨ كانون الثاني اما الثانية المعقودة في ١٥ شباط فقد رأسها البابا نفسهُ الذي بذل في هذا السبيل غاية الجهد والعناية بما لا مزيد عليهِ من الغيرة والمحبَّة كما يتحصل ذلك من البراءة التي اصدرها ليدعو الاساقفة المجتمعين في بال الى ايطاليا وهاك بعض فقرات منها :

« من اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله

لذكرٍ مؤبد

ان مخلصنا والهنا الذي سبَّحت الملئكة حين ميلاده المجيد قائلة المجد لله في العلا وعلى الارض السلام وفي الناس المسرّة لما اراد ان يبارح هذا العالم ترك لتلاميذه الذين احبهم حتى الغاية السلام والاتحاد ميراثاً . ونحن الذين رغماً عن عدم اهليتنا نقوم مقامهُ على الارض نتوق بشوق عظيم حسب واجبات رسالتنا ان يكون الاتحاد بين الشعوب المسيحية موثقاً وان يحافظ عليهِ اينما وُجد وان تشدّ عراه اينما انفصمت

فقبل ان نمتطي متن الحبريَّة العظمى كنا نرى ما حُرمتهُ الكنيسة من الخيرات العظيمة وما لحقها من الاضرار الجمّة من جراء الانشقاق بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب فحكمنا ان لا شيء اكثر اهمية في العالم من اعادة الاتحاد فبذلنا قصارى الجهد في توثيق هذا الاتحاد المرغوب بين كنائس الله في مجمع قسطنسا اولاً ثم لدى سالفنا السعيد الذكر مرتينس الخامس

فلما ارتقينا ذروة البابويّة رأينا ان ما كنا نرغبهُ قبلاً صار من واجباتنا فاخذنا نهتم بهذا المشروع الكبير بحرارة متقدة وفي تلك الاثناء وصل الينا السفراء من جانب ولدنا الكلي الاعزاز بالرب يوحنا باليولوغ قيصر الروم المعظم ومن اخينا المحترم

يوسف بطريرك القسطنطينية وارسلنا نحن ايضاً سفراء الى قسطنطينية مع بعض أساقفة وعلماء ليدبروا هذا الامر بدرايتهم . . »

ثم اخذ البابا في براءته هذه يعدّد كل ما صنعهُ لتهيئة هذا المجمع وتمهيد ما دونه من العقبات كما ذكرنا آنفاً ثم ذكر الخطاب النفيس الذي نطق بهِ احد سفراء الروم بتمامهِ وفيه حثّ بليغ من شأنهِ ان يحمل اساقفة مجمع بال على الاتيان الى المجمع وهاك لمعة منهُ :

« ان احبارنا الشيوخ خرجوا مسافرين من قبرص واورشليم والاسكندريّة وانطاكية وسائر المدن الشرقية البعيدة ومن اقاصي بلاد الروس قاطعين الوفاً من الاميال في مسالك صعبة حتى بلغوا القسطنطينية واخذوا يتهيّأون مع القيصر وبطريرك القسطنطينية الهرم ليقطعوا البحر الى ايطاليا لعقد المجمع فانتم كيف لا تقدرون على اجتياز مسافة يسيرة لتأتوا ساعين في هذا السبيل الآئل الى اتحاد الكنيستين »

ثم قال البابا « وبما انا نشتهي ان هذا المشروع لا يؤجَّل قد حكمنا انهُ يصير في ايطاليا . . . ولا نأذن لاحد ان يتجرأ على مخالفة امرنا هذا الخ »

وهذه الرغبة الحارّة التي شهدناها في قلب البابا لاتحاد الكنيستين قد اعرب عنها مرات كثيرة في بعض اعمال قبل المجمع ثم كرّر تبيانها عند افتتاحهِ الذي كان يوم الاربعاء الكبيرة الموافقة ٩ نيسان سنة ١٤٣٧ في كنيسة القديس جرجس الكبرى في فراره

الفصل الثالث

في جلسة المجمع الافتتاحية العمومية

١ ترتيب جلوس الشرقيين والغربيين ــ ٢ تعذُّر البطريرك القسطنطيني عن الحضور وارساله بطاقة تتلى عند الافتتاح . ــ ٣ ــ تلاوة براءة البابا

١

قرَّ الرأي على ان يجتمع الشرقيون والغربيون في صحن الكنيسة فيجلس هؤلاء في الجهة اليمنى والروم في اليسرى لكنهم اختلفوا على مقام القيصر فذهب بعضهم الى نصب عرشهِ في الوسط كما كان قسطنطين الكبير في المجمع النيقوي الاول وذهب فريق الى نصب عرش الحبر الاعظم في الوسط لكن البابا حسماً للخلاف وفَّق بين الطرفين فأُقيم في وسط الكنيسة عرش كبير وُضع فوقهُ كتاب الاناجيل المقدسة بين هامتي الرسل بطرس وبولس اما عرش البابا فنُصب في صحن الكنيسة الايمن ومن حواليهِ كراسي سائر آباء الكنيسة اللاتينية ونُصب عرش ملك الروم في الجهة اليسرى واقيم اخوه ديمتري على كرسي فاخر بقربهِ وأُقيم للبطريرك القسطنطيني عرش اوطأ قليلاً من منصَّة القيصر وبجانبهِ سائر آباء الكنيسة الشرقية في مقدمتهم نواب البطاركة الثلثة وهم انطونيوس مطران هيرقلية وغريغوريوس مرشد القيصر بالنيابة عن فيلوثاوس بطريرك الاسكندرية . ومرقص الافسسي وايسيدور مطران كياف حاضرة الروسية (ولم يكن هذا قد حضر بعد) نيابة عن دوسيثاوس بطريرك انطاكية . ومطران صرده ومطران مونمباسي نابا عن يواكيم بطريرك اورشليم . وجلس بعدهم مطارنة طرابزون وكيزيك ونيقية ونيقوميدية ومتلين ثم مطران الكرج مع واحد من اساقفتهِ ثم سائر الاساقفة الشرقيين ثم جميع منصّي الكنيسة القسطنطينية ورهبان جبل آثوس

وجلس في اسفل العرش القيصري سفراء ملك طرابزون وارشيدوق المسكوب

وامير الكرج وامير السرب والفلاخ ثم كبار منصّي السلطنة وجمهور كبير من اعيان امة الروم وبعض مشاهير علمائها نذكر منهم جمستيوس اللقدموني وارجيروبيل وجرجس سكورلاريوس الشهير الذي صار اول بطريرك بعد سقوط القسطنطينية بيد محمد الفاتح وسنأتي على ذكر ذلك في حينهِ. وجلس على جانبي كرسي البطريرك خمسة من شمامسته المسمّين بحاملي الصليب لان قلانسهم كانت مطبوعة في مقدمها علامة الصليب المقدس تمييزًا لهم عن غيرهم

وجلس من جانب اللاتين بعد البابا الكرادلة و ١٦٠ من المطارنة والاساقفة ثم رؤساء الرهبانيات العامون ثم علماء الغربيين وكثيرون من آل الكهنوت وكان ايضًا في ذلك الجانب سفراء اكثر ملوك وامراء المغرب

٢

ففي اليوم المعيَّن بعد ان قدَّم الروم الذبيحة الالهية في احدى كنائس البلدة حسب طقسهم واحتفل اللاتين بقداس الروح القدس في الكنيسة الكبرى دخل الروم الى المجمع فانتصب جميع اللاتين على اقدامهم اكرامًا للموكب الشرقي

وحضر هؤلاء المذكورون جميعهم هاته الجلسة الافتتاحية ما عدا البطريرك القسطنطيني الذي حال دونهُ ضعف صحتهِ فكتب بطاقةً دفعها بيد احد خوارنتهِ ليقرأها في المجمع جهارًا فانتصب هذا الخوري عند افتتاح الجلسة في بهرة المجمع وقرأ بطاقة البطريرك باليونانية واللاتينية وهذه ترجمتها

« يوسف برحمة الله

رئيس اساقفة رومية الجديدة القسطنطينية بنعمة ومشيئة

الله الذي يسوس كل شيء عائدًا لمجدهِ

قد تحرّكت في قلوبنا الرغبة النازلة من السماء لنتداول امام احبار الكنيسة الغربيين والشرقيين في المسائل التي يدور عليها الكلام وذلك باستنادنا على الكتاب

المقدس بدون مماحكة ولامراء حتى اذا اتفقنا فيما بيننا اتحدنا تحت راية الحقيقة الظافرة وبما انَّا نحن احبار الشرق قد آثرنا تجلّي الحقيقـة على جميع الاهوال والاخطار التي تجشمناها ووصلنا الى هنا بمعونة الله ينبغي ان نأخذ بالعمل وذلك باعلان افتتاح المجمع .

ولما كان من الموافق ان احضر بذاتي الى هذه الحفلة ولا يحسن ان تجتمع الاحبار ويعقـد المجمع ولا احضر وكان ضعف صحتي يمنعني عن حضور هذه الجلسة الاولى انا بنفسي أذنت بكتابي هذا للآباء المحترمين الذين ينوبون عن اخوتي البطاركة القديسين الثلثة ولسائر المطارنة واساقفـة الكنيسة بان يجتمعوا ويعلنوا افتتاح المجمع وبيانًا لذلك سَطرَت لكم حقارتنا هذه الرسالة في شهر نيسان»

٣

وبعد ان قُرئت رسالة البطريرك اوعز البابا الى احد الاساقفة ان يتلو البراءة الآتية :

«اوجانيوس الاسقف

عبد عبيد الله لذكرٍ مؤبد

نحمد الله القادر على كل شيء حمدًا جزيلاً على ما اولى كنيستهُ التي يتركها مرارًا تتقلب بين الامواج التي تلاطمها لكنهُ لا يدعها تغرق فيها بل يتيح لها ان تخرج من بهرة تلك المحن والضيقات اكثر قوّةً واعظم مجدًا . فها ان شعوب المشرق والمغرب التي افترقت امدًا مديدًا عن بعضها قد شمرت الآن عن ساعد الجد لعقد صلات الوحدة وعلائق الاتفاق . وبعد ان لبثت سنين طويلة في هذا الافتراق الذي كانت عواقبهُ عليها وخيمة نراها اليوم متفقة اتفاقًا جسيمًا في هذا المكان رغبةً في توطيـد الوحدة توطيدًا متينًا

ونحن نعلم أن من الواجب علينا وعلى كل الكنيسة ان نبذل قصارى جهدنا في ان يدرك هذا الابتداء غايةً حميدة ونجاحًا اكيدًا لنستحق ان ندعى شركاء الله بالعمل فبما ان ولدنا الكلي الاعزاز بيسوع المسيح يوحنا باليولوغ امبراطور الروم واخانا المحـترم

يوسف البطريرك القسطنطيني ونواب سائر الكراسي البطريركية الثلثة وعدداً كبيراً من المطارنة وآل الكهنوت وارباب المناصب الرفيعة وصلوا الى البندقية في الثامن من شباط فاعلنوا عدم استطاعتهم على السفر الى بال لعقد المجمع المسكوني وطلبوا ان يأتي الاساقفة الى فرّاره لعمل هذا المجمع والتضافر في امر هذا الاتحاد المقدس فانّا نحن الراغبين من صميم قلبنا في عقد عراه نثبت الآن كما اثبتنا سابقاً الامر الداعي اساقفة بال ان ينقلوا المجمع الى احدى مدن ايطاليا. والآن برضى الامبراطور والبطريرك وسائر المطارنة الحاضرين هنا نعلن ان المجمع المسكوني قد افتتح في مدينة فراره هذه حتى ان عمل الاتحاد هذا المقدس يباشر بدون ادنى مماحكة او عناد بعون الله ويحصل على ادراك الغاية المقصودة من ذلك كما من الاعمال الاخرى المقدسة التي لاجلها صار عقد المجمع

أُعطي في فراره في جلسة المجمع العام المعقودة في كنيسة القديس جرجس لتسع خلون من نيسان من السنة اا ١٤٣٨ لتجسد الرب وهي السنة الثامنة لحبريتنا»

وبعد قراءة هذه البراءة البابوية قام جمهور الآباء الشرقيين والغربيين ممتلئين فرحاً وتعزيةً وأملاً وطيداً بعقد عرى الاتفاق بين الكنيستين. وهكذا انتهت الجلسة الاولى من هذا المجمع المسكوني

الفصل الرابع

في الجلسة الثانية العمومية

١ سبب تأخر هذه الجلسة ـ ٢ لمعة في اصل الخلاف بين الكنيستين في القضايا الخمس ـ ٣ انعقاد الجلسة الثانية في مصلّى البلاط البابوي ـ ٤ ـ خطاب بيساريون مطران نيقية ـ ٥ ـ خطاب مطران رودس ـ ٦ ـ محاورة مرقص مطران افسس معهُ

١

لقد بدا ما اخّر انعقاد الجلسة الثانية العمومية الى ثامن تشرين الاول لكن لم تصرف هذه الاشهر سدًى فقد عُقدت في اثنائها اجتماعات خصوصية دارت فيها المناقشة على اهم القضايا المختلف عليها بين الطرفين وكان ستة عشر من علماء ولاهوتيي اللاتين مع ستة عشر آخرين من كبار الروم يجتمعون في ايام معينة للمجادلة في كنيسة الرهبان الفرنسيسيين لكن هذه الاجتماعات لم تحسب من اعمال المجمع لانها كانت خصوصية على اننا سنأتي ان شاء الله على شيء منها في محله

اما القيصر يوحنا فقضى هذه الايام الطويلة في دير يبعد عن فراره ميلين ترويحًا للنفس وتنزيهًا للعقل عن مهام الملك وكثيرًا ما كان يخرج للقنص في جبال ايطاليا الغنية بالاشجار والاطيار على انهُ لم يلبث امدًا في هذه العزلة حتى طرأ ما كدر صفاء كأسها ونغص عيشهُ فرغب في العود الى القسطنطينية اذ قدم منها ساعٍ ينذره بان السلطان مراد حشد الجيوش وجهز العدد ابتغاء ان يحمل على الحاضرة فيجتاحها فاضطرب يوحنا من هذا النبإِ الفجائي المشوم لانه كان قبل خروجه قد اعلم السلطان بسفره الى بلاد المغرب وجدَّد معهُ عهود الولاء لكن ما عتم ان انقشعت عن قلبهِ هذه الغيمة السوداء بوفود مبشّر بعدول السلطان عن الحرب لان علي باشا كبير وزراء السلطان وزعيم مستشاريه الذي كان على جانب من الحذق والفراسة اشار على مولاه

ان انتظر عاقبة المجمع المنعقد لعلهُ يحبط فتبقى الكنيستان مفترقتين وحينئذٍ يتسنّى لك ان تعمل ما تشاء والا اذا اقدمت الان على مهاجمة المدينة واحتلالها فانك تثير عليك غيظ جميع ممالك المغرب فيلتزمون اقـلهُ من باب الشرف ان يأخذوا بناصر ضيفهم قيصر الروم فتكون العقبى علينا وبالًا فاصاخ السلطان سمعًا لهذه النصيحة ولزم السكون

واهم القضايا المبحوث فيها في هذه الاجتماعات الخصوصيَّـة خمس: رئاسة البابا وانبثاق الروح القدس وتقديس الخبز الفطير والمطهر ونفوس القديسين

٢

يجدر بنا هنا ان نذكر طرفًا من اصل الخلاف بين الكنيستـين بشأن هذه القضايا الخمس فنقول: لم ينشأ هذا الخلاف الَّا في اعصر متفاوتة واقدمها الجدال في رئاسة البابا وتقدمه في السلطان وقد ابتدأَت المناقشة في هذه المسألة بعد نقل تخت المملكة الرومانيـة من رومية الى القسطنطينية وأُعلنت جهارًا حين تأليف القانون الثامن والعشرين من اعمال المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥٧ واليك ترجمتهُ:

«نحكم ان لكنيسة القسطنطينيـة المقدسة الحقّ في التمتع بالامتيازات التي لكنيسة رومية فان الآباء القديسين قد منحوا باستحقاقٍ هذه الامتيازات مدينة رومية لانها كانت عاصمة المملكة ولهذا السبب نفسه حكم المائة والخمسون اسقفًا بان من الواجب ان رومية الجديدة تمنح الامتيازات نفسها في النظام البيعي وتكون الثانيـة بعد رومية»

اما البـابا القديس لاون الكبير فابى الَّا رفض هذا القانون وانكره ليس فقط لانهُ كان أُضيف الى اعمال المجمع عند غياب نواب البابا والملك مركيانس نفسه بل خصوصًا لان البابا كان يقول ان سلطة البابوات ليست بمنوطة بعظمة مدينة رومية لكن بيسوع المسيح الذي اعطاها لبطرس وسائر خلفائهِ

لكن لم يحدث وقتئـذٍ من جراء ذلك ادنى انشقاق لان البطريرك القسطنطيني

اناطوليوس كتب للبابا يقول « اما بشأن القانون المضاف الى اعمال المجمع بخصوص الكنيسة القسطنطينية فالامر اليكم واثباتهُ مناط بقداستكم فهو لا يعتدّ بهِ بدون سلطتكم »

ولم ينشأ بعدئذٍ عن ذلك خلاف الا في سنة ٤٨٣ في ايام البطريرك القسطنطيني اكاكيوس الذي محا من الذبتيخا اسم البابا فِلِكس الثالث بسبب مناقشة حصلت بينهما في مسألة بطريرك انطاكية على ان هذا الخلاف كان شخصياً لا علاقة لهُ بمسألة دينية وما لبث ان حُسم وتوثقت اسباب الاتفاق في ايام البابا غريغوريوس الكبير والبطريرك يوحنا الصوام رغماً عمّا وقع بينهما من الخلاف بشأن اتخاذ البطريرك لنفسهِ لقب بطريرك مسكوني وعدم استصواب البابا هذا اللقب ولبثت عروة الوفاق ملتحمة بين الكنيستين ولم تنفصم في كل هذه المدة الطويلة ولا في مجمع القصر الذي عقده الملك يستينيانس الثاني في القسطنطينية ولم تقبلهُ البابوات وبقي البطاركة حافظين الاتحاد متيناً حتى ايام فوتيوس

ومن طالع رسائل فوتيوس التي كتبها للبابا القديس نيقولاوس الكبير التماس التثبيت منهُ في كرسيهِ البطريركي خُيّل لهُ ان فوتيوس هذا لمن اكبر نصراء الوحدة والسلام لانهُ انشأها بحذاقة بليغة تحمل قارئها على الظن انها مرسلة من ابن لابيهِ وهاك لمعة مما كتبهُ للبابا في الرسالة الاولى :

« اني لدى نظري الى الحمل الباهظ الذي اثقل حاذي والى ضعف نفسي ووهن قوتي لا استطيع ألّا اعرب لكم عن مزيد الحزن الذي تولّاني وانا تحت نير الاسقفية هذا الثقيل . على ان القيصر المفطور على ملاطفة ومجاملة الجميع قد عاملني بالعنف والقساوة بتعليق هذا النير في عنقي . فلما تنازل سالفي عن الدرجة البطريركية رأيت جميع المطارنة والكهنة والشعب قد نادوا بي كمن فمٍ واحد بطريركاً بدلًا منهُ »

وبعد ان اجابهُ البابا نيقولاوس انهُ لا يقدر ان يثبت انتخابهُ قبل ان يتأكد صحة

تنازل سالفهِ القديس اغناطيوس كتب للبابا رسالة اخرى تحاكي الاولى براعةً وحذاقة وهاك طرفاً منها :

«ان المحبة التي تشد عقدة الصداقة وتحل خيوط الانشقاق يلزم ان تقلع كل علة انقسام من بين الاب والبنين فكتبت اليكم الآن لأُبرِئ نفسي لا لمخالفتكم فقد بعثت اليَّ قداستكم بتوبيخات كان لها في قلبي وقع شديد على اني اعتبرها كأنها ناشئة عن محبتكم لي وغيرتكم على نظام الكنيسة ومع ذلك اني أحقّ بالشفقة من التوبيخ فقد انتخبوني رغماً عني وكنت ابكي وأُقيم عليهم الحجة حتى ضاقت بيدي الحيلة»

فيتحصل بديهياً من هذه العبارات الرقيقة الموجهة الى البابا ان فوتيوس كان اكبر نصير لاتحاد الكنيستين لانه يقرّ صريحاً ان للبابا عليهِ سلطة اذ يسميه اباهُ لكن كتاباتهِ هذه كانت خدَّاعة لانه هو اول من شقَّ ثوب الاتحاد وذلك بعد ان اجابهُ البابا بعدم قبول تثبيتهِ بطريركاً في حياة القديس اغناطيوس البطريرك الشرعي وهو الذي وسع خرق هذا الشقاق بتعريفهِ الكنيسة بانها افسدت الايمان باضافتها على قانون الايمان ان الروح القدس منبثق من الابن

ولا بد لنا هنا ان نصلح شططاً ركبهُ كثيرون من المؤرخين بنسبتهم شقاق الكنيستين الى فوتيوس والصحيح ان هذا الشقاق لم يكن الّا شخصياً وانحسم قبل موت فوتيوس بخمس سنين حين تولى تخت الملك لاون الحكيم الذي خلع فوتيوس عن البطريركية وولى مكانه البطريرك استفانس الذي جدد صلات الاتحاد كما كانت اولاً . على اننا لسنا ننكر ان القضية الثانية التي جرت المناقشة عليها في المجمع الفلورنتي اي انبثاق الروح القدس من الابن كان مصدرها فوتيوس

واما القضية الثالثة «وهي تقديس الخبز الفطير» فلم تبتدئ الا من عهد البطريرك ميخائيل كيرولاريوس الذي اعلن سنة ١٠٥٤ ان التقديس بالخبز الفطير مضاد للايمان

واما القضيتان الاخيرتان اي المطهر وسعادة القديسين فلا يمكن ان يعرف بالتدقيق زمن نشأتهما لان اول بحث فيهما كان في المجمع الفلورنتي

وهذه القضايا الخمس لم يقع عليها الجدال في مجمع ليون المسكوني حيث انعقدت عرى الاتفاق دون البحث عن شيء من قواعد الايمان بل اجتمع الآباء الشرقيون والغربيون ليعترفوا بسلطان البابا رئيس الكنيسة ورنموا قانون الايمان باليونانية واللاتينية بدون ادنى خصام او مجادلة ولذا ارتأى اكثر العلماء والمدققين ان قضايا الايمان لم تكن في شقاق الكنيستين الا اسباباً ثانوية او بالحري اعذاراً كان يستند اليها الرؤساء ومحبو الالقاب وقد قال الملك ميخائيل « ان الكلام ليس على امور دينية بل على مسالة تقدم البابا »

ولكن سنرى كيف هذه القضايا قد بُحث عنها البحث المدقق في المجمع الفلورنتي وكانت المناقشة شديدة من الطرفين حتى تتوطد دعائم السلام وتتمكن اركان الاتفاق والوئام

٣

ولم تعقد الجلسة الثانية في الكنيسة الكبرى بل في مصلّى البلاط البابوي لان البابا كان قد توعكت صحتهُ وقد رغب رغماً عنهُ ان يحضر هو بنفسهِ اما البطريرك يوسف الذي لم يتمكن في الجلسة الاولى من اتيانها فقد حضر هذه المرَّة مع الامبراطور وجميع المطارنة وكان ترتيب الجلوس فيها كما كان في الاولى. على انهم وضعوا ايضاً في الوسط مقعدين متحاذيين جلس على كلٍ منهما ستة من فطاحل اللاهوتيين من الروم واللاتين اما لاهوتيو الروم فكانوا مرقص اسقف افسس وايسيدور مطران كياف وكل الروسية وبساريون مطران نيقيـة ورجلٌ فرد عالمي واثنان من خدمة كنيسة اجيا صوفيا وجلس بازائهم على مقعـد اللاتين الكردينال دي سنت سابين ومطران رودس من رهبانيـة القديس دومنيك واسقف فرلي من رهبان القديس فرنسيس وثلثة آخرون من افاضل الرهبان وكان على جانب المقعدين منصَّة جلس عليها

احد حذّاق الروم نيقولا سيكندين ترجماناً بين الفريقين فاجاد في الترجمة وقد اذهل ببراعتهِ كل من حضر حتى ان المؤرخين اللاتين انفسهم فتحوا للثناء عليهِ في تواريخهم مجالًا طويلًا واليك ما كتب عنهُ المؤرخ اللاتيني الشهير هوراس يستنياني الذي كان معاصراً لهُ وقد حضر المجمع قال :

ان نيقولا هذا كان اعجوبة ذلك العصر لانهُ كان منتصباً بين المتجادلين يتناول الخطاب اليوناني من فم الآباء الروم ويترجمهُ على الفور الى اللاتينية بافصح لسان واحسن تبيان وكذا كان يطوي في اذنهِ خطاب الآباء اللاتين وينشرهُ باليونانية بطلاوة النطق وإحكام العبارة حتى ان آباء الروم واللاتين الذين يعرفون كلتا اللغتين اخذ منهم العجب كل مأخذ من ذكاء المترجم وتوقد عقلهِ واقرّوا بعجزهم عن ايضاح تلك القضايا العشر بافصح منهُ بياناً على نحو ما نطق بها لافظها

وقد تقدم اليهِ الكردينالان دي سان مرك وسنت سابين مُطريين حذاقتهُ فاجابهما بتواضع وتقوى «لا تنبغي نسبة هذه المهارة اليَّ كانها من عندي بل إنْ هي الَّا من لدن الروح القدس الذي نبحث عنهُ في هذا المجمع»

٤

فلما استوى كلٌّ من آباء المجمع في مجلسهِ انتصب بيساريون مطران نيقية الذي كان قويًّا في القول والعمل مكرماً عند الجميع بقداستهِ وعلمهِ رغماً عن حداثة سنهِ وافتتح هذه الجلسة الثانية بخطبة نفيسة باليونانية ترجمها الترجمان نيقولا المذكور الى اللاتينية وهاك ملخصها :

«اذا كان المرء يسرّ بالمشروعات الكبيرة عند كمالها فلا بدع اذا سُرّ عند ابتدائها لان الحكماء يقولون «من ابتدأ حسناً فقد اتمّ نصف العمل» فعلينا ان نسدي الشكر لله ونفتح قلوبنا لرجاء النجاح لانّا نرى عمل الاتحاد هذا العظيم قد كان حسن البداءة فها اعضاء الكنيسة المنفصلون عن بعضهم قد اجتمعوا الآن في هذا المكان

جسمياً بعد قطع جميع المصاعب والعقبات ليشتغلوا في تأليف العقول والقلوب

« فمن لا يرى في هـذا العمل يد الله القادرة على كل شيء ومن لا يرجو انه تعالى يتمم هو بنفسهِ هذا المشروع الخطير . أجل هذا هو اليوم الذي صنعهُ الرب فلنفرح ونتهلل بهِ فان سهام العدو التي دفعها الينا لنحارب بهـا بعضنا بعضاً نحن الاخوة والاصدقاء اعضاء رأسٍ واحد ورعية راعٍ واحدٍ لقد اخطأَت الغرض لان القلوب تجذل فرحاً وتشتهي البلوغ سريعاً الى نقطة الوفاق والسلام

« وانَّا لمستعدون كلنا لا لنكون منتصرين بآرائنا بل لنرى الحقيقة ساطعة جليَّة ولا احد منا يأنف من الانغلاب في هذا المضمار اذ لا يُعدُّ ذلك افتقاراً بل غنًى فان واجد الحقيقة لا يكون مغلوباً بل منتصراً ابداً ولا يقهر في هذا الميدان الَّا ابو الكذب ابليس الرجيم

« فمن يستطيع ان يقدر عملنا هذا حقَّ قدره من الاهميَّـة العظمى بل من يمكنهُ ان يوضح ثقل ما تنوء بهِ كواهلنا من واجبات هذا الامر الخطـير فعلينا اذاً ايها الآباء المحترمون ان نقدم قبل كل شيء صـلواتنا وضحايانا لله عزَّ وجلَّ ليتمم بيدهِ القوية هذا المشروع الشريف لأنَّا لا نثق بقوانا الشخصيَّة بل نتكل عليهِ تعالى فهو يتقبَّل اتكالنا وينجِح آمالنا لكن اعلموا انـهُ لا تـكفي لذلك الصلاة بل يجب ان نشمر عن ساعد الجدّ فنستمطر رضى الله ومعونتهُ

« فنسألك ايها الآب ان تؤهّلنا الى ذلك اليوم البهج الذي فيهِ نرنم معاً ترانيم الفرح والحبور ونتفق كلنا بروح واحدة تحت كنف رأسٍ واحد

« وانت ايها المسيح الملك اياك نطلب ملكاً لنا فاصنع ان هذين القطيعـين لا يكونان إلَّا واحداً ولا تسمح بان ينفصل احدهما عن الآخر لانـك سلمت نفسك لاجل كليهما وبذلت دمك لرحضهما معاً فلا تأْذن ان يفترقا ابداً لئلَّا يحيد احدهما عن جادة الخلاص القويمة

« وانت ايها الروح القدس ينبوع النعم روح الحكمة روح الفهم روح مخافة الله انت الذي لاجلهِ اجتمعنا هنا ابعد عنا كل فكر كبرياء بثّ في قلوبنا مخافة الله وكن معنا نصيرًا في اتمام اي عملٍ يخصك واطلع الجميع على الحقيقة لانك لست فقط روح الحق بل تعلم كل حق كما قال المسيح

« فيا ايها الثالوث الاقدس الذي خلق العالم بنوع عجيب وحفظهُ ودبرهُ وجعل الانسان كملك على جميع الممالك المنظورة ليتبع في سلوكهِ السراط المستقيم الى الملكوت السماوي اذكر ان اعظم النعم التي زينت بها الانسان انما هي الحقيقة فتعطف اذن وهبنا هذا النور لنسير كلنا في سواء السبيل ونصل الى سعادتنا الاخيرة يا من هو مثلث بالاقانيم وواحد بالجوهر اعطنا ان نكون واحدًا في ايمان واحد وان الرأي الذي يفصلنا عن بعضنا ينسخ من بيننا لنصير واحدًا ولو كنا من قبائل متباينة مشربًا ووطنًا

«فانتم يا آباء المجمع ما اكثر ما اشتغلتم وصليتم لتبلغوا الى هذا اليوم السعيد انظروا الآن ان اتعابكم قد ازهرت ازهارًا جميلة تبشركم بعقدها اثمارًا جليلة. وانت ايها الاب المغبوط انك الآن سعيد وستكون اسعد جدًّا حين نصل الى بغيتنا حيث تقودنا العناية الربانية. فان الله تعالى سيثيبك ثوابًا عظيمًا اذا قدرت ان تجعل الوحدة في كنيستهِ المقدسة. انك لقد استفرغت كنانة الجهد وبذلت غاية الاهتمام رغبةً في ان ابناء المسيح يجتمعون من جميع الاطراف ليبحثوا مع كل الحاضرين كاخوة احباء بالروح والتقوى حتى تدرك الحقيقة اكليل الانتصار. فلا احد يقوى على انكار ما اقول لاني انطق بالحق وانا والجميع شهودٌ على ما اصطنعتهُ الينا من الفضل العظيم فتمم اذن ما ابتدأت بهِ وداوم على ادارة هذا العمل المهم حتى ان فرحك الحاضر ينمو و يبلغ الغاية. فطوبى ثم طوبى لذاك الذي بدأ العمل وداوم على ادارتهِ وبلغ بهِ الى منتهى غايتهِ انهُ ولا شك حقيق بكل ثناء وشكر عند الله والناس

«ولك في هذا المشروع الشريف مساعد منيف ألا وهو ابنك الامبراطور الكلي الجلال والبهيّ الديانة المحب المسيح الذي ازدانت نفسهُ بجميع المناقب الجميلة ولا سيما التقوى الصادقة والغيرة على مجد الله فهو الذي لما كان لا يفتأُ راغباً في الاتحاد لم يبرح باحثاً بتعطش وتشوق الى بلوغ هذه المنية فلما تسنَّت لهُ الفرصة انتهزها باهتمام وفرحٍ لادراك ذلك الوطر الجليل . وادراكاً لرغبته هذه الشديدة قد اقتحم اهوال السفر وازدرى الراحة والملاذ في بلاطـهِ واستهدف لعواصف البحر واخطاره فاخترق جميع المهالك التي تهدَّدته هو ووطنهُ ومملكتـهُ ليصير معاوناً ليسوع المسيح في اعادة السلام للكنيسة التي لا يكتفي بان يكون فقط لها ابناً بل يشاء ان يكون ايضاً عنها محامياً كما هو الآن وكما سيكون

« وسيعاونك ايضاً في ذا العمل الجليل هذا البطريرك القديس الموقر الذي رغماً عن بلوغهِ اقصى درجات الشيخوخة لم ينفك مزداناً بنفسٍ شابَّة محلاة بجميع الفضائل والمحامد فان جُلَّ متمنّاهُ ان يرى مشروع الاتحاد تامّاً واني اعلم انهُ لولا هذا الامل الحميد لكان قد سئِم الحياة وطلب من الله ان يحلهُ من قيود العمر الثقيلة

«ونحن كلنا لك معاونون في هذه الحرب الحاضرة لان كلاًّ منا لا يرغب الَّا في ادراك هذه غاية الاتحاد فاليها نسدّد سهام لحاظنا واليها تتوق قلوبنـا المضطرمة فلاجلها وحدها اجتمعنا من الاقطار الشاسعة البعض من الاصقاع اليونانية والبعض من الجهات الشمالية والبعض من سائر البلاد الشرقية البعيدة وامتطينا كلنا اهوال السفر لنلقي العصا في ايطاليا

« فنسألك ايها الرب مخلصنا ان لا تأذن بان الشيطان يعدمنا ثمرة اتعابنا ولا يبلبل راحة اجتماعنا هذا واتحادنا الذي ايَّاهُ قصدنا وتجشمنا دونهُ اخطاراً جمـة فليبعد عنا العدوّ وليحارب آخرين غيرنا ولا يمسَّنا ابداً

« فلناخذنَّ اسلحة الروح لنظفر بالعدوّ ولنتدرَّع درع العدل ولنلبس خوذة الخلاص

ولنتقلدنَّ سيف كلمة الله ولنجاهد الجهاد الحسن ولا نذوقنَّ راحةً قبل ان نكون قد ادركنا الغاية التي نحن قاصدون

« فلنطرحنَّ عنا كل عجرفة تمرَّد على الله ولنستاصلنَّ عروق كل كبرٍ وعتوّ ومجدٍ باطل ولنتَّشح كساء التواضع ومخافة الله ولنحدّد الى الله وحدهُ الابصار

«فلنرضينَّ اذن ان نُغلب حيناً لاجل الحق ذلك اولى من ان نغلب دائماً لاجل الباطل لان المغلوب للحق ليس بخاسر بل اقول ان ذلك الانغلاب انتصار بل هو خير عظيم لان الناس عموماً يوءثرونَ ان ينالوا الخيرات على ان يمنحوها هم انفسهم للغير ومن المقرَّر ان المرءَ يسرّ بان يخلصهُ الغير من الشرّ اكثر من ان يخلص هو الآخرين

« فكملا ايها الملك الكلي الجلال وانت ايها البطريرك الجزيل القداسة مسيركما في هذا السبيل الحميد لتبلغا بسرعة الى الغاية التي جئنا اليها فقد قيل ان الاعمال القسرية تتقهقر متأخرة يوماً فيوماً اما الاعمال البديهية التي تحركها الطبيعة فهي بالعكس تتقدم ناجحةً دائماً فهكذا نحن بما ان غايتنا قلبية لا نرغب الّا في التقدم الى نوال الاتحاد فلنسرع كلنا الى هذه النقطة وانتما فتمتعا بادراك هذا الارب باسرع ما يمكن بان تحثَّانا على النشاط والاسراع والتقدم

« ليرضَ الله ان يزدلف منا ذلك اليوم السعيد يوم الاتحاد والفرح والحبور ليتني اتمتع بهِ فاستطيع ان اخطب فيكم كما انا الآن خاطب لاشكر المراحم الالهية التي منت علينا بهذه الموهبة السنية وفيهِ نسبح للمسيح الهنا الذي لهُ المجد والاكرام الى دهر الداهرين امين »

٥

فلما فرغ بساريون من الخطاب انبرى مطران رودس اللاتيني واجاب عليهِ بعبارة لاتينية انيقة واليك محصّل مقالتهِ :

« اني اتأسف ايها الحبر الاعظم على اني لا اتكلم في هذا المحفل بما جاء بهِ مطران

نيقية الفائق الاحترام في خطبتهِ الافتتاحية البليغة الجليلة لا لانهُ اهمل امرًا لم يذكر او قصر في ايراد شيء بل اودُّ لو استطعت ان اثبت الآن قولهُ باستقامة وبلاغة لان للاتحاد والسلام مكانةً سامية ولا سيما في ما يناط بالدين حتى لا يتسنَّى لاي لسان مهما كان فصيحًا ان يوفي كيل الكلام عنهما لكن لمَّا كنت قد جئت الى هذا الاجتماع للتنقيب عن بعض قضايا ومباحث مما لا يتحمل فصاحة كلام فلا أخوض في ذلك عباب البحث كما ان الفرصة لا تسمح لي بأن اتكلَّم في الشيئين معًا

« امَّا ما لا اتمالك ان اجرَّ عليهِ ذيل الصمت فهو انك ايها الاب الاقدس بعد ان اتيت اعمالًا عظيمة في ايام حبريتك أقدمت على هذا العمل الخطير ففقت نفسك والعمل فلا احد من سلفائك يشابهك بهذا نعم انهم قدروا ان ينشروا الدين في بلاد شتى بتعاليمهم ورسائلهم اما انت فقد جمعت هنا بغيرتك وعلى نفقتك بل على سفنك نفسها افاضل الامم الشرقية ونخبتها من اليونان والروتان والكرج والفلاخ وغيرهم من الامم القاطنة في جوار البحر الاسود

« فبحكمتك عقدت في ايطاليا هذا المجمع المسكوني الذي شاء الحضور فيهِ عن طيبة قلبٍ عظمة ملك الروم الكلي الجلال وغبطة بطريرك القسطنطينية الجزيل الوقار اللذين لما اضطرم قلبهما بالشوق لقداستك ارادا ان يبصرا باعينهما ما حمل الى آذانهما ذائع صيتك وازديان اقنومك باجلّ الشمائل والفضائل

« ولكن باي قلبٍ متلهف قد سعيا لبلوغ وطرهما هذا لقد تجشما اشقّ الاهوال واصعب الاحوال اذ من لا يرى ان هذا الملك الكلي الجلال قد ترك مملكتهُ تحدق بها سيوف اعدائها المرهفة وجاء الى ايطاليا راكبًا اخشن المراكب في اوعر المسالك هاجرًا ملاذّ البلاط القيصري باذلًا في هذا السفر الطويل راحتهُ وحياته في سبيل امرٍ واحد عظيم ألا وهو عقد عرى الاتحاد

«ومن لا يرى ما تكلّف من العناء هذا البطريرك الجليل فحسبنا شيخوختهُ وما

في جسمهِ من الامراض دليلًا على حرارة شوقهِ للاتحاد فلم يدَّخر تعباً ولا مشقة ولا كبر سنٍّ رغبةً في ادراك هذه الغاية الحميدة

«ومن لا يرى هذا الحشد العظيم آباء هذا المجمع الملتئم من الاقطار الشرقيـة من الرتبتين الكهنوتية والعالمية قد اعرضوا عن مهامهم واعمالهم وتركوا كل ملاذهم واصدقائهم مقتحمين اخطار البحر والبر ليصلوا الى هذه الارض ملبـين لدعوتك ايها الاب الاقدس واثقين بان ما ابديت من دلائل الغـيرة والسخاء في النفقات لشاهدٌ كبير على انك راغب في خير الأُمَّتين وايصالهما الى نقطة الاتحاد المحبوبة

«ان قرننا هذا يشهد اليوم امرًا غريبًا عجيباً يرى الذين كانوا مفترقـين بالقلب والروح مجتمعين الآن ليوطّدوا دعائم الالفة والاتحاد. فكيف يشاهد العالم انك انت اول مسبب بعد الله لهذا الاتحاد ولا يرى انك انت الراعي الصالح وانت خليفة بطرس الحقيـقي

« فكمّل اذن ايها الاب الاقدس عملك هذا لتجمع قطيع المسيح الى حظـيرة واحدة حتى تستطيع في يوم الرب العظيم ان تقدم للمسيح تلك النفوس التي قُدتّها في طريق الخلاص واوصلتها الى الابدية متمماً بذلك واجبات كونك نائب المسيح

« فهذا ايها الاب الاقدس ما استطعت ان اقول بديهاً والآن بعـد اقتباس بركتك اتجه نحو هذا الاب الجزيل الاحترام مطران افسس لاسألهُ ماذا يفهم بكلمة «اضافة» الى قانون الايمان ؟ »

٦

فنهض مرقص اسقف افسس قال: لما كانت غايتنا الاولى هي اتحاد الكنيستَين وكان اول محرّك لها المحبة وجب ان نسير دائمًا على سنن المحبة حتى اذا اتفق سماع كلمة ما فظة في سياق الكلام فلا ينبغي ان تعزى الى خباثة قائلها بل الى خشونة موضوع الخطاب

« فلنبتدئ باسم الله : نسأَلكم ايها الآباء المحترمون لمَ اضافت الكنيسة الرومانية شيئًا على قانون الايمان ضدًّا لمنع الآباء ؟ ولا اريد بذلك معنى ما أُضيف بل نفس الالفاظ التي زيدت على قانون الايمان المكمّل بسلطة الآباء لفظًا ومعنًى . هذه اذن غاية بحثنا الآن . ونطلب ان يُتبع دائمًا منهاج واحدٌ في الجدال اي في ابتداء كل جلسة تصدَّر المسألة التي تدور عليها رحى الجدال . فان سنحت لنا الفرصة الآن فلنفتح باب البحث والَّا ارجأناهُ الى الجلسة الآتية »

فقال اسقف رودس : ونحن كذلك نرجو ان اية خشونة وقعت في الالفاظ تعزى الى وعارة مسلك الجدال لا الى سوء النية على اننا نسأَل ايضًا ان تكون الاجوبة جلية عارية عن كل تشويش والتباس واخال ان من الموافق ان تعطى الاجوبة خطًّا

فقال مرقص : اذا استصوبتم بسط الكلام الآن فاسمعوا اشياء اكيدة بشأن القضية الجاري عليها البحث : إن سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح قبل ان يحتمل الآلام اوصى تلاميذهُ هذه الوصية : سلامي اعطيكم سلامي استودعكم . وطلب منهم شيئًا واحدًا ان يحرصوا على محبة بعضهم بعضًا فمن ثم يبين ان مخلصنا اوضح لنا بهذا ان السلام ليس الَّا وصية شرطية لا يعطى الَّا للذين يحرصون على المحبة فمن خالف الواحدة خالف الاخرى لا محالة اي من نقض المحبة فقدَ السلام . هذا وانَّا لنعجب كيف الكنيسة الرومانية نقضت المحبة باضافتها شيئًا الى قانون الايمان العامّ دون علم الشرقيين ذلك ما لم يستطعهُ الآباء ولا المعلمون القديسون ولا المجامع المسكونية . فمن هنا نتج ضرورة نقض السلام وذلك الشقاق المشؤُوم الذي جلب اضرارًا عظيمة على كنائس الله . اما الآن فلما طلبت الكنيسة الرومانية نفسها المحبة ارادت ان تبحث عن الاسباب التي بقطعها يُعطى للداء الدواء . فقد دعتنا نحن آباء الكنيسة الشرقية لنبحث عن علل الشقاق فهرعنا بطيبة قلب حتى اذا صادفنا المحبة حظينا بالسلام بيننا . فاسأَل اولًا ان نتفق بالرأي بحفظ صورة الايمان الاكيدة الشائعة المثبتة من

الجميع ولتقرأ تحديدات المجامع القديمة لنضارع الآباء القدماء كما جرى في المجمع السابع الذي لم يثبت مسكونياً الّا بعد قراءة القوانين السابقة. فهكذا باقتفائنا آثار آبائنا القديسين نستطيع بشفاعتهم ان نبلغ الى غايتنا المرغوبة. وبعد قراءة هذه القوانين ننتقل الى شيء آخر

فاجاب مطران رودس : لا يسمح لنا الوقت الآن للبحث في القضايا الخمس التي عرضها علينا آباء الروم لكنني اقول شيئاً جواباً على ما نطق بهِ مطران افسس فألاحظ اوّلًا ان نصّ الانجيل عن المحبة التي عاقبتها السلام انما يفهم بِهِ اللاهوتيون عادةً المحبة لله لكن ان أُطلق مجازيًا على محبة القريب فلا افهم كيف يقال ان الكنيسة الرومانية نقضت ذمام المحبة مع انها بالعكس قد استفرغت دائمًا غاية الجهد في اغاثة الشرق ايام كانت الهرطقات العديدة تتلاعب بكنائسهِ اي تلاعب. ولنا على ذلك اقوى دليل بالبابا سلفسترس في عهد الآريوسيين وسلستينوس في زمان نسطور بإرسالها قصادهما ليرئسوا المجمعَين المسكونيَّين. ولم تجرِ الكنيسة الرومانية على هذه الجادّة قبل وقوع الاختلاف في قانون الايمان فقط بل بعد ذلك ايضاً لم تفتأ ترسل السفراء والنواب لحفظ الاتحاد والسلام. ولا نطيل الكلام في ما عملهُ البابا غريغوريوس حين عقد مجمع ليون سواء كان ببذل النفقات الجمّة او الاتعاب الشاقّة بل نرجوكم ان تلاحظوا الآن ما عملهُ هذا البابا العظيم الذي يسوس اليوم الكنيسة وقد اعدّ بعد عنيف الجهد والعناء هذا المجمع الذي نحن فيهِ ملتئمون فمن ثم يظهر لكل ذي عينين ان الكنيسة الرومانية لم تنقطع قط عن حفظ الوداد والاتحاد لا كما قلتم انها الآن ارادت ان تعقد عرى المحبة والوفاق. وقد طلبتم ان تقرأ قوانين المجامع السابقة فلا اظن ان لذلك الآن داعياً لان غاية بحثنا لا تتناول الصور الخارجية بل الايمان بالثالوث الاقدس الذي يجب ان يثبت استناداً الى نصوص الكتاب المقدس ومع ذلك اذ اراد البابا تلاوة هذه القوانين كرغبتكم فلا بأس

مرقص : هب الكنيسة الرومانية حافظت على وثاق المحبة فذلك لا يحسم المسألة المشكلة وارى ان قراءة القوانين لامر ضروري ومهمّ

مطران رودس : سنأتي على بيان هذا الامر الذي يُفسره ُ قانون الايمان ونوضح انهُ حقّ وحينئذٍ لا يجب ان نكون مفترقين بيننا بشيء

مرقص : ان بيان هذه الحقيقة لا يجدي نفعاً لحسم ما بيننا من النزاع لاننا لا نستطيع ان نقبل هذه الزيادة ولو حقيقية لما في ذلك من مخالفة اوامر ورسوم الآباء

مطران رودس : ان كانت هذه الزيادة حقيقية فلِمَ لا تقبلونها

مرقص : لان ذلك ممنوع من الآباء

مطران رودس : اقول اولاً: انه قد سُمح باضافة هذا التفسير الى قانون الايمان لانه لا يزيد شيئاً. ثانياً : واذا دُعي هذا التفسير زيادة فهي قد وُضعت شرعياً



الفصل الخامس

الجلسة الثالثة الى الرابعة عشرة وانتقال المجمع من فراره الى فلورنسة

١ مدار الجلسة الثالثة على التداول في منهاج الجدال ـ ٢ ـ قراءة قانون الايمان ـ ٣ ـ تجادل بساريون مع مطران رودس في الجلسات الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة ومع مطران فرلي في التاسعة والعاشرة وانقضاء الجلسات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة بلا جدوى ـ ٤ ـ اهانة سفراء دوق بركونيا للقيصر وتقديمهم الترضية ـ ٥ ـ امر البابا بانتقال المجمع الى فلورنسة بسبب الطاعون وسفر الآباء جميعاً اليها

١

يتحصل من الجلسة الماضية ان مطران افسس وردوس كانا على خلاف مزدوج لا في المسائل المبحوث عنها فقط بل ايضاً في المنهج الواجب اتباعهُ في المجمع فان مرقص كان يطلب ان لا يبحث عن حقيقة العقيدة الدينية بل عن ظاهر صورتها وما زيد فيها. اما مطران رودس فكان يرتئي بوجوب البحث اولًا في حقيقة العقيدة التي عليها الخلاف ثم يتطرَّق منها بعد اثباتها الى مباحث اخرى اذ قال ان ذا المنهج لأقرب الى ادراك الغاية فاذا ثبت الحق للاتين بزيادة الابن على قانون الايمان فلا اشكال بقبولها من الطرفين وكذا ان ثبت الحق للروم بوجوب حذفها فلا يبطؤ اللاتين ان يتفقوا مجمعين على حذفها وحينئذٍ تتوثَّق عرى الاتحاد

وكان مطران رودس بذلك مصيباً لانهم طالما كانوا يبتعدون عن منهجهِ هذا كان يبتعد عنهم الاتحاد وقد عُقدت اربع عشرة جلسة كانت كلها عقيمة لم يتقدّم فيها احد خطوةً واحدة نحو نقطة الاتفاق المرغوبة على انَّا سنرى ان الحبر الاعظم امر بان يتبع المنهج الذي يريدهُ آباء الروم خلافاً لما كان الآباء الغربيون يطلبون وعليهِ لما عُقدت الجلسة الثالثة انبرى مطران رودس يلقي خطبتهُ التي وعد بها في الماضية

وافتتحها بهذه الالفاظ « بعد استمداد بركة قداستكم ورضى خاطر الملك والبطريرك اشرح الآن بايجاز تلك المسألة التي عرضها آباء الروم امس . . . » فعارضهُ مطران افسس قاطعاً كلامهُ بقولهِ « انَّا لم نأتِ امس الَّا على عرض المسألة ابتدائياً فلا يوافق شرحها الآن قبل ان نشرح ما نريد من القضايا»

فقال اسقف رودس لقد سألتم أمس لِمَ طرأت زيادة على قانون الايمان فاسمع الآن السبب. فاجاب مطران افسس: لم استطع امس لضيق الوقت ان اقول كل ما اريد. فقال اسقف رودس انكم سألتم سؤالًا تامًّا وطلبتم عنهُ الجواب فاسمعوه . ثم قال كردينال سنت سابين لقد افترقنا امس متفقين جميعنا ان يجيب مطران رودس على المسألة فاسمعوهُ وسيكون لكم يومٌ كامل تعرضون فيـهِ ما تريدون . فلا يوافق الآن ان نقرأ قوانين المجامع لاننا نسلّم مؤمنين بقانون ايمان الرسل والمجمع النيقوي وتحديدات سائر المجامع

فقال مطران ردوس كان البحث أمس عن ثلثة امور فقط وهاءنذا ابيّن اليوم ان الكنيسة الرومانية لم تفتح اقل سبيل للانشقاق

الَّا ان مطران افسس تصدَّى لهُ ثانيةً وقال: لقد أُعطينا ان نختار ما نشاء من بسط المسائل الخلافية او تفنيدها اما نحن فآثرنا بسطها اولًا لانكم كيف تقدرون ان تجاوبوا على اعتراضاتنا قبل ان تسمعوا ما ندعمها بهِ من البراهين

مطران رودس: ألم تسألوني الجواب على الاعتراض الذي قدمتموه فكفي بذلك بيانًا للفروغ من اعتراضكم

مطران افسس: عفوًا من ابوتكم ان ذلك عبث

مطران رودس: افتريدون الآن ان تسمعوا الجواب

فاجابهُ مطران نيقية: لا إِلَّمْ تسمع براهيننا اولاً. أفيؤذن لنا ان نقدم حججنا أم لا أوَ تريدون ان تحكموا علينا ونحن صامتون .

مطران رودس : اسمعوا اولاً جواب السؤال الذي بسطتموهُ ولكم فيما بعد ان تتكلموا ما تشاؤون

مطران نيقية : هب اننا طلبنا اولاً على اعتراضنا الجواب فليس في ذلك علة لحرماننا من حق بسط اعتراضنا وتأييدهِ

فقام الاب يوحنا من مونتنه نيكرو احد رؤساء الدومنيكيين وقال : لقد سبق لكم الكلام طويلاً ايها الآباء الاجلاء عن المحبة . فالقديس اوغسطينوس يقول في كتابهِ العاشر من مدينة الله ان المحبة تقوم في ان كلًّا يحفظ الترتيب المتوجب عليهِ فان لم يحفظ هذا الترتيب فلا تحفظ المحبة فالجدال ضربان اما بالاحتجاج ويلزم المحتج ان يؤيد مقالتهُ بالبراهين واماَّ بالسؤال فعلى السائل والحالة هذه الَّا يأتي ببراهين أو بحجج اما انتم فقد عمدتم الى الجري على المنوال الاخير فيجب حفظهُ بترتيب والَّا لم يبقَ للمحبة اثر

مطران نيقية : اني امدح حفظ المحبة على اننا نختار الضرب الاول اي الاحتجاج فاذَن ليسمَع لنا

ولما طالت المناقشة ذهب كردينال سنت سابين الى الحبر الاعظم وسألهُ كيف يحسم هذا النزاع . ثم عاد الى مكانهِ والتفت الى القيصر والبطريرك قال : ان سيدنا البابا امرني بان اقول للملك الكلي الجلال والبطريرك الجزيل الاحترام : قد كان في استحسان الاب الاقدس ان يُسمع لمطران رودس لانه طُلب منهُ الجواب ويخشى اذا تُسوهل الآن في مثل هذه التغييرات من تكرارها مراراً . وبما انَّا نرتئي بوجوب الاصغاء لمطران رودس وانتم تقولون الخلاف وقد طال المدى فمن الموافق ان ننتخب ستة من كل من الطرفين و يقرروا منهاج الجدال لئلاَّ يطرأ مثل هذا الخلاف في الجلسات التابعة

فقال القيصر : هيَّ بنا الآن فقد مضى الوقت ولينتخب ستة من كل فريق

للاتفاق على منهاج الجدال . فانقضت الجلسة على هذا المنوال

وانما اسهبنا الكلام في اعمال هذه الجلسة ولو لم يكن فيها ما يجدر بالاسهاب ليبين كيف طال الجدال على غير جدوى لان البابا مرضاةً للشرقيين امر بان يتبع المنهج الذي يرومهُ مرقص الافسسي باسم الروم . ولكن كل الجلسات التي تُجري فيها على هذا المنهاج لم تأتِ بادنى فائدة وليست من الاهمية بشيء لان المتجادلين فيها لم يمسوا البحث في المبادىء الدينية ولان القيصر لم يكن له فيها دخلٌ كما في سائر الجلسات التي تليها فلذا عزمنا على اختصارها ما استطعنا

٢

عُقدت الجلسة الرابعة وقُضيت كلها كما شاء مرقص الافسسي اي قرىء اولاً قانون ايمان المجمع النيقوي باليونانية مع ترك الزيادات الكثيرة التي اضافها اليهِ المجمع القسطنطيني الاول و بعد قراءتهِ تلا مرقص قول المجمع الافسسي المسكوني الثالث الذي يحرم فيهِ اية لفظة كانت على هذا القانون ثم بيَّن ان منع المجمع هذا كان عادلاً ولو كان المجمع المسكوني الثاني قد زاد الفاظاً كثيرة على القانون النيقوي

وهاك قانون الايمان النيقوي برمتـهِ مع الالفاظ التي زادها المجمع الثاني وقد ميزناها بوضعها بين العلامتين « » : نؤمن باله واحد ابٍ ضابط الكل خالق « السماء والارض » كل ما يرى وما لا يرى . و بربٍّ واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب « قبل كل الدهور » اله من اله نور من نور اله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر الذي بهِ كان كل شيء الذي من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل « من السماء » وتجسد « من الروح القدس ومن مريم العذراء » وتأنس « وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي » تألم وقُبر وقام في اليوم الثالث « كما في الكتب » وصعد الى السماء وجلس عن يمين الله الآب وايضاً يأتي « بمجدٍ عظيم » ليدين الاحياء والاموات « الذي لا فناء لملكهِ » وبالروح القدس « الرب المحيي المنبثق من

الآب الذي هو مع الآب والابن يسجد لهُ ويمجد الناطق بالانبياء » وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . نعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا . ونترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي آمين

ثم اجتهد مرقص في ان يبين السبب الذي حمل المجمع الثالث على منع اضافة اية زيادة على قانون الايمان النيقوي دون انكاره على المجمع القسطنطيني اضافة بعض شروح بشأن الروح القدس والتجسد الالهي لان هذه الالفاظ كانت مقدرة في القانون النيقوي

ثم قُرئت الرسالة التي كتبها البابا شلستينس تثبيتاً للمجمع الثالث مجدداً فيها المنع الذي وضعهُ آباء ذلك المجمع بشأن عدم زيادة شيء على القانون النيقوي

وقُرئ أيضاً بطلب مرقص بعض تحديدات من المجمع الرابع (الخلقيدوني) ومن المجمع السابع (النيقوي الثاني) ولما تليت قوانين المجمع السابع قرأ الكردينال نسخة لاتينية كلية القدامة عن اعمال هذا المجمع مذكوراً فيها انبثاق الروح القدس من الآب والابن في قانون الايمان وعقب ذلك بقولهِ « استناداً الى شهادة كثيرين من المؤرخين المشهورين اخصهم مرتينس البولوني عند كتابتهِ تاريخ البابا ادريانس يثبت ان هذا المجمع شرح قانون الايمان وزاد عليهِ لفظة «والابن» وقد تابع هذا الرأي بعض المؤرخين الروم منهم عمانوئيل كالكا »

فلم يلتفت مرقص الافسسي الى المسألة الاخيرة بل الحَّ في اثبات ما قالهُ الآباء في تحريم كل زيادة على قانون الايمان

ورأى الكردينال ان الملك يريد فضّ هذه الجلسة لتأخر الوقت فقال للبابا « ايها الاب الاقدس ان الملك يرغب في حلّ الجلسة لمضي الزمان لكن بما ان اعمال المجمع السابع قد قُرئت بدون زيادة « والابن » ولدينا بعض نسخ تثبت زيادة هذه اللفظة فالتمس ان تأذن في قراءة قانون الايمان الذي تلاهُ المجمع السابع كما هو مدوَّن في

كتبنا فاذن البابا فقرئ القانون ثم قام الملك وقال سنجتمع غداً في الساعة العادية وكذا انقضت الجلسة الرابعة

٣

ولم تعقد الجلسة الخامسة الّا في ٢٠ تشرين الاول وقد جُري فيها وفي السادسة المعقودة في ٢٥ منهُ على سنن المنهج الذي ارتآه مرقص الافسسي وقد تولّى فيها بساريون المحاماة عن الروم ولكنهُ جاء بادلة ابين وبراهين اقوى وحجج اعدل مما جاء بهِ مرقص وكانت مناقشتهُ مع مطران رودس وقد استغرقت كل هاتين الجلستين مع الاربع التالية

وكنا نودّ لولا ضيق المقام ان ننشر الخطبتين النفيستين اللتين تلاهما بساريون في الجلستين السابعة والثامنة رداً على الخطبتين البليغتين اللتين القاهما مطران رودس في الجلستين الخامسة والسادسة . ثم خُتمت الجلسة الثامنة بمحاورة دارت بين الخطيبين آلت الى نقطة واحدة فيها اتفقا على وجوب الجدال في نفس القضية الواقع عليها الخلاف لا على عرَضها والّا فلا سبيل الى الاتحاد

على ان بساريون قد شغل ايضاً منصة الجدال في الجلستين التاسعة والعاشرة مع مطران فرلي وفي كل هذا لم يتداخل مرقص الافسسي لكنهُ اخذ في الجلسة التالية وما يليها يجادل عن حرفية القضية المبحوث فيها بدون مسّ جوهرها وكذا انقضت الجلسات الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة دون اقل فائدة للاتحاد بل ذهب فيها الزمان سدًى لتضييعهِ بالمناقشة عن عرض المسألة دون جوهرها

الّا ان الآباء اخيراً قد قرّ رأيهم جميعاً على ترك هذا المنهاج الذي لا طائل تحتهُ مستصوبين المشورة التي قدمها للمجمع الكردينال يوليانس بقولهِ : « لا يمكن الاتحاد من غير بحث في جوهر المسألة فاذا تبيّن الحق مع الروم وجب على اللاتين ان يمحوا على الاثر من قانون الايمان لفظة « والابن » واذا ثبت الحق للاتين وجب بقاؤها فلا مانع من اثباتها لانها تضحي امراً حقيقيا »

٤

ولما اوشك الفريقان ان يسلكا في الجدال منهجاً واحداً ينتهي بهما الى النقطة المأثورة حالت دونهم عدة موانع اجّلت عقد جلسات المجمع اخصها الطاعون الذي فشا في فراره فانخلعت لهُ القلوب وخيف ان يتبدَّد شمل الآباء هرباً من المدينـة فتفوت الفائدة. ومن تلك الموانع ايضاً حادث كان ظاهرهُ طفيفاً الّا انه كان يخشى منهُ حلّ عرى المجمع وذلك ان سفراء فيليب لوبون دوق بركونيا الموفدين الى المجمع دخلوا في الجلسة المنعقدة في ٢٧ تشرين الثاني واستووا في منصاتهم المعدَّة لهم بعد ان حيّوا الحبر الاعظم ولم يلتفتوا الى الملك يوحنا ولم يبدوا لهُ ادنى اشارة احترام

فتميّز الملك يوحنا غيظاً من هذه الاهانة الجهاريَّة وتهدّد بحلّ المجمع ما لم يقدّم لهُ السفراء ترضية كافية كفّارة عن تصرّفهم الغير اللائق فامتنع السفراء اوّلاً لكن البابا تلافى الامر وتوسَّل اليهم بدموع غزيرة فقبلوا بتقدمة الترضية. فتقدموا الى الملك في الجلسة التالية وكلّموهُ بالترجمان بصوت منخفض الّا ان هذه الترضية الباردة كانت بنوعٍ ما شرّاً من الاهانة

٥

اما الطاعون فسرى في كل المدينة وفتك بها فتكاً ذريعاً وكاد المجمع ينحلّ لتشتت شمل آبائهِ فاصدر البابا براءة بنقل المجمع الى مدينة فلورنسة قال فيها: بما ان الطاعون فشا في فراره قبل الشتاء ولم يقف سريانه في ايام البرد بل اشتدّ وزاد ويخشى ان يتفاقم شرّهُ في الصيف ولاسبابٍ اخرى غيرها قد حتمنا بعد الاتفاق مع ولدنا العزيز يوحنا باليولوغ واخينا المحترم يوسف البطريرك القسطنطيني ورضى المجمع كلهِ وامرنا بنقل المجمع من فراره الى فلورنسة القريبة السليمة الجيدة الهواء

فتلبيةً لهذه البراءة الصادرة في ٩ ك ٢ عام ١٤٣٨ اخذ الاساقفة ينتقلون الى فلورنسة شيئاً فشيئاً وبعد ان امر البابا باتخاذ كل وسائل التجلة والاكرام في نقل الملك

والبطريرك وسائر آباء الروم خرج من فراره في ١٦ كانون الثاني باحتفال فائق كما يكون في حفلة طواف القربان الطاهر يوم عيد الجسد الالهي وذلك لان من عادة البابوات اذا خرجوا من رومية ان يحملوا معهم القربان المقدس محفوفاً بما يليق بهِ من معدَّات الابهة والاجلال فخرج البابا متشحاً بحللهِ الحبرية الجزيلة الثمن وعلى رأسهِ التاج المثلَّث راكباً فرساً كريماً اشهب يتقدمهُ فرس آخر اشهب مقلَّداً قلائد الفضة والذهب عليهِ اناء فضي فيهِ القربان الطاهر ومن حوله خمسون رجلاً يمشون موقدين الشموع والمصابيح تجلةً لجسد الرب وكان وراء البابا عشرة افراس شهب مسرجة بعددٍ ثمينة جميلة ووراءها كان الكرادلة وسائر الاحبار ممتطين متون الخيل وكان المركيز دي است وابنهُ ممسكين برسن الفرس الذي كان البابا راكبهُ حتى ظاهر المدينة. وكان هذا الموكب المقدس الحافل محفوفاً بفصيلتين من العساكر البابوية . وقد عرج البابا في مسيرهِ هذا على مدن كثيرة ولم يصل الى فلورنسه الَّا في ١٣ شباط

اما ملك الروم والبطريرك القسطنطيني فذهبا بعد وصول البابا ودخل البطريرك المدينة قبل الملك فلقي من الاحتفال والتكرمة ما لاقى في فراره وقد استقبلهُ على باب المدينة اثنان من الكرادلة وعدد كبير من احبار البلاط البابوي ولما بلغ الى قصر اعيان فلورنسه الذين يسمونهم بالسادة وكانوا جالسين في منصاتهم انتصبوا على اقدامهم وقوفاً اجلالاً للبطريرك وحيوه تحيَّات مشربة تبجيلاً وتشريفاً وقدموا لهُ رقيم تهنئة بوصولهِ باللغة اليونانية عن يد ليونار اروتين احد كبار الاعيان وعظماء الخطباء والمؤلفين وهكذا أُدخل البطريرك الى النادي المعدّ لهُ ولم يكن للشعب يد في هذا الاحتفال لان ذلك اليوم لم يكن عيداً

اما الملك يوحنا فبلغ المدينة في احد المرفع فازدحمت الجموع الكثيرة في الاسواق والطرق وعلى السطوح ليشهدوا ما أُعدَّ للملك من الاستقبال النادر المثال وزُينت اكبر الشوارع التي يمرّ بها الموكب الملكي بافخر الزينات وابهاها ولكن اتفق ان

الملك لما دخل باب المدينة دمعت أَعين السحب وتفجرت ميازيب السماء سيولاً فتفرّق الجموع ايادي سبا وهرع الملك الى القصر من اقرب الطرق . وكان نبلاء فلورنسة وسادتها قد جاؤوا لاستقبالهِ الى باب المدينة فحيَّوهُ بالاجلال وقرؤوا لهُ تقاريظ يونانية نفيسة تهنئة بقدومهِ وذلك بلسان ليونار اروتين المذكور آنفاً . ومن غريب الاتفاق ان الملك لما دخل القصر انقطع المطر وتبددت الغيوم وصحا الجو صحواً كاملاً

وكان جلّ اهتمام الملك حينئذٍ التداول مع الحبر الاعظم بشأن استئناف جلسات المجمع فقرّرا ان اربعين من آباء الروم واربعين من آباء اللاتين يجتمعون في قاعة الحبر الاعظم ويتداولون في ترتيب البحث في الجلسات الاتية ويتفقون على السير في منهج واحد

فلما اجتمع الثانون بحضرة الحبر الاعظم والملك انبرى كردينال سنت سابين خطيباً واسهب . ومما قال : لما كانت المناقشة على صورة قانون الايمان قد طالت كان لا بدّ من الشروع الآن بالبحث عن جوهر الاعتقاد بشأن الروح القدس . فاجاب الملك بل الاولى ان تختار الطريق الوسطى اي ان يبحث عن المسألة الثانية ولا تترك الاولى . فاستصوب الكردينال اشارة الملك وقال لا بأس من بسط الكلام عن المسألة في خلال الجدال فيجاب عنها في الحال . ثم قرّ الرأي ان تعقد الجلسة الاولى في فلورنسة في ثاني شهر آذار



الفصل السادس

استئناف جلسات المجمع في فلورنسة حتى موت البطريرك القسطنطيني

١ الجلسة الخامسة عشرة وهي الاولى في فلورنسة — ٢ — السادسة عشرة — ٣ — الجلسات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون وتغيير مرقص الافسسي منهاج الجدال — ٤ — مؤتمر الشرقيين عند البطريرك وخطاب الملك فيه — ٥ — الجلسة الحادية والعشرون والثانية والعشرون — ٦ — اجتماع الشرقيين عند البطريرك ثلاث مرات وتجادلهم في وجوب الاتحاد — ٧ — تقديم البابا للشرقيين اربع وسائل للاتحاد وجوابهم عليها — ٨ — استئناف اجتماع الروم عند البطريرك وخطاب بساريون وجرجس سكولاريوس — ٩ — اجتماع عشرة من علماء كل كنيسة للتوفيق بين اقوال القديسين — ١٠ — دعوة البابا جميع اكليرس الروم لترويج الاتحاد — ١١ — اجتماع الروم عند البطريرك وخطاب الملك وبساريون وايسيدورس — ١٢ — توالي جلسات الشرقيين الخصوصية وابداء كل رأيهُ واتفاقهم على الاتحاد ما عدا مرقص — ١٣ — مصادقة الآباء على هذا الاتفاق خطاً بشأن انبثاق الروح القدس — ١٤ — فصل سائر المشاكل — ١٥ — موت البطريرك يوسف البطريرك القسطنطيني ومأتمه

١

عُقدت جلسة ثاني آذار ولم يحضرها الملك ولا البطريرك وكان مدار البحث فيها بين رئيس الدومنيكان ومرقص مطران افسس على انبثاق الروح القدس فافتُتح الجدال بخطاب تمهيدي لطيف القاه الدومنيكي. ثم سأل آباء الروم ماذا يفهمون بلفظة الانبثاق وهل هي عندهم بمعنًى واحد في الآيتين الانجيليتين المذكور فيهما انبثاق المسيح من الآب وانبثاق الروح القدس من الآب

فتداول آباء الروم السؤال هنيهة ثم قام مرقص الافسسي واجاب: لا يمكن تحديد الاختلاف بينهما لان انبثاق الروح القدس لأعسر على الفهم البشري من انبثاق الابن اذ ليس للاول مثال حسي اما الثاني فمفهوم مما عاثلهُ في الطبيعة من الابوَّة والبنوَّة .

فسألهُ الدومنيكي هل يفهم بلفظة الانبثاق هنا ان الاقنوم الالهي المنبثق من الاقنوم

الآخر يقبل منهُ كل جوهرهِ . فاجاب مرقص انه يفهم بانبثاق الروح القدس من الآب انه ينال منهُ كل جوهرهِ

فقال الدومنيكي حسناً قلت ومن ثم ابرهن : كل اقنوم يقبل من الآخر كل جوهرهِ يكون منبثقاً منهُ والحال ان الروح القدس يقبل من الابن جوهرهُ فهو اذن منبثقٌ من الابن

مرقص — انّا نسلم بالمقدمة الاولى لكنّا ننكر الثانية فأْتِنا بالبينات المثبتة ان الروح القدس يقبل جوهرهُ من الابن

الدومنيكي — لقد احسنت جواباً وهاءنذا آتيك بكثير من الحجج من اقوال قديسي الروم تأييداً لهذه المسألة . أُثبت ذلك من القديس ابيفانيوس الذي يقول في كتابهِ « الانجر » في الفصل ٧١ : « ان الآب يدعو من هو منهُ ابناً ومن هو من كليهما روح قدس » . ومن ثم ابرهن : اذا كان الروح القدس هو من الاثنين فلا شكّ انهُ يقبل جوهر الاثنين

ويقول القديس نفسهُ في كتابهِ عينهِ الفصل ٧٣ : « كما انهُ لا احد يعرف الاب الّا الابن ولا الابن الّا الآب كذلك لا احد يعرف الروح القدس الّا الآب والابن الذي منهما يأْخذ وينبثق ولا احد يعرف الآب والابن الّا الروح القدس . الذي هو من الاب والابن » . فهاتان الشهادتان من القديس ابيفانيوس تُثبتان ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن ويأْخذ جوهره من كليهما

فضاق مرقص حينئذٍ ذرعاً فانكر المقدمة الكبرى التي كان قد سلم بها اولاً قال : لا يجدي كلامك هذا شيئاً لانهُ يمكن ان يكون الواحد من الآخر بانواع كثيرة فلا يترتب على ذلك من ثم انهُ يكون منهُ بطريقة الانبثاق . ومع ذلك تحقيقاً لصدق الشهادة التي اوردتها من القديس ابيفانيوس لا بدّ من قراءتها في كتابهِ المذكور

الدومنيكي ـ اني قد ذكرتها بحروفها

مرقص ـ تكرم بقراءتها لأنّا نشكُّ في صدق نسختكم

الدومنيكي ـ : قد ذهب من يأتينا بالنسخة ولكن اذا فرضنا انها صحيحة فهاتِ ما عندك من المسائل

فتوالى الجدال بين مرقص والدومنيكي قبل وبعد وصول النسخة اليونانية التي قُرئت باليونانية ثم باللاتينية وانفضت الجلسة على غير طائل

٢

فلما انعقدت الجلسة السادسة عشرة في خامس اذار استؤنفت المناقشة بين مرقص والدومنيكي على قدم وساق وكان مدارها اولًا على نصوص منسوبة للقديس باسيليوس الكبير وقد اشتدَّ في هذه الجلسة وما يليها الخصام وكان من الاهميَّة بمكان سواءٌ كان من حيث المسألة المبحوث فيها او من حيث تناقض النصوص واختلاف النسخ اليونانية فيما بينها او بينها وبين الترجمات اللاتينية القديمة

وقد ضاع في هذه المناقشات زمانٌ طويل سدًى في فحص النسخ ومقابلتها حتى ان الملك نفسهُ تدَّخل في التنقيب والتدقيق باحثًا في نسختين يونانيتين من كتاب واحد للقديس باسيليوس احداهما كانت بيد مطران ميتلين الرومي وكانت مطابقة للنسخ التي عند اللاتين والاخرى بيد مرقص وكانت مخالفة لها وبما انه لم يوجد في فلورنسة الا هاتان النسختان التزم الفريقان ان يعرضا عن شهادة القديس باسيليوس هذه الى البحث في غيرها لان هذه الشهادة لم تكن تثبت بخطٍّ مستقيم انبثاق الروح القدس من الابن بل الوهيته . وكان الفرق بين الطرفين ان نسخة مرقص كان يفهم منها ان الروح القدس ادنى من الابن اما نسخة مطران ميتلين وسائر النسخ اللاتينية فيقرأُ فيها ان الروح القدس يأتي بعد الابن ولكن ليس في ذلك ما يمسّ جوهر الاقنومين الاخرين الآب والابن

٣

ثم قُضيت الجلسات السابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة في البحث في شهادة القديس باسيليوس المذكورة آنفاً وفي شهادة أُخرى من الكتاب نفسهِ المؤلف ضدّ افنوميوس لكن لم تأتِ هذه الجلسات بنتيجة تذكر لان النسخ كانت متغايرة فلم يقتنع احدٌ بما كان يأتيهِ الآخر من البراهين لكن هذا الجدال لم يكن عقيماً لان آباء الروم كلهم حتى الملك نفسهُ كانوا يصيخون للايضاحات والبينات التي كان يأتي بها الدومنيكي وافضى الامر بمطران الروسية واكثر مطارنة الروم الى ان اسرُّوا في اذن الملك انهم اقتنعوا برجاحة ادلّة الدومنيكي. ولم يصرّ على رأيه الّا مرقص الذي لمّا توسم في سائر الآباء الروم نفوراً من عنادهِ ومحاولتهِ في اختلاق اعتراضات جديدة رأى ان ينقل الجدال من شهادات الآباء القديسين الى نصوص الانجيل فأنشأ خطبة مزخرفة افتتح بها الجلسة العشرين قال:

ان ايماننا لم يأتِ من بشر بل من يسوع المسيح الذي خاطب تلاميذهُ فماً الى فمٍ فلندعنَّ اذاً الشهادات الملتبسة ذات الشك التي ان احسنّا فهمها كانت لنا اكثر تأييداً ولنهرع الى ينبوعها واساس ايماننا اي كلام الرب. لان من المحال ان يكون باسيليوس الكبير قد قال شيئاً ضد المسيح او خلافاً لاقوال الرسل. هذا ما اتحرّى ايضاحهُ ملتمساً منهُ تعالى ان يلقي في فيَّ الكلام

فلنكرمنَّ التلميذ بمعلمهِ والخادم بسيده مبينين انهما على اتفاق تامّ فان الكلمة الذي هو الله معلم كل لاهوت قد قال لتلاميذه في خطابهِ الاخير لهم «متى جاء المعزّي الذي ارسلهُ اليكم من عند الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق فهو يشهد لي» في هذا النطق الالهي ذكر الاقانيم الثلثة والسيد المسيح نفسهُ وصف كلاً بما يختص بهِ فقال عن الروح القدس وحده «ومتى جاء المعزي» وقال عن نفسهِ

وعن الآب « ارسلهُ اليكم من عند الآب » وقال عن الآب وحده « الذي من الآب ينبثق »

ثم استفاض مرقص في شرح كلامهِ هذا طويلًا فقام الدومنيكي وآخذ مرقص على تغييرهِ منهج الجدال المبدوء بهِ منتقلًا من التشبث بشهادات القديس باسيليوس الى الاستمساك بآيات الانجيل الطاهر ومع ذلك شرح بايجاز معنى هذا النص الانجيلي بقولهِ ان المسيح قد فسر لفظة « من الآب » في الفصل السادس عشر من يوحنا اذ قال : « كل ما للآب فهو لي ولهذا قلت يأخذ مني » ثم أبان ان الموافق متابعة المنهج الاول حتى آخرهِ من دون انتقال الى غيرهِ . وفي غضون هذه الجلسة ترَّكف بعض آباء الروم الى الملك وفاوضوهُ سرًّا فاعرب عن ميلهِ الى المنهج الاول ولكن لم يمنع مرقص من متابعة المنهاج الجديد الذي فتحه رغبة في استطلاع الافكار والآراء

فاخذ مرقص ينتقد تعليم اللاتين منددًا بهم زاعمًا انهم ضلوا بجعل مبدأين في الثالوث الاقدس الا ان الدومنيكي درأ عن الكنيسة الرومانية شبهات هذه التهم الفظيعة قال : « ان كل الآباء اللاتين وجميع اللاهوتيين لا يعرفون في الثالوث الاقدس الّا مبدأً واحدًا » .

فلمَّا سمع آباء الروم هذا الجواب انشرحوا صدرًا واظهروا مزيد رضاهم عنهُ لان اكبر سبب للانشقاق قد زال بهذا التفسير فانهم كانوا موقنين بان الكنيسة اللاتينية راكبة متن الخطاء من هذا الوجه . اما مرقص فلم ينبس ببنت شفة

٤

وفي اليوم التالي (١٩ اذار) عقد الملك مؤتمرًا خصوصيًا حضرهُ جميع آباء الروم عند البطريرك يوسف فخطب الملك فيهم خطبة انيقة اشار فيها الى ما كان في فكر ابيهِ مانويل من صالح النوايا لعقد الوفاق بين الكنيستين ايثارًا لرأي البطريرك افتيميوس الذي كان فريدًا بين علماء ولاهوتيي عصرهِ وقد بعث كلاهما وقتئذٍ الى

ايطاليا بيوحنا افدومين الذي شرع في امرٍ جليل جزيل النفع لخير الكنيستين لكن ابت الايام ان تسعدهُ فلم يبلغ منهُ وطرًا . ثم قال الملك عن نفسهِ : انهُ انما لاتمام هذا الامر فقط قد عانى هو وجميع الاساقفة مشقة السفر الى ايطاليا تاركًا مدينة القسطنطينية زمانًا طويلًا وانهُ لما كان الغربيون قد اقرّوا بانهم لا يؤمنون بمبدأين او علتين للانبثاق كما كان الروم يتهمونهم حتى يومنا هذا بل اعلنوا انهم يعتقدون كالشرقيين اتمّ الاعتقاد بعدم وجود غير مبدإٍ واحدٍ وعلة واحدة للانبثاق صار يؤمل ان الاتحاد اوشك ان تنعقد عراهُ . وقال الملك ايضًا انه طلب من البابا ان يدفع لهُ صورة ايمان الغربيين خطًّا وقد استلمها منهُ واراهموها لتعرض على الآباء الروم جميعًا وتفحص باجتهاد بليغ ليرى هل يمكن ان يتم عقد الاتفاق بين الكنيستين

فلما فرغ الملك من الخطاب شرع آباء الروم يفحصون تلك الصورة و يقابلونها مع كتابات الآباء القديسين الاقدمين فرأوا ان صورة الايمان التي كتبها الآباء والعلماء الغربيون مطابقة كل المطابقة لما كتبهُ آباء الروم القديسون بل وجدوها محتوية برمتها في رسالة كتبها القديس مكسيمس المعترف وقرَّ رأيهم جميعًا ان الغربيين اذا قبلوا هذه الرسالة بما فيها فلا مانع من الاتحاد وقدموا هذا الرأي للبطريرك والملك فصدقا عليهِ

اما الغربيون فقبلوا بحكم الروم بفرحٍ جزيل على انهم لوجود عدَّة قضايا لم يبحث بعد فيها جهارًا ولم تثبت استصوبوا عقد جلسات أُخرى للتنقير عنها

٥

وضرب الملك لعقد الجلسة التابعة اليوم الحادي والعشرين من اذار فشغل الدومنيكي كل الجلسة بافصاحهِ عن ايمان اللاتين بشأن انبثاق الروح القدس مستشهدًا بالآباء القديسين الغربيين ثم استأنف الموضوع في جلسة أُخرى اتيًا بعددٍ كبير من نصوص الآباء الروم وقرّ رأي حاضري هذه الجلسة على عقد مجتمع فوق العادة في كنيسة القديس فرنسيس في ٢٦ من الشهر نفسهِ للمقابلة بين كتب الآباء القديسين

باللغتين اليونانية واللاتينية . فلما كان اليوم الموعود قُوبلت تلك الكتب فوجد ان اكثر النسخ متطابقة ومن ثم رأوا ان لا شيء يحول دون ابرام الوفاق التام فطلب البطريرك حينئذٍ من البابا ان يؤجل عقد سائر الجلسات العمومية ليتمكن الآبا الشرقيون من الاجتماع والاتفاق على إعداد ما يجب للاتحاد

٦

فرضي البابا فأمر البطريرك جميع آباء الروم من مطارنة واساقفة وخوارنة وشمامسة ورهبان وعلماء ولاهوتيين ان يجتمعوا كلهم عنده في ٣٠ آذار للمداولة والمشاورة فلم يتخلف احد عن الحضور في هذا المؤتمر الخصوصي حتى مرقص نفسهُ الذي لم يحضر الجلستين الماضيتين إما لوعكةٍ اصابتهُ على زعمهِ واما لانه رأى ان مساعيهُ قد حبطت

فانبرى ايسيدورس مطران الروسية وخطب فيهم خطبةً بليغةً شدَّد فيها الدفاع عن الاتحاد وعقبهُ بساريون مطران نيقية مؤيدًا المقال نفسهُ فتصدّى لهما دوروثاوس مطران موغبازية وهتف صارخًا لن نقبل ان نصير لاتينيين . فاجابهُ مطران الروسية وقال « ونحن لن نريد ان نصير لاتينيين لكن نقول بما ان عموم الآباء القديسين من الغربيين والشرقيين قد اجمعوا على ان ينسبوا للابن بثق الروح القدس فمن الصواب ان نعترف بهذه الحقيقة مع كنيسة رومية ونتحد معها

فقال انطونيوس مطران هرقلية بما ان الآباء الشرقيين كتبوا عن ان الروح القدس منبثق من الآب والابن هم اقل عددًا من اولئك الذين كتبوا انه منبثق من الآب بدون ذكر الابن فمن الموافق ان نتبع رأي اغلبية الآباء

فدعم مرقص الافسسي قول مطران هرقلية وزاد عليهِ بان قال ان الغربيين هم هراطقة فلا يجب الاتحاد معهم اذا لم يحذفوا من قانون الايمان لفظة « والابن »

فعارضهُ بساريون سائلًا « هل تحتسب ايضًا الذين يعتقدون بان الروح القدس

منبثق من الابن كلهم هراطقة » فاجابهُ مرقص بالايجاب فتميز بساريون من الغيظ وصرخ بصوتٍ عالٍ استغفر الله عن هذا التجديف . فيا للعجب هل الآباء القديسون الذين كتبوا عن انبثاق الروح القدس من الابن نعدهم هراطقة ؟ فلتخرس الشفاه الكاذبة التي تناقض اقوال القديسين . فاسمعوا يا اخوتي وتأمّلوا أفمن الممكن ان يكون القديسون الشرقيون والغربيون متناقضين فيما بينهم والناطق بافواههم واحد فقط وهو الروح القدس كلّا ان هذا لا شك من المستحيل وان كنتم على ريب من ذلك فافحصوا كتبهم تروا ان لجميع القديسين معتقدًا واحدًا بعينهِ » . فعارضهُ مرقص قائلًا : «وما يُدرينا ان كانت كتبهم قد حرّفت » . فاجاب بساريون « وهل من احد يتجاسر ان يقول ان خطبًا ومواعظ برمّتها قد أُفسدت او ان كتبًا كثيرة حاوية تفاسير مسهبة عن الانجيل والكتاب المقدس وصحفًا لاهوتية عظيمة قد تلاعبت بها ايدي التحريف والتصحيف فاذا اطرحنا هذه المواعظ العظيمة والكتب والتفاسير الجليلة فما يبقى لنا الا صحف خاوية ليس فيها الّا ورق ابيض »

وطال الجدال والمناقشة على هذا المنوال امدًا مديدًا على غير طائل ثم فُضّت هذه الجلسة الخصوصية ولم تأتِ بثمرة تذكر وكان اكبر سبب لتعويق الاتحاد انحراف اميال البعض من رجال البلاط الذين لم يكونوا يودون الاتفاق مع الكنيسة الرومانية لاغراض في النفس وكانوا يحركون بعض الاساقفة على وضع العقبات دون نجاح هذا المشروع الجليل

ثم اجتمع آباء الروم ايضًا عند البطريرك يوم الاربعاء الكبيرة فافتتح الكلام مطران ميتلين قائلًا : علينا ان نختار احد امرين اما ان نتحد مع الغربيين اذا كان ايمانهم قويمًا واما ان نجهر بانهم مشاقّون ونرجع الى القسطنطينية . ومع ذلك قولوا لي ألا تقبلون كلكم كتاب القديس مكسيمس . فاجابوا كلهم بقبولهِ . فقال : ان القديس مكسيموس يشهد صريحًا ان الروح القدس ينبثق من الابن واستشهد على الفور بكلام

القديس وهو « ان الآب مصدر الابن بالبساطة وهو المصدر الاول للروح القدس لان الابن يُصدر الروح القدس »

ثم قام مطران نيقية بساريون وذكر نصوصاً كثيرة من الآباء الشرقيين في شأن انبثاق الروح القدس فاشار البطريرك حينئذٍ بكتابة هذه النصوص ليمكن انتقادها وفحصها فيقرّ الرأي العام على ما اليهِ يلهمون. وامر بوجوب الاجتماع في اليوم التالي للبحث في هذه النصوص والشهادات واقرار الرأي الاخير فيها

لكن لتوعك صحة البطريرك تأجل هذا الاجتماع الى يوم الجمعة من اسبوع الفصح فاجتمع عند البطريرك آباء الروم مع الملك يوحنا وبعد مباحثة طويلة قرّ رأيهم ان يرسلوا الى البابا وفدًا مؤلفًا من المطرانين ايسيدورس وبساريون واثنين من الشمامسة حملة الصليب وزعيم حفظة الصحف وكبير خدمة الكنيسة. وقد وُكل الى هذا الوفد ان يبلّغ الى البابا من قبل الملك والبطريرك وسائر آباء الروم ان الشرقيين يرون ان مسألة الخلاف قد فصحت وانتقدت لكنهم لا يتركون من عوائدهم شيئًا فاذا رأت قداستهُ وسيلة للاتحاد فليوضحها لهم

٧

فلما عرض هذا الوفد على للبابا ما عُهد اليهِ فيهِ اجاب البابا « قولوا لجلالة الملك ولاخينا البطريرك ولكل الكنيسة الشرقية ان لحسم المسألة اربع وسائل فقط اولًا: ان كنتم لم تقتنعوا اتمّ الاقتناع بالبراهين الكثيرة التي اوردناها لكم من شهادات الانجيل والآباء القديسين عن انبثاق الروح القدس من الآب والابن فابينوا ان كنتم بعدُ على ريب من امرٍ فنكفيكموهُ

ثانيًا: ان كانت بيدكم بعض شهادات من الكتاب المقدس والآباء مضادّة لنا فقدّموها

ثالثاً: ان كانت عندكم براهين من الكتاب والآباء تثبت ان رأيكم اقرب الى الصواب وادنى الى التقوى فاشهروها

رابعاً: ان لم ترغبوا في اتخاذ هذه الوسائل المذكورة فلنجتمع كلنا في مكان واحد ويقوم احد الكهنة فيحتفل بالذبيحة الالهية ثم نحلف كلنا الشرقيين والغربيين ان كلاً منا يقرُّ بالحقيقة حسب ما يلهمهُ اليهِ ضميره ثم نقترع ونحكم اخيراً وفقاً لاغلبية الاصوات»

فرجع الوفد وقدَّم جواب البابا لجمعية آباء الروم فحظيت الوسائل الثلث الاولى باتم القبول لدى الاغلبيـــة واتفقوا على القول الآتي: «ان جواب البابا صوابي في كل فروعهِ الاولى الثلاثة لانهُ لا يمكن ان ننكر ان آباء كثيرين من الكنيسة قالوا بانبثاق الروح القدس من الابن ولم يُرَ منهم احد ينكر هذا الانبثاق. ولا قِبل لنا ان نقول ان تعليمنا اقرب الى الصواب والتقوى من تعليم الغربيين لان كلا التعليمين في كتب الآباء القديسين الشرقيين والغربيين واحد ولا يمكن ان يكون احدهما احسن من الاخر فيجب اذن ان نتحد معهم في ايمان واحدٍ

امَّا ما قيل في الواسطة الرابعة من الحلف والاقتراع في الكنيســة فيظهر الآن غير موافق لانَّا لم نرَ مجمعاً مسكونيًّا اتخذ هذه الوسيلة لفض المشاكل منهجاً»

فقال مطران ميتيلين اذاً لمَ لا نزال نخوض في مضمار الجـدال والخصام ولا نهتم في بتّ المسألة وانهائها فقد رأينا بعد الفحص الدقيق ان تعليمنـا مستقيم وان الزيادة التي اضافها الغربيون الى قانون الايمان لمزيد الايضاح انما هي مستقيمة ايضـاً لانهم اخذوها ايضاً مثلنا عن كتب الآباء فضلاً عن ان قانون الايمان مبني على الكتاب المقدس واضافة «والابن» عليهِ مأخوذة من اقوالهِ فاذن قانون ايماننا مستقيم وقانونهم كذلك فليس لنا الا ايمان واحد ومعتقد قويم واحد والهٌ واحد بثلثة اقانيم في كلا القانونين. فلا ندعنَّ الوقت يمضي سدًى فلننضمّ معًا الى وحدة كنيسة الله ولنقطع كل مناقشة. هذا جوابنا نعرضهُ على قداسة بابانا

فكان لهذا الكلام في القلوب احسن وقع ولم يعارضهُ احد من الآباء . اما الملك فاشار الى وجوب انشاء جواب للبابا على الوسائل الاربع فقام حينئذٍ غريغوريوس البروتوسنجلوس في كنيسة القسطنطينية ومعتمد البطريرك الاسكندري في المجمع وقال للملك «باي جواب نجيب البابا عن هذه المسائل فان قلنا ان شهادات الآباء القديسين باطلة او مزيَّفة فقولنا كذب وان قلنا اننا لم نطلع على كل الشهادات المثبتة لانبثاق الروح القدس من الابن وان بعضها لا نسلم بها فقولنا هذا يكون ساقطاً بل يضحي ضحكةً وكلا الامرين غير خليق بمقامنا»

ثم تداولوا الكلام في هذا الشأن مليًا فأجمع راي الآباء على ان يلتمسوا من الملك ان يرسل ايضاً الى البابا الوفد المقدم ذكرهُ ليقول لهُ «ان الشرقيين يرون في هذه الوسائل الاربع ما يجرُّ الى اعادة المناقشة مع انهم تحقق لديهم ان المسألة قد بُحث فيها طويلًا ووضحت وضوحاً مبيناً فجزموا بان يقطعوا فيها كل جدال . والآن بما ان الغربيين قد اوضحوا بجلاء ان الزيادة المضافة على قانون الايمان مطابقة لنصوص الآباء القديسين فهم لا يلومونهم اذا ارادوا اثباتها اما الشرقيون فلا يقبلون مطلقاً ان يضيفوها على قانونهم بل يحفظونهُ تماماً كما تسلموهُ عن آبائهم . وقصارى الكلام ان المناقشات والاجتماعات والشهادات والاقسام لا تجدي نفعاً فلذا يتقدم الشرقيون الى البابا راجين منهُ ان يسعى الى الاتحاد من طريقٍ آخر وان لم يتسنَّ لهم الاتحاد فليسمح بحل المجمع فيرجعوا الى بلادهم»

فارسل الملك هذا الجواب للبابا مع الوفد عينهِ فاجاب البابا بانهُ سيبعث ببعض الكرادلة الى مجمع الروم لتأدية الجواب بحضور الملك

٨

اما الروم فعقدوا اجتماعاً عند البطريرك في كل من اليومين التابعين وقد خطب فيهم مطران نيقية فابدع واجاد في خطبة تعدّ من اجلّ ما ينطق بهِ لسان الحكماء

والفصحاء وقد اثبت فيها بعشرة فصول اتفاق كلتا الكنيستين واتحادهما في الايمان القويم اما الاختلاف الحاضر فليس الا ظاهرًا في الكلام ولكن من طيّه اتحاد التعليم والايمان في الجوهر

ثم القى العلاَّمة جرجس سكولاريوس على الجمعية ثلاث خطب برهن فيها بفصاحة بليغة عن ضرورة اتحاد الكنيسة واتفاق العقائد في الجوهر بين الشرقيين والغربيين

ولا يخفى ما لخطب هذين العظيمين من آباء الروم من الاهمية والتأثير وذلك ليس فقط من حيث تبيينهما بصراحة وفصاحة وجوب الاتحاد الذي هو الغاية الوحيدة لعقد هذا المجمع بل ايضاً نظرًا لما كان لهذين العالمين من كبير المكانة وعلو المنزلة بعين الآباء ولما رشحتهما العناية الالهية في المستقبل ليرتقيا في مناصب الكنيسة السامية فان بساريون قد ذاع فضلهُ بين الشرقيين والغربيين فرقّاهُ البابا الى المنصب الكردينالي في الكنيسة الرومانية . أمَّا سكولاريوس الذي لم يكن في المجمع الَّا عالميًّا فقد انتخبهُ الروم بطريركًا على القسطنطينية باسم جناديوس بعد سقوط عاصمتهم بيد محمد الفاتح ويؤكد كثيرون من ثقاة المؤرخين الروم ان هذا البطريرك قد عاش ومات بالاتحاد مع الكنيسة الرومانية التي كثيرًا ما نفعها في هذا المجمع لتوطيد الوفاق بين الكنيستين

واشتدّت وعكة البطريرك يوسف في ١٥ نيسان لكن لم يكن ذلك علّةً لتأجيل الاجتماعات بل كانت تعقد عنده كجاري العادة وكان الملك يحضرها بشخصهِ

وبينما كان آباء الروم مجتمعين عند البطريرك وفد عليهم جواب البابا مع ثلثة كرادلة وبعض اساقفة ورؤساء اديرة من الغربيين فقال الكردينال يليانس « ان مراد البابا ان تتوالى الجلسات العمومية لتجلى المسائل التي تحتاج ايضاً الى التبيان » فاجابهُ الملك ان المسألة قد بُحث فيها بحثاً كافياً وصارت واضحة . فالحَّ الكردينال بوجوب عقد

الاجتماعات العمومية فانقسم آباء الروم الى شطرين بعضهم ذهب الى ضرورة عقدها وبعضهم الى الخلاف وطال الجدال حتى فُضَّت هذه الجلسة الخصوصية على غير طائل

لكن بعد يومين عُقدت جمعية اخرى فاتفق جمهور آباء الروم على ان ينتخب من كل من الكنيستين عشرة آباء علماء ليبحثوا معاً في التوفيق بين اقوال الآباء القديسين من كلتا الكنيستين

٩

فرضي الجميع بهذا الرأي فعقدت في اليوم التالي جلسة اولى من عشرة آباء من كل من الكنيستين وحدثت فيها بعض مناقشات في امور مختلفة واشتد الجدال لكن الجمهور اجمع على وجوب المطابقة بين نصوص واقوال الآباء القديسين الشرقيين والغربيين وقد توالت جلسات هؤلاء الآباء فحصت فيها كتب الآباء الشرقيين والغربيين وقوبلت مع بعضها فوجدت بينها المطابقة في كل الاحوال. وفي الجلسة الاخيرة التي اجتمع فيها هؤلاء العلماء طلب العشرة الشرقيون من الغربيين ان يعطوهم شرح ايمانهم بشأن الروح القدس مسطورًا على قرطاس فدفعوه اليهم. وهاك ما كتب فيهِ « انَّا بقولنا ان الروح القدس منبثق من الآب والابن لا نريد وجود مبدأين وعلتين لبثق الروح القدس بل بالعكس نؤمن ونعترف بانهُ لا يوجد الا علَّة واحدة ومبدأ واحد للانبثاق ونحن نحرم كل من يقول او يؤمن بما يضادّ هذا التعليم »

فلما قرأهُ آباء الروم عقدوا ثلاث جلسات بحضرة الملك والبطريرك ليتداولوا في الجواب عليها فاتفقوا على ان يبعثوا الى الغربيين بهذه الكتابة الاتية « بما ان الغربيين يقرّون ان الآب هو المبدأ الواحد للابن والروح القدس ويطلبون منا ان نعرض عليهم صورة ايماننا نقول إنَّا نعترف ايضاً ان الآب هو المبدأ الواحد للابن والروح القدس الذي ينبثق من الآب والابن وفقاً لما كتبهُ آباء الكنيسة القديسون »

١٠

وبعد تبادل هاتين الكتابتين عُقدت جمعيات كثيرة فوق العادة لشرح هذا التعليم وبما ان مسألة الخلاف لم تحسم حسماً نهائياً دعا البابا اليهِ يوم عيد العنصرة جميع اكليرس الروم لترويج الاتحاد والقى عليهم خطاباً جاء فيهِ بذكر ما عاناهُ حتى ذلك اليوم من المشاق لاعادة الوحدة بين الكنيستين وذكَّرهم بعقد الجمعيات الكثيرة وتشكى بحبٍ ابوي من انهم لم يكونوا يجرون في هذه الجمعيات حسب الواجب من المداومة والمثابرة ثم حرَّضهم على ان يبذلوا قصارى اجتهادهم في ايجاد الاتحاد الذي يكون ينبوعاً مفيضاً لخيرات عظيمة روحية وزمنية في كل العالم المسيحي

فاجاب ايسيدورس مطران الروسية على البابا قائلاً : ان قول قداستكم هو عين الحق لكن لا يخفى انه لا بدّ لجميع المشروعات الكبيرة من ان يحول في سبيلها بعض العُقُبات والعوائق . ومع ذلك في بحر هذه المدة الطويلة التي قضيناها هنا لم ندخر جهداً في ترويج عمل الاتحاد العظيم بل كنا دائماً مشتغلين في هذا المشروع المهم تارةً في الجلسات العادية او الخارقة العادة وطوراً في اجتماعاتنا الخصوصية الشرقية وحيناً في ابحاث ومناقشات إما بيننا وإما مع بطريركنا وإما مع سلطاننا . لكن اذا لم يكمل العمل حالاً فلا عجب لان كل المشروعات العظيمة تقتضي زماناً مديداً وتمعناً طويلاً وها نحن الآن ذاهبون للتداول مع بطريركنا في هذا الشأن

وبعد القاء بعض خطبٍ وجيزة كهذه قام الاساقفة الشرقيون وذهبوا الى البطريرك ليبسطوا لهُ ما جرى في اجتماعهم عند البابا

فانتخب البطريرك اربعة من المطارنة مطران الروسية ومطران نيقية ومطران لقدمونية ومطران ميتلين وامرهم باخبار الملك بكل ما حدث عند البابا والتماس رأيه فذهبوا وبعد ان قصوا عليهِ الخبر التمسوا منهُ ان يتنازل لقبول عقد الاتحاد بين الكنيستين فظهرت على الملك امارات التردُّد في الامر لكن بعد مداولات طويلة قال

له المطارنة المشار اليهم هذه العبارة الجليلة وهي : « اذا لم ترد جلالتكم عقد الاتحاد فاننا نحن اكليرس الكنيسة الشرقية نتحد مع اكليرس الكنيسة الرومانيـة » فوقع هذا الجواب ذو الشهامة احسن وقعٍ في قلب الملك وامر ان جميع الشرقيين يجتمعون في اليوم التالي عند البطريرك وانه يحضر هو نفسهُ هذا الاجتماع

١١

فالتأمت اليوم الثاني هذه الجمعية وافتتح الملك الكلام قائلًا : تعرفون ايها الاحبار الموقرون انَّا لم نهجر اوطاننا وبلادنا القاصية الَّا ابتغاء ان نكمل العمل العظيم الذي هو اتحاد الكنيستين ولا يخفى احدًا كم الافتراق شؤم مضرّ لكن في ذلك امرين مهمين وشيئين خطيرين جدًّا احدهما عقد الاتحاد بنوع غير موافق والثاني بقاؤنا مفترقين بغير سبب . فتأملوا اذن تأمُّلًا حسنًا في هذين الامرين وليبدِ كلٌّ منكم رأيه فيهما كلٌّ حسب ذمَّتهِ وحذارِ حذارِ من ان تبدوا رأيًا يكون مضادًّا لخلاص نفوسنا

« فلا ريب ان الانشقاق مرتعـهُ وخيم لكنهُ شيء يسير في جنب خلاص النفس فاعلموا حسنًا وتدبروا الامر جيدًا حتى اذا رأيتم الاتحاد غير مضاد للخلاص فلا تهملوهُ لان شرَّ الخطايا وافظعها افتراق الكنائس ومن يمنع الاتحاد يكن حظهُ اتعس من حظ يهوذا الدافع الذي خان سيدنا يسوع المسيح »

فهتف الاساقفة بصوت واحد : « كل من لا يرضى بالاتحـاد في الايمان المستقيم الرأي فليكن مبسلًا »

ثم اوعز جمهور الحاضرين الى مطران الروسية فانبرى خطيبًا قال : « تعرفون يا اخوتي ان هذه الارتيابات والترددات لا تأتي الَّا عن الفتنة التي بذرها العدوّ بين الكنيستين لانه لا يخفاكم انَّا فحصنا كتب واقوال الآباء الغربيين فوجدناها مطابقة كل المطابقة لاقوال ونصوص آبائنا الشرقيين ومن المستحيل ان تكون مخالفـة لها لان القديسين هم دائمًا في اتفاق ولا يمكن ان يختلفوا لان الروح القدس الذي يوحي اليهم لا

يستطيع ان يوحي اشياء متناقضة وبما ان اولئك وهؤلاء هم قديسون مكرمون في كنيستنا فيترتب علينا بل يجب ان نصدقهم ونؤمن انهم متفقون كما علمنا ذلك بالامتحان حديثاً . فما هو رأيكم الآن اذن ايها الآباء المحترمون » فاجاب جميع الآباء « هكذا نحن نؤمن »

فقام حينئذٍ مطران نيقيـة وقال « اذا كنتم تؤمنون ان القديسين متفقون مع بعضهم فلمَ لا تؤمنون مثلهم بان الروح القدس منبثق ايضاً من الابن » . ثم جاء بايراد عدَّة شهادات من القديس ابيفانيوس والقديس كيرلس وغـيرهما من آباء الشرق المعظمين بعضها يثبت ان الروح القدس منبثق من الآب والابن وبعضها من الآب بالابن . وبعد قراءة هذه الشهادات المنقولة من الآباء الشرقيين انتصب مطران ميتلين وقرأ نصوص الآباء الغربيين الخمسة الذين يقولون بجلاء ووضوح ان الآب والابن هما مصدر واحد للروح القدس الذي ينبثق من الآب المصدر الاول وفي الوقت نفسهِ من الابن الذي هو مساوٍ للآب في الجوهر وهكذا يكون الروح القدس منبثقاً من الآب والابن معاً .

فلما سمع الآباء الشرقيون هذه الشهادات والنصوص الغربيـة اقتنعوا بصحتها وهتفوا قائلين « بما انّا لم نكن نعرف كتب الآباء الغربيين كنّا في ريب امّا الآن وقد نظرناها وقرأناها فنحن بها قابلون »

فقال لهم الملك بما انكم تقبلون هذه النصوص فليبدِ كلٌّ منكم رأيه فيها بموجب ذمتهِ فحينئذٍ اجمع البطريرك والاساقفة على الاعلان انهم يقبلون كتب الآباء الغربيين ويعترفون بانها مستقيمة الرأي اعتقـادَ انهم كلهم كانوا مستنيرين بنور الروح القدس الذي هو واحد فمن الضرورة ان كتاباتهم تكون حقيقية ككتب الآباء الشرقيين

وبعد ان اعتمد الشرقيون على هذا العزم وبتوه بتا انقضت الجلسة

١٢

وفي اليوم التالي صباحاً عقد الآباء الشرقيون جلسة خصوصية قرؤوا فيها شهادات القديسين باسيليوس واثناسيوس وكيرلس وابيفانيوس وانسطاسيوس (الذي من جبل سينا) وغريغوريوس النيصي ويوحنا الدمشقي وكثيرين آخرين من الآباء القديسين وكلها تثبت انبثاق الروح القدس من الآب والابن حتى ان جميع الحاضرين اقتنعوا بحقيقة القضية . ثم اجتمعوا ثانية بعد الظهر وثابروا على التنقيب والبحث كما صار صباحاً

ولما كان السبت الذي قبل العنصرة التأم الشرقيون اجمعون عند البطريرك بحضرة الملك فخطب العلّامة سكولاريوس خطبة بليغة اظهر فيها ان الآباء الغربيين والشرقيين متفقون كل الاتفاق فيما بينهم في مسألة انبثاق الروح القدس لانهم كانوا جميعاً يؤمنون معترفين انه منبثق من الآب والابن ومن الآب بالابن كمن مبدإٍ واحد ومن ثمَّ ينتج ان لا داعي للشقاق بين الكنيستين فعليهما ان ترجعا الى الاتفاق كما كانتا قبلًا . ثم قدَّم كتابين قد الفهما من زمان طويل احدهما كان موضوعهُ ضرورة اتحاد الكنيسة التي هي واحدة وغير منقسمة والوسائل التي يمكن بها البلوغ الى هذه الغاية . والكتاب الثاني يثبت ان الروح القدس منبثق من الآب والابن واوضح ذلك بشهادات من الكتاب المقدس والآباء الشرقيين والغربيين مبيناً الاتفاق التام بينهما

فلما انتهى هذا العلّامة من شرحهِ هذا اخذ الآباء يبحثون في الكتب التي الفها الآباء الشرقيون ثم اعلنوا اخيرًا ان لا حاجة لمداومة البحث والتنقيب في هذه المسألة فقد وضحت وضوحاً جليّاً

ثم اتُّفق ان يبدي كل من الحاضرين رأيه فابتدأ البطريرك وقال : « بما ان جميع كتب الآباء القديسين شرقيين كانوا او غربيين تقول ان الروح القدس منبثق من الآب والابن او من الآب بالابن وبما ان العبارة الاخيرة يفهم بها ان الروح

القدس منبثق من الآب والابن فاني ارتئي بوجوب تصديق كتب الآباء الغربيين والاتحاد مع كنيسة رومية . لكننا نحافظ على كل عوائدنا ولا نضيف الزيادة التفسيرية « والابن » على قانون ايماننا ولو كنا مع ذلك نؤمن ان هذه الزيادة صوابية حقيقية وذات ايمان قويم

فقام الملك وقال : « ان من واجباتي بحسب كوني سلطاناً ان ادافع عن اعتقادات الكنيسة واتبع رأي الاغلبية الجمهورية وفقاً للقاعدة القديمة لانه من الممكن ان يسقط اثنان او ثلاثة في الخطإِ ولكن من المستحيل ان الكنيسة باسرها تقع في الضلال . ثم بما اني اعتبر هذا المجمع مساوياً لسائر المجامع المسكونية وانا مقتنع بحقيقة ما يعتقد بالروح القدس فاثبت واقبل اتحادنا مع الغربيين واجعل ذلك بشرط ان لا نجبر على إضافة شيء على قانون الايمان ولا نغير شيئاً من عوائد كنيستنا »

فقام مطران الروسية ايسيدورس الذي كان ايضاً نائباً عن البطريرك الانطاكي وقال : « ان كتابات الآباء القديسين الغربيين هي مستقيمة الايمان ومقبولة . والروح القدس منبثق ايضاً من الابن . والآب والابن هما مصدر واحد ومبدأ واحد لانبثاق الروح القدس وعليهِ فاني اتحد معكم وهذا هو اقرار ايماني امام الله وامامكم »

وعقبهُ مطران نيقية بساريون واعترف مثلهُ بالايمان القويم وخطب خطاباً تقويا جليلاً اثبت فيهِ ان لا خلاص للمسيحي الذي لا يؤمن بانبثاق الروح القدس من الآب والابن

ثم ابدى كل من الاساقفة رأيه بحسب مقامهِ فطابقوا كلهم الرأي القويم الَّا اربعة منهم وهم مطارنة هرقلية وافسس وموغبازية وانخيالس فانهم اعلنوا عدم اقتناعهم بانبثاق الروح القدس من الابن

فلما طُلب من مطران ميتلين ابداء رأيه قال : « اني منذ حداثتي كنت مضاداً للغربيين باقوالي وكتاباتي اعتقاداً انهم يقولون بمبدأين لانبثاق الروح القدس لكن بعد

الفحص والتنقيب رأيت اني مخطىء (بنسبتي لهم هذا القول) وعرفت ان الغربيين لا يقرون الّا بمبدإٍ واحد للانبثاق كما نؤمن نحن». ثم اخذ يشرح مبادىء ايمان كل من الطائفتين ويبين انها واحدة في الجوهر وان الروح القدس ينبثق من الآب والابن كمن مبدإٍ واحد

فوافقهُ جميع الاساقفة ومعهم مطارنة هرقلية وانخيالس وومونمبازية واجمعوا مع الجمهور على قبول الاتحاد ولم يبقَ مصرًّا على رفضهِ الّا مرقص الافسسي

١٣

ولما كان ثالث حزيران التأم عند البطريرك الذي كان يومئذٍ طريح الفراش المطارنة والعلماء ورؤساء الاديار والشمامسة حاملو الصليب ثم انضم اليهم الملك وخطب فيهم قال «لقد اطلعت على آرائكم التي ابديتموها في الجمعيات المنعقدة فيما مضى حيث ابديت انا نفسي رأيي الخصوصي وكذا البطريرك ايضًا فرأيت ان اكثركم عددًا واغزركم علمًا قد صادقوا على رأي الغربيين. وقد اعلنتم جميعًا ان لفظة «بالابن» هي مشاكلة للفظة «والابن». فالآن بما ان اغلب الاساقفة على اتفاقٍ ويقبلون جميعًا كتب الآباء الغربيين المقول فيها ان الروح القدس منبثق من الآب والابن وبما ان كثيرين منكم قد ابدوا رأيهم خطأً منذ يومين في الامل ان البقية يحذون حذوهم وبعد ذلك نبتُّ المسألة بحسب رأي الاغلبية»

فاجاب الاساقفة ان على البطريرك ان يبدي رأيهُ اولاً فقام البطريرك وقال: «اما انا فلا اغير ولن اغير ايمان آبائنا وبما ان الغربيين يبينون ان التعليم بانبثاق الروح القدس لم يستنبطوهُ من عندهم بل اخذوه من الكتاب المقدس فاني اعرفهم مستقيمي الايمان نظيرنا واعلن ان عبارتنا «بالابن» يفهم بها ان الابن مع الآب مصدر انبثاق الروح القدس ولهذا السبب انا اتحد واشترك مع الغربيين»

فلما انتهى البطريرك اعلن الاساقفة انهم جميعًا على الرأي والمعتقد نفسه اي

انهم اقروا بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن كمن مصدر واحد ومبدإٍ واحد كما اثبت ذلك جميع معلمي الكنيسة

فكتب الآباء هذه الاثباتات خطاً كل منهم بيده الّا مطران افسس الذي امتنع هذه المرة ايضاً عن ابداء رأيه

وفي رابع حزيران اجتمع الاساقفة الروم مرة أخرى بحضور الملك والبطريرك ليوقعوا هذا صكّ الاقرار العام الذي ابدوه فكتبوا منهُ ثلاث نسخ واحدة للبابا وواحدة بقيت بيد الملك والثالثة اخذها البطريرك

وكان هذا الصك مشتملاً على ثلاثة امور اولها: انهم يتحدون مع الغربيين . وثانيها انهم يستصوبون الزيادة التفسيرية على قانون الايمان وثالثها انهم يعترفون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن كمن مبدإٍ واحد

فلما اخذ البابا هذا الصك قرأهُ امام الكرادلة واستحسنهُ وتعانق الغربيون والشرقيون متبادلين التهنئة بالاتفاق على اهم المسائل الخلافية و بعث البابا بثلثة كرادلة الى الملك ليبلغوهُ انهم عقدوا الاتحاد التام بين الكنيستين في القضية الاولية التي طال عليها الجدال

١٤

وفي ثامن حزيران اختار الشرقيون اربعة مطارنة وهم مطران الروسية ومطران نيقية ومطران طرابزون ومطران ميتلين ووكل اليهم من قبل البطريرك والملك والمجمع الشرقي العام ان يذهبوا الى البابا ليفصلوا لديه سائر المسائل الخلافية لاتمام الاتحاد

فلما قدم المطارنة الاربعة الى البابا عُقدت جمعية حافلة حضرها بعض الاساقفة الغربيين فأخذوا في البحث اولاً عن مسألة تقديس جسد الرب بالخبز الفطير فاتفقوا بسهولة ان لصحة تقديس جسد الرب يجب ان يكون الخبز خبز قمح لكن لا فرق فيهِ

سواء كان فطيراً او خميراً جرياً على عادة كل كنيسة بشرط ان يكون الكاهن مرسوماً رسامة شرعية وان تقام الذبيحة في مكان مقدس

ثم بحثوا في القضية الثانية وهي مثول نفوس القديسين بازاء الله قبل الدينونة العامة . والقضية الثالثة التي هي المطهر فحكموا باتفاق جمهورهم على ان انفس الصديقين تتمتع في السماء بتمام السعادة وترى الله وجهاً الى وجه كما ان انفس الخطأة تنحدر حالاً بعد انفصالها من الجسد الى العذابات الجهنميـة . اما الانفس التي لم تفِ عن خطاياها تمام الوفاء فتبقى في المطهر متحملة العذابات لكنهـا تستطيع ان تنجو منها بصلوات الكنيسة

وفي اليوم التالي جاء المطارنـة الاربعة ليتداولوا في شأن حقوق كنيسة رومية فاتـفق المطارنـة الشرقيون والغربيون في كل القضايا الا القضية التي تثبت ان لكنيسة رومية وحدها الحق بان تحكم حكماً لا معقب لهُ في المسائل الكبرى دون مساعدة ورضى سائر البطاركة . فرجع المطارنة الاربعة الى البطريرك دون ان يبرموا في ذلك امراً وبعد التفاوض والمناقشة حدد الشرقيون رئاسة البابا بهذه الكلمات : « يعـترف الشرقيون ان للبابا نفس ما كان لهُ من الحقوق قبل الافتراق وانهُ نائب يسوع المسيح وخليفة القديس بطرس زعيم الرسل ورئيس كل الكنيسة الاعظم »

ثم طلب الغربيون من الشرقيين شرحاً عن الكلمات التي يقولها الروم بعد كلام التقديس وهي « واصنع اما هذا الخبز فجسد مسيحك المكرم وما في الكأس فدم مسيحك المكرم اذ انك نقلتهما بروحك القدوس » . فاجاب الشرقيون انَّا نؤمن انه بكلام يسوع المسيح « هذا هو جسدي . . هذا هو دمي » يتم تقديس الخبز والخمر وتحولهما الى جسد ودم المسيح لكنَّا نلتمس من الروح القدس ان جسد ودم يسوع المسيح يأتيان الينا لتطهير خطايانا كما انكم في الطقس الغربي بعد تقديس الخـبز والخمر تقولون « يا رب لتمثل هذه التقادم بحضرتك بيد ملكك القديس » . فرضي الغربيون بهـذا

الجواب وهكذا انحلت هذه الجلسة وعاد المطارنة الاربعة الى البطريرك والملك ليعرضوا عليهما النتيجة

١٥

في اليوم نفسهِ الذي عقدت هذه الجلسة (اي تاسع حزيران) فاجأ الموت البطريرك يوسف فقبض الى رحمتهِ تعالى الّا انه قبل موتهِ ببضع ساعات شعر بدنو اجلهِ فطلب قلماً وقرطاساً وكتب بيده نفسها الى الملك ما يلي :

يوسف

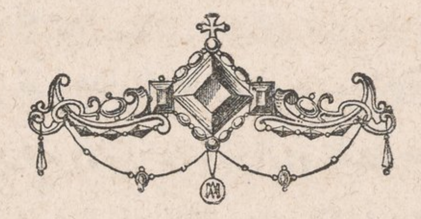
برحمة الله تعالى رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة والبطريرك المسكوني

لما حضرتني ساعة الوفاة وشعرت بدنو اجلي لوفاء الدين العمومي المضروب على كل البشر كتبت وختمت بيدي صورة ايماني التي أُطلع عليها جميع اولادي فانا أُومن واعترف بما تؤمن بهِ وتعلمهُ كنيسة يسوع المسيح الكاثوليكية الرسولية التي هي كنيسة رومية القديمة واعتقد بكل قضايا هذا الايمان واعترف ان بابا رومية القديمة الطوباوي هو ابو الآباء والحبر الاعظم ونائب يسوع المسيح تحقيقاً لايمان المسيحيين واقرّ ايضاً بمطهر النفوس وبياناً لايماني بما اعلاه كتبت هذا ووقعتهُ

في تاسع حزيران سنة ١٤٣٩

فلما كان اليوم التالي أُقيم لهُ مأتمٌ بهي غاية في الاجلال والاكرام كما يليق بدرجتهِ السامية ولما شُيعت جثتهُ الى القبر مشى وراءها جميع الكرادلة والاساقفة الشرقيين والغربيين وكل الامراء والنبلاء وجمهور الشعب ودُفن في فلورنسة داخل كنيسة القديسة مريم الجديدة الى جنوبيها قرب الخزينة

وبعد موت البطريرك عُقدت عدة جلسات لتحديد وتعيين امتيازات البابا لان الملك كان متردداً في التسليم ببعض الامتيازات فحسمت المسألة بالنوع الذي حسمها الشرقيون تقريباً في الجلسة المنعقدة تاسع حزيران اي ان البابا هو رأس الكنيسة الاسمى وراعي جميع المسيحيين ورئيسهم ونائب يسوع المسيح ولهُ الحق بسياسة وادارة كنيسة الله وان تبقى حقوق وامتيازات بطاركة الشرق على ما هي . ويكون بعد البابا في التقدم والجلسة البطريرك القسطنطيني ثم البطريرك الاسكندري ثم البطريرك الانطاكي ثم البطريرك الاورشليمي



الفصل السابع

تقرير الاتحاد بين الروم واللاتين

١ تأليف صك الاتحاد النهائي وتوقيعهُ وقراءتهُ ـ ٢ ـ نص الصك ـ ٣ ـ تواقيع آباء الروم التي بذيلهِ

١

بعد ان انتخب الشرقيّون والغربيون عشرة علماء من كل فريق ليؤلفوا صك اتحاد الكنيستين النهائي ثم يعرضوه على جمهور الآباء ليوقعوه اجتمع هؤلاء العلماء العشرون في رابع تموز في كنيسة القديس فرنسيس وكتبوا الصك باليونانية واللاتينية وعرضوه للتنقيح على البابا والملك والاساقفة الشرقيين فغيروا من عباراتهِ بعض التغيير ثم اثبتهُ الجميع بالاتفاق العام

وفي اليوم الخامس قدّم هذا الصك ليوقع رسميًّا فوقعهُ البابا وكل الاكليرس الشرقي والغربي والملك وجميع الامراء والنبلاء الروم الذين حضروا المجمع

وفي سادس تموز اجتمع البابا والاكليرس الشرقي والغربي مع الملك وسائر بطانتهِ في كنيسة مريم العذراء المسماة « ليبراتا » فاتشح البابا باثوابهِ الحبرية وكذا جميع الاكليرس واحتفلوا بقداس حبري بهي وقبل ان يبتدئ البابا بتقدمة الذبيحة حسب الطقس الروماني رنّم مغنو الملك صلاة للروح القدس موقعة على الحان الموسيقى اليونانية ورنّم اللاتين تسبحة شكر لاتحاد الكنيسة الغير المنقسمة وبعد القداس صعد البابا الى عرشهِ الذي على يمين المذبح وجلس الملك على منصتهِ فقرأ مطران نيقية صورة صك الاتحاد النهائي باليونانية وتلاها كردينال سنت سابين باللاتينية وهذه ترجمتها:

٢

اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله

لذكر موَّبد

برضي ولدنا العزيز بالمسيح يوحنا باليولوغ ملك الروم وقبول نواب اخوتنا البطاركة الشرقيين المحترمين وسائر الاساقفة ممثلي الكنيسة الشرقية جميعها

لتبتهج السماوات ولتفرح الارض لان الحائط الذي كان يفصل الكنيسة الشرقية من الغربية هُدم وعاد السلام ورسخت قواعد الاتحاد بواسطة حجر الزاوية المسيح الذي ضم الشعبين الى واحد وجمع بين الحائطين واوثقهما برباط المحبة والسلام الغير المنفصم وقد انقشعت غيوم الحزن المديد وتبدد ظلام الخصومة المستطيل وضاء لنا كوكب السلام اللامع المرغوب جداً

فلتفرح الكنيسة امنا التي كان بنوها في خصام مستمرّ وتراهم الآن قد عادوا الى الاتحاد والسلام تلك التي كانت في حال انفصالهم تذرف العبرات السخينة فلتشكر الله الآن بابتهاج لا يوصف لاجل اتفاقهم العجيب . وليسرَّ المؤمنون كافةً وليهنئوا امهم الكنيسة الكاثوليكية لان الآباء الغربيين والشرقيين بعد شقاق وخصام طويلين تجشموا مخاطر البرّ والبحر ووافوا بابتهاج الى هذا المجمع العمومي قاصدين الاتحاد المقدس والمحبة القديمة ولم تخب آمالهم لانهم بعد البحث المدقق العنيف حصلوا برأفة الروح القدس على الاتحاد الكلي القداسة . فمن يستطيع ان يوفي شكر الله على هذه الاحسانات ومن لا يتعجب من غنى رحمتهِ الالهية واي قلب صلد لا يلينهُ تعاظم صلاح الله وتودده الغير المتناهي . انها لاعمال الهية بحتة وليست باختراعات الضعف البشري . ولهذا يجب علينا ان نقبلها باحترام عظيم ونشكر البارى. تعالى لاجلها

فالشكر لك ايها المسيح الهنا ولك المجد والتسبيح يا ينبوع المراحم الذي انعم على عروسهِ الكنيسة الكاثوليكية بهذا الاحسان العظيم . واظهر عجائب جودتهِ في عصرنا

ليخبر الجميع بعظائمهِ . لان اللاتينيين والروم بالتئامهم في هذا المجمع العام المقدس قد بحثوا بكل اجتهاد بحثًا دقيقًا عن انبثاق الروح القدس . وقد جاؤوا بشهادات الكتب المقدسة واقوال الآباء القديسين الشرقيين والغربيين الذين منهم من يقول «ان الروح القدس منبثق من الاب والابن» ومنهم من يقول «انه ينبثق من الاب بالابن» غير انهم كلهم يريدون معنىً واحدًا ويعبرون عنهُ بالفاظ مختلفة . اما الروم فأكدوا انهم لا يريدون بقولهم عن الروح القــدس انه منبثق من الآب نفي الابن (من مشاركة الاب في البثق) لكن لما خيّل لهم ان اللاتينيين بقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الاب والابن يؤمنون بمبدأين ونفختين امتنعوا عن القول ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن

واما اللاتينيون فأكدوا بالخلاف اي انهم بقولهم عن الروح القدس انـه منبثق من الاب والابن لا ينفون كون الاب ينبوع كل اللاهوت ومبـدأهُ للابن والروح القدس ولا يجعلون مبدأين او نفختين بل يعتقدون بمبدإٍ واحد فقط ونفخة واحدة باثقة الروح كما اعتقدوا دائمًا . ولما كان مرجع هذه العبارات الى معنىً واحد حقيقي اتفقوا اخيرًا بنية واحدة وروح واحد على الاتحاد الاتي ذكره اتحادًا مقدسًا محبوبًا من الله

فباسم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس وبتثبيت هذا المجمع العام الفلورنسي المقدس نحكم بانه يجب على كل المسيحيين ان يعتقدوا بحقيقة هذا الايمان ويقبلوه فيعترفوا جميعًا بان الروح القدس هو من الآب والابن منذ الازل ويتخذ جوهره ووجوده من الاب والابن وينبثق من اثنيهما انبثاقًا ازليًا كمن مبدإٍ واحدٍ ونفخة واحدة معلنين ان الاباء القديسين بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الاب بالابن لا يريدون معنًى آخر بل يعلمون ان الابن هو كالآب علة اقنوم الروح القدس كما يقول الروم ومبدأُ وجوده كما يقول اللاتينيون وبما ان الآب منح لابنهِ الوحيد عند ايلاده كل ما للآب

ما عدا كونه ابًا هكذا الابن اتخذ من الاب ازليًا ان ينبثق الروح القدس

وما عدا هذا نحكم ايضًا بان زيادة لفظة والابن في قانون الايمان كانت زيادة حسنة وقد وُضعت سابقًا بغاية الصواب من حيث انها تفسير حقيقة من حقائق الايمان ولاجل ان الضرورة كانت حينئذٍ تقتضي زيادتها

ثم نحكم ايضًا بان الخبز المصنوع من الحنطة سواءٌ كان فطيرًا او خميرًا يقدّس بهما جسد المسيح حقًا . وبانه ينبغي للكهنة ان يقدسوه باحد هذين الشكلين كلٌّ حسب كنيستهِ الغربية او الشرقية

ونحكم ايضًا بان الذين بعد ان تابوا حقًّا قد توُفوا في حال محبة الله قبل ان يفوا باثمار تليق بالتوبة عن خطاياهم العملية او الاهمالية يتطهرون بعد الموت بعذابات المطهر ويستفيدون لنجاتهم من هذا العذاب باعمال المؤمنين الصالحة اي تقدمة القداس الالهي والصلوات والصدقات وغير هذه من افعال المحبة التي يفعلها المسيحيون لاجل اخوتهم المؤمنين حسب قوانين الكنيسة وان نفوس الذين بعد قبولهم سرّ المعمودية لم تتدنَّس بادناس الخطيئة او نفوس المؤمنين الذين بعد ارتكابهم الخطيئة قد تطهروا منها سواء كانوا احياءً او امواتًا تدخل نفوسهم هذه بعد الموت حالاً الى السماوات وترى الله على ما هو واحدًا وبثلثة اقانيم .غير ان الذين يكونون اكثر استحقاقًا يشاهدونه تعالى بنوع اكمل . اما نفوس الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة مفعولةً كانت او اصليَّة فقط فنحكم بانها تنحدر حالًا الى الجحيم حيث تتعذب بعذابات متفاوتة

ونحكم ايضًا بان الكرسي الرسولي المقدس والحبر الروماني خليفة الطوباوي القديس بطرس هامة الرسل ونائب المسيح الحقيقي ورأس الكنيسة كلها وابو ومعلم جميع المسيحيين . وبان سيدنا يسوع المسيح اعطاه في شخص الطوباوي بطرس سلطانًا مطلقًا عامًّا لرعاية الكنيسة العامّة وتدبيرها وسياستها جميعها كما هو مذكور في اعمال

المجامع المسكونية وفي القوانين المقدسة. ثم نجدّد النظام الذي رسمتهُ القوانين للبطاركة فالبطريرك القسطنطيني يكون الثاني بعد الحبر الروماني الكلي القداسة والبطريرك الاسكندري يكون الثالث والبطريرك الانطاكي يكون الرابع والبطريرك الاورشليمي يكون الخامس وليحافظ على كل حقوقهم واختصاصاتهم

أُعطي في مدينة فلورنسا في الجلسة العمومية المنعقدة احتفاليًّا في الكنيسة الكبرى في اليوم ٦ من شهر تموز سنة ١٤٣٩ لتجسد الرب وهي السنة ٦٩٤٧ لخليقة العالم والتاسعة من حبريتنا

٣

وكتب صك الاتحاد على صفيحة كبيرة باللغة اليونانية من الجانب الايمن واللاتينية من الجانب الايسر وتحت النص اللاتيني تواقيع الآباء اللاتينيين من كرادلة ومطارنة واساقفة ورؤساء اديرة وعددهم ١١٦ في مقدمتها توقيع الحبر الاعظم هكذا : « اوجانيوس اسقف الكنيسة الكاثوليكية قد حددت ذلك ووقعتهُ » وبجانبهِ هاتهِ الآية الداودية شعار البابا « اللهمَّ انت معيني وملجئي لا تهملني يا الهي » وتحت النص اليوناني تواقيع آباء الروم بخط ايديهم في اولها توقيع ملكهم يوحنا هكذا « يوحنا باليولوغوس الملك الامين امبراطور الروم بالرب يسوع المسيح »

وهذا الصك نفسهُ قد حُفظ ككنز ثمين في كنيسة فلورنسة ولا يزال فيها حتى يومنا هذا (١)

(١) ان مطران فلورنسة نقل رسم هذا الصك المحفوظ عنده بالفوتغرافية وبعث بصورتهِ الى البابا لاون الثالث عشر كهدية نفيسة في عيد يوبيلهِ الكهنوتي وقد اسعد الحظ كاتب هذه السطور في اثناء مروره بايطاليا في ايلول عام ١٨٨٩ بالحصول على صورة من هذا الصك عينهِ وفيه قرأ تواقيع كلٍّ من آباء المجمع كما خطتها ايديهم منذ ٤٥٠ سنة

وكان في ودنا ان نذكر اسماء جميع آباء هذا المجمع لما يـترتب على ذلك من الاهمية ولا سيما في ذكر الرهبانيات التي كانت وقتئذٍ مزهرة لكن لما كان كتابنا هذا للشرقيين خصوصاً عدلنا عن تسمية الآباء اللاتينيين مكتفين ان نذكر بالتفصيل اسماء الآباء الشرقيين واحداً واحداً وهي:

١ً انطونيوس الحقير رئيس اساقفة هيرقلية ورئيس كنيسة مكدونية كلها والنائب عن الكرسي الرسولي كرسي الكلي القداسة فيلوثاوس البطريرك الاسكندري وقّعت

٢ً غريغوريوس الراهب المنقطع لله البروتسنجلوس الكبير معلم اعتراف التائبين (وكان ايضاً معلم اعتراف الملك) النائب عن الكرسي الرسولي كرسي سيدنا فيلوثاوس البطريرك الاسكندري وقّعت

٣ً ايسيدورس رئيس اساقفة كياف وكل الروسية نائب الكرسي الرسولي كرسي دوروثاوس بطريرك انطاكية القديس قد وقّعت مثبتاً ومادحاً

٤ً دوسيتاوس رئيس اساقفـة موغبازية نائب الكرسي الرسولي كرسي يواكيم بطريرك اورشليم القديس وانا وقعت ايضاً

٥ً دوروثاوس رئيس اساقفة طرابزون وقّعت ايضاً

٦ً مطروفانس رئيس اساقفة كيزيك وقّعت

٧ً بساريون برحمة الله رئيس اساقفة نيقية وقّعت

٨ً مكاريوس رئيس اساقفة نيقوميدية وقّعت

٩ً متوديوس الحقير رئيس اساقفة لقدمونة وقعت

١٠ً اغناتيوس رئيس اساقفة طُرنو وقّعت ايضاً

١١ دوروثاوس رئيس اساقفة ميتلين ونائب رئيس اساقفة صيدا وقّعت ايضاً

١٢ داميانس رئيس اساقفة الفلاخ والبغـدان ونائب رئيس اساقفة سبسطية وقعت

١٣ يواصف الحقير رئيس اساقفة اماصية وقعت

١٤ ناثانائيل رئيس اساقفة رودس وجزائر سكلاد (اليونانية) وقّعت

١٥ كالستس رئيس اساقفة درستاس وقعت ايضاً

١٦ متى رئيس اساقفة مليّنيك وقعت

١٧ جناديوس رئيس اساقفة ساوى وقعت

١٨ دوسيثاوس رئيس اساقفة دراما وقعت ايضاً

١٩ بساريون رئيس اساقفة نيقية بموجب وثيقــة في يدي مذيّلة بختم الشماس مانويل كبير قيمي الكنيسة (كريسوكوكوس) أُوقع هنا رأيه واعلن انه مطابق لنا وتابع لكل الذين هنا

٢٠ تاوذوريكس الشماس كبير الاحتفالات (سكيفوفيلكس سكنتينوبولوس) وقّعت

٢١ ميخائيل بلسمون رئيس الشمامسة كبير محافظي الاوراق (خرطوفيلكس) وقعت

٢٢ سيلفسترس اسيوبولوس (ديخيوفيلكس) وقّعت

٢٣ جرجس الكبادوكي الشماس (بروتوذيكوس) وقعت

٢٤ قسطنطين كبير الكهنة والنائب في الفلاخ والبغدان وقعت

٢٥ موسى الراهب المكرّس وقيّم الكنيسة المكرم من الجبل المقدّس من الدير الكبير وقّعت

٢٦ دوروثاوس الراهب المكرّس والنائب المكرّم من الجبـل المقدس الكبير من ڤاتباد وقعت

٢٧ جيرونتيوس راهب مكرس ورئيس سابقاً على دير المسيح القادر على كل شيء وقّعت

٢٨ اثناسيوس رئيس دير وقعت

٢٩ جرمانوس رئيس دير القديس باسيليوس سابقاً وقعت

٣٠ بخوميوس الراهب المكرس والرئيس الدير القديس بولس وقعت

هؤلاء هم آباء المجمع الشرقيون كلهم وقعوا صورة الايمان والاتحاد النهائية ولم يبقَ منهم الّا مرقص مطران افسس فطلب البابا حينئذٍ ان يبسلهُ المجمع كانه متمرد لا يخضع لاوامر الكنيسة فالتأم مطارنة الروم واستدعوا مرقص ليوضح امامهم سبب رفضهِ للمجمع المسكوني فخاف مرقص من عاقبة هذه الدعوة وانطرح على اقدام الامبراطور يستجير بهِ ملتمساً ان يتوسط بينهُ وبين الاساقفة فلا تفضح شيبتهُ امام اللاتينيين الذين يهزؤون بهِ اذا غيَّر رأيه فمست الملك الشفقة عليهِ فامهلهُ حتى يرجع الى القسطنطينية وهناك يُفحص امام الاساقفة

الفصل الثامن

سفر الملك يوحنا مع الآباء الشرقيين من ايطاليا وانتشار الاتحاد بين الروم

١ توديع الملك يوحنا للبابا ـ ٢ ـ عملهُ صفيحتين قلزيتين تخليدًا لذكر المجمع ـ ٣ ـ وصولهُ الى القسطنطينية وحزنهُ على وفاة الامبراطورة امرأتهِ وعناد اخيهِ ديمتريوس ـ ٤ ـ امتداد الاتحاد الى كل كنائس الروم ـ ٥ ـ الرسالة العامة التي بعث بها مطروفانس البطريرك القسطنطيني الى جميع الابرشيات تأييدًا للاتحاد ـ ٦ ـ الرسالة التي كتبها فيلوثاوس البطريرك الاسكندري للبابا اوجانيوس الرابع سرورًا بالاتحاد

١

بعد ان تم الاتحاد على هذا المنوال بغاية الحب والاتفاق اشتاق الملك ان يسافر الى العاصمة لتدبير شؤونها بعد ان تركها نحوًا من عشرين شهرًا اي منذ ٢٤ تشرين الثاني من سنة ١٤٣٧ فودَّع البابا الذي اعرب لهُ عن عواطفهِ الابوية وارتياحهِ الشديد الى عضده ولم يدعهُ ينفق درهمًا من مالهِ في ايابهِ الى تخت سلطنتهِ وعلاوةً على ذلك ارسل معهُ ٣٠٠ جندي لخدمتهِ الى حيث شاء دون ان يكلفه باداء شيء لهم واهدى اليهِ مركبين حربيين كبيرين للدفاع عن القسطنطينية ووعده انه يبعث اليهِ بعشرين مركبًا من اقوى السفن الحربية منها عشرة يبقيها عنده ستة اشهر وعشرة أُخرى سنة كاملة ووعده ايضًا بان يبذل ما في وسعهِ من الوسائل لدى ملوك المغرب لينجدوهُ على محاربيهِ

فخرج يوحنا من عند البابا قرير العين طيب الخاطر شاكرًا مما سمع ورأى وسافر من فلورنسة صحبة جميع الشرقيين في ٢٦ آب سنة ١٤٣٩ فشيعهُ الى باب المدينة جميع الكرادلة ورافقهُ ثلثة منهم الى آخر تخوم فلورنسة فسار برًّا الى البندقية ومنها ركب البحر في ١١ تشرين الاول

٢

فعلى هذا النحو تمّ هذا المجمع العظيم الذي جدَّد عرى الاتفاق بين كنيستي الشرق والغرب وكان الفرح شاملًا الجميع لاتحاد الامتين بالايمان والسلام فانشرح صدر الحبر الاعظم ابي المؤمنين كلهم ولم يكن سرور الملك يوحنا باقل منهُ حتى افضى به الى ان امر تخليدًا لذكر هذا المشروع الجليل بعمل صفيحتين من القلز نقشت على احداهما صورة جلسة المجمع الاخيرة التي أُبرم فيها الاتحاد تُمثّل البابا جالسًا من الجهة الواحدة على عرشهِ لابسًا تاجهُ الثلاثي والملك من الاخرى مستويًا على منصتهِ بازاء البابا وعلى رأسهِ خوذته الملكية مرصعة بالالماس والحجارة الكريمة وفي مقدمها حدّ طويل كالسنان . وفي وسط الصفيحة منبر عليهِ وقف الكردينال دي سنت سابين والمطران بساريون يقرآن صكّ المجمع النهائي (براءة البابا) . وفي الصفيحة الثانية صورتان احداهما تمثل الملك ممتطيًا جوادهُ محفوفًا بجميع الاساقفة الشرقيين والكبراء خارجًا من فلورنسة والاخرى تمثل الملك نازلًا الى البحر من البندقية ليسير على مركب عظيم يقلّهُ وحاشيته الى القسطنطينية

وهاتان الصفيحتان الثمينتان لا تزالان حتى اليوم في رومية في كنيسة القديس بطرس على بابها الكبير وقد اهداهما اليها البابا اوجانيوس الرابع تخليدًا لهذا الاتحاد

٣

اقلعت المراكب بالشرقيين من البندقية في ١١ تشرين الاول ولم يصادفوا في رجوعهم اخطارًا جسيمة لكن طالت اقامتهم بالبحر ولم يصلوا الى القسطنطينية الّا في غرّة شباط من سنة ١٤٤٠ فدخلها جميع الآباء الذين خرجوا منها الّا البطريرك يوسف وديونيسيوس مطران صرده اللذين توفيا في المجمع وما عدا بساريون مطران

نيقية وايسيدورس مطران الروسية اللذين ابقاهما البابا في رومية ليرقيهما الى مصف الكرادلة

اما سرور الملك يوحنا بهذا الاتحاد السعيد فقد تنغص بالحزن على قرينتهِ الملكة مريم كمنين التي توفيت في العاصمة قبل وصولهِ بشهرين وزاد في الطين بلة ما اثار عليهِ من الدسائس والقلاقل اخوهُ الصغير ديمتريوس الذي كان قد صحبهُ الى المجمع ونال من التجلة والاكرام اوفر نصيب لكنهُ كان يظهر من نفسهِ العناد وعدم الرضى بالاتحاد مع الكنيسة الرومانية وبُعيد وصولهِ الى وطنهِ طفق يلقي بذار الفتنة بين الشعب مغرياً الرعية على الهيجان ضد اخيهِ . ومما حملهُ خصوصاً على هذا العدوان انه رغب في الاقتران بابنة امير لسبوس فمنعهُ اخوه يوحنا وقسطنطين وامهُ الملكة وسائر الآل الملكي فجنّ غيظاً وتملأ غضباً . ناهيك عن انه كان حاقداً جداً على قسطنطين اخيهِ لانهُ كان يراه محبوباً لدى الملك يوحنا مقرباً اليهِ مرشحاً لخلافتهِ على العرش القيصري شديد الغيرة على الايمان الكاثوليكي وقد بذل قصارى جهده في اجراء تحاديد المجمع المسكوني وتوطيد الاتحاد بين كنيسة الشرق ورومية حتى استحق ان يبعث اليهِ البابا برسالة لطيفة يهنئهُ بها ويعدهُ بمساعدة الكرسي الرسولي لهُ دائماً ولا سيما حينما يدعوه الله الى تولي تخت السلطنة

٤

وليس بسهلٍ إدراك ماذا كانت وقتئذٍ قوة هذا الحزب المضاد الاتحاد لان بين آراء المؤرخين الروم واللاتين بوناً بعيداً لكن جلّ ما نعلم علم اليقين ان الكنيسة اليونانية كانت يومئذٍ متحدة كل الاتحاد بعروة الايمان الكاثوليكي في مقدمتها الملك يوحنا واخوه قسطنطين مع اشهر الاساقفة واعظمهم علماً وتقوى ولقد ودّ كثيرون لو كان جاء بساريون وايسيدورس من رومية لتوطيد اخوانهم بالايمان على انه وُجد بين الآباء العائدين الى القسطنطينية علماء فطاحل قاوموا مضادي الاتحاد بشهامةٍ

وبسالة منهم يوسف مطران موتون الذي سنأتي على ذكر تآليفه ودوروثاوس مطران ميتلين الذي سنرى عما قليل ما كتبهُ دفاعاً عن الايمان القويم والعالم العلامة سكولاريوس الذي انتخب بعد سقوط العاصمة بطريركاً على القسطنطينية باسم جناديوس ومنهم اخيراً البطريرك القسطنطيني مطروفانس الذي خلف السعيد الذكر البطريرك يوسف واعرب عما طواه قلبهُ السليم من الشهامة والامانة محافظاً على رسوم المجمع مؤيداً لها ولما جلس على الكرسي القسطنطيني انفذ رسالةً عمومية الى كل اساقفتهِ هاك ترجمتها نقلًا عن نصّ النسخة التي بعث بها الى ابرشية ميثوني وهي لم تزل محفوظة خطاً باليونانية في مكتبة القديس مرقص في البندقية :

٥

مطروفانس

برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومية الجديدة والبطريرك المسكوني

الى جميع القاطنين ميثوني الآباء الروحيين من الكهنة والرهبان الجزيلي الاحترام واولادنا الاعزاء الاعيان (الارخندوس) وكل شعب الرب المدعوين مسيحيين فلتكن لكم جميعكم النعمة والسلام من الله

انَّا بحكم الله الممتنع التعبير عنهُ وانتخاب المجمع (السينودس) المقدس قد ارتقينا من درجة مطرانية كيزيك الجزيلة القداسة الى منصة البطريركية القسطنطينية الكلية السمو وتقلدنا زمام الرئاسة على نفوسكم كلها فكتبنا لكم ذلك كي تصلوا لاجلنا وتذكروا اسمنا في ذبيحة القداس الالهي حسب العادة المألوفة

وبما انَّا ذهبنا الى ايطاليا للاتحاد المقدس بين كنائس المسيح وجب علينا ان نفيدكم بالايجاز عن هذا الاتحاد لانكم ستعرفونه تماماً باطلاعكم على الصك النهائي الذي تُلي في نهاية المجمع

فاعلموا اذن انه بنعمة الله قد تم اتحاد المسيحيين ولم يبقَ بيننا و بين اللاتين

ادنى عثرة شك بل نحن كلنا الان خلّان و إخوان لانه بعد مناقشات عنيفة وابحاث طويلة صارت في مجمع فلورنسة المقدس بشأن القضايا الملتبسة التي اوقعت الخلاف بيننا ظهر من تصفح نصوص كثيرة من تآليف عظماء القديسين الغربيين الذين نكرمهم نحن ونقبلهم معلمين للكنيسة ان ما يقولهُ اللاتينيون الان عن الروح القدس هو عين التعليم القديم الذي لهؤلاء الرجال الطوباويين القديسين. فلهذا السبب قد اتحدنا معهم وصرنا الآن بنعمة الله رعيَّة واحدة لراعٍ واحد هو مخلصنا يسوع المسيح ونذكر من الآن فصاعداً اسم السيد اوجانيوس الكلي الطوبى في الذبيحة جرياً على العوائد الكنسيَّة

فيجب عليكم انتم ايضاً أن تقبلوا هذا الاتحاد المقدس وتشكروا الله على السلام والاتفاق بين المسيحيين وتذكروا اسم البابا الكلي الطوبى كما نذكره نحن انفسنا واخيراً ان تحفظوا وتقبلوا كل ما هو مكتوب في صك المجمع النهائي المحدد بقداسة واعلموا انَّا مع ذلك لا نزال نحفظ كما حفظنا سابقاً كل طقوسنا الكنسية في تقديس جسد المسيح وفي كل فروضنا وفي تلاوة قانون الايمان بدون ان يلحق بها ادنى تغيير . هذا ورحمة الله وبركتنا لتكونا معكم دائماً

في شهر حزيران من سنة الخلاص ١٤٤١

فيبين من هذه الرسالة العامَّة التي ارسلها البطريرك القسطنطيني الى جميع الابرشيات الخاضعة لهُ ان الاتحاد قد توطدت دعائمهُ وثبتت اركانه وأُذيع في كل البلاد المطيعة لبطريرك القسطنطينية الآمر بوجوب اتباع تحديد المجمع كما أُذيع بعدئذٍ في جميع الابرشيات الخاضعة لسائر البطاركة الشرقيين الثلاثة وهاك تأييداً لذلك ترجمة الرسالة التي بعث بها البطريرك الاسكندري الى البابا اوجانيوس الرابع :

٦

فيوثاوس

« برحمة الله بابا (١) و بطريرك الاسكندرية المدينة العظيمة وسائر البلاد المصرية

« ايها الاب الكلي القداسة والطوبى والجزيل التقوى والبر الملك الارضي والانسان السماوي يا من هو مزين بنعمة الله ومتشح بالحلل المقدسة ايها الراعي الصالح لرعيَّة صالحة يا من بتعليمهِ يطرد الذئاب الخاطفة بعيداً عن اغنام الرعيَّة العمومية بحماية يسوع المسيح المحسن الينا و بطرس الرسول يا من هو صخرة الايمان ورأس كل الكنائس المسيحية يا من بتولّيهِ السلطان المقدس من يسوع المسيح مخلصنا وصيرورته بابا مدينة الرومانيين العظيمة ومحامي سائر البطاركة يا من هو معنا خادم الكنيسة واخونا بالروح القدس يا ايها السيد القديس البابا اوجانيوس لتكن معك النعمة والعظمة والمجد من قبل الله القادر على كل شيء. وسيدنا يسوع المسيح الذي خوَّل تلاميذه السلام في غرفة صهيون حين قال لهم « سلامي اعطيكم سلامي استودعكم » وارسل لهم روح القدس لا بنوع عادي بل بشكل السنة نارية وفتح قلوبهم وملأَها من النعمة كل على نحو وسعهِ وبعد ان انارهم ارسلهم الى المسكونة كلها وبقدر ما كانوا يجهلون الفلسفة الطبيعيَّة والعالميَّة بقدر ذلك نالوا مواهب العلم الحقيقي والبرّ. فاسأَل هذا الروح القدس نفسهُ ان يتنازل فيفيض هذه النعمة والبركة مضاعفة اولاً على غبطتك السامية ثانياً على جميع اخوتي الاحبار والكهنة وجميع النصارى الذين في ابرشيتي وذلك

---

(١) يثبت المؤرخ نيكيفورس المشهور ان البابا شلستينس قد منح القديس كيرلس لقب بابا وجعلهُ في المجمع الثالث نائباً عنهُ فحفظ خلفاؤهُ من بعدهِ هذا اللقب

بواسطة الملكة الكلية الكمال مريم ام الله والطوباوي مرقص الرسول الانجيلي وجميع قديسي الله آمين

« لقد علمت حقارتنا بالاعمال الشهيرة التي صنعتها قداستك المجلة وبلغت الينا مع ولدنا بالروح الاخ البرتس احد رهبان القديس فرنسيس الذي دفع الينا كتاب قداستك فلدى ترجمتهِ عرفنا منهُ ما كان في المجمع المسكوني المقدس وكيف جميع الآباء ونواب البطاركة القديسين مع ملكنا الكلي الجلال يوحنا باليولوغ وكل احبار وعلماء الشرق والغرب قد احتفلوا بالاتحاد والسلام في الكنيسة الكاثوليكية كلها بالمحبة الكاملة بنفس واحدة وايمان واحد ونبذوا الشقاق والعداوة . وهكذا محبة الله والسلام قد سطعا في عبادة الله المشتركة بنعمة ورحمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي لهُ المجد الى ابد الابدين . آمين

« فلمَّا تصفحنا ايها الاب الكلي الكمال رسالتكم المقدسة حمدنا وشكرنا يسوع المسيح على هاتهِ الموهبة العظيمة التي منحها كنيستهُ الكاثوليكية وما اعظم ما كان فرحنا ايضاً اذ عند قدوم الاخ البرتس الى الاسكندرية انتهت الينا الرسائل من مدينة القسطنطينية العظيمة من قبل الملك الكلي الجلالة ومن الآباء نوابنا ومن كثيرين من النبلاء الاعيان فقرأْنا كتابكم وكتاب الملك باللاتينية واليونانية وقابلناهما عبارة فعبارة وكلمة فكلمة فوجدناهما متفقين كل الاتفاق مذيلين بتواقيع الآباء والاخوة القديسين المطارنة الشرقيين والغربيين وبختم قداستك الجليلة وختم الملك الكلي العظمة فعقدنا العزم نحن وسائر اساقفة القطر المصري ان نذكر اسم غبطتك في كل كنائس المسيح قبل كل البطاركة كما هو مسطر في القوانين المقدسة . اما انا ايها الاب الكلي الغبطة فأَقبل بمزيد الاحترام والاكرام مراسيم المجمع المقدس وارسمها على صفحات قلبي باحرف لا تمحى قاصدا اقتفاء آثار قداستك والمجامع والقوانين الرسولية . وفضلاً عن ذلك نؤدي الشكر مع كل الشعوب المسيحيَّة لله الكلي الصلاح على افتقادنا بهذه الهبة

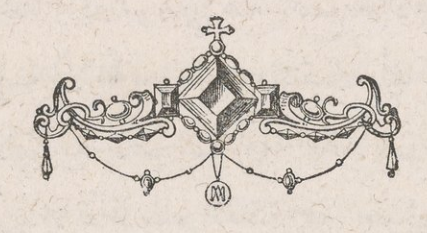
العظيمة وانعامهِ علينا بان نكون مسوسين تحت سلطة وقوة قداستك وان نكون معلمين تحت افياء غيرة تقواك . اما انت ايها الاب الكلي الغبطة فان جميع الامم يقولون طوبى لك لان ينبوع الحياة يقول طوبى لفاعلي السلامة فانهم اولاد الله يدعون. فبلا شك طوبى لك ايها الاب الكلي الغبطة لان كثيرين من الاحبار القديسين والملوك رغبوا ان يروا ما رأيت من نعمة الاتحاد هذا فلم ينالوا على انك لا تحرز هذا فقط زيادة عن الاخرين بل ستنال الثواب العظيم وستتوج باكليل الحق مع جميع الابرار آمين

« ان حقارتنا كتبت الى القسطنطينية للملك الكلي العظمة والى بعض المطارنة معلنة انهُ ان وجد احد يرفض قبول ما رسمهُ المجمع المقدس يعتبر عاتياً وهرطقياً ويسقط من شركة الكنيسة الكاثوليكية المقدسة . وها انا الان انحني على موطىء قدمي قداستك وآمل ان تصحبك النعمة والغبطة والسلام انت وجميع من تحت سلطانك من الطغمتين ولتكن بركة غبطتك معنا دائماً آمين

فيلوثاوس برحمة الله تعالى

بابا وبطريرك مدينة الاسكندرية العظيمة

وسائر القطر المصري



الفصل التاسع

فائدة المجمع الفلورنسي لسائر الطوائف الشرقية

١ اصلاح سهو بعض المؤرخين — ٢ — رسالة يوحنا بطريرك القبط للبابا اوجانيوس الرابع — ٣ — خطاب نائب بطريرك القبط للبابا وقدوم وفد الحبشة من القدس — ٩ — براءة البابا لجميع القبط — ٥ — دوام اتحاد القبط — ٦ — وصول وفد الارمن الى المجمع لطلب الاتحاد — ٧ — براءة البابا للارمن — ٨ — ختام المجمع باتحاد سائر الطوائف الشرقية

١

يظهر مما سبق ما افظع الخطاء الذي ركبهُ عدة مؤرخين بذهابهم الى ان تحديدات هذا المجمع لم تحظَ بالقبول في المشرق وان الاتحاد لم يتأيد الّا ان زعمهم هذا بحت اختلاق ومحض بهتان وكفى بما سبق بيانه الى الآن تفنيداً لهُ وتزيده دحضاً بما سنأتي من البينات المسفرة عن ان الاتحاد لم يتوطّد فقط في مملكة الشرق وكل كنيسة الروم بل قد امتد الى الارمن والقبط والكلدان واهل الحبشة حتى يمكن ان يقال ان الكنيسة في ذاك الحين صارت يوماً كلها كاثوليكية وعم الرأي القويم الشرق باسره

ويجدر بنا هنا ان نبين ان مجمع فلورنسة العظيم قد جاء بفائدة كبرى لا لكل هذه الطوائف الشرقية الخاضعة لصولجان ملك الروم فقط بل امتدت ايضاً الى سائر اطراف الشرق المجاورة المملكة الرومانية وذلك

ومن الغريب انّا وجدنا اكثر مؤرخي هذا المجمع قد ذهلوا عن ذكر رجوع القبط حينئذٍ الى حضن الكنيسة الّا انّا بعد البحث والتنقيب رأينا انهم ذكروه ولكنهم جمعوا بينهم وبين اليعاقبة الاسيويين زعمَ انهم امّة واحدة لان المجمع الذي كتبت اعماله بلاتينية فصحى قد سمّى الاقباط باسم اليعاقبة جمع يعقوبي نسبة لرجل اسمهُ يعقوب قد احياء رفات الهرطقة الاوطيخية وجاب بلاد سورية ومصر وقويت كلمته بين اتباعهِ

حتى صاروا يسمون باسمه يعاقبة فبقي لهم هذا الاسم في سورية اما في مصر فحرف وامتزج مع اسمهم اليوناني « اغبتون » نسبة الى « اغبتو » اي مصر . فاطلق عليهم العرب اسم القبط حتى يومنا هذا . ومن حيث ان المجمع يذكرهم باسمهم الديني «يعاقبة» وقد نقل سائر المؤرخين هذا الاسم حرفياً غير منتبهين الى تغييره الذي طرأ عليه بامتزاجه مع الاسم المدني وقع التباس واشكال لم يأبه اليهما الاكثرون فلما كتبوا عن المجمع الفلورنسي اسهبوا الكلام عن اتحاد اليعاقبة وقتئذٍ في المجمع الشهير ولكن لم يدروا عن اي امة يكتبون ولم يذكروا الاقباط في تآليفهم . فيحسن بنا هنا وقد اطلعنا على الحقيقة التاريخية الصحيحة ان نذكر ما كان حينئذٍ من العلاقة بين هؤلاء الاقباط والمجمع لما يترتب عن ذلك من حسن الذكرى للاقباط سكان القطر المصري الذين ابدوا عصرئذٍ دلائل ارتياحهم الى الرجوع الى الكنيسة الكاثوليكية

٢

بعد ان ذهب رسول البابا عند بطريرك الروم انطلق لزيارة بطريرك الاقباط في القاهرة ودفع اليه رسالة الحبر الاعظم تدعوه الى قبول الاتحاد كما اتحدت كنيسة الروم في المجمع المقدس فاجاب برسالة نأخذ منها اهمها وهي :

يوحنا

الحقير عبد عبيد المسيح خادم كرسي القديس مرقص في الاسكندرية العظيمة وكل القطر المصري وليبية والحبشة والمدن الخمس الغربية وافريقية وكل البلاد التي بشرها مرقص الرسول . قلت الحقير بسبب خطاياي . فبعد التماس العفو والمغفرة من لدن الرب نفسه انحني الى الارض امامك ايها الاب الكلي القداسة والبرارة كمال الكهنوت الراعي الاسمى اول الشرفاء والقديسين القائد الكلي الرأفة للذين يسلكون طريق سفر هذه الحياة الزائلة يا من بغيرته وقداسته ينهج للغير طرق الخلاص ايها

السيد اوجانيوس بابا مدينـة رومية الكبرى الراعي الرسولي لكل الكنائس المسيحية رئيس الكراسي المسيحيَّة الوحيد والموقر ورئيس الآباء والكهنة وطبيب النفوس السقيمة «... ان كتاب قداستك الكلي الشرف وصل الينا بواسطة ابنك المبارك الكاهن الجزيل الاحترام البرتس فقبلناه بغاية ما يمكن من الفرح والاجلال وكان لنا كعطر زكي انبأنا ان يدك كانت مباركة حتى خطت اصابعها حروف الرسالة المشرفة التي بعد ان ترجمناها الى لغة السوريين (١)عن يد بعض البنادقة الحذاق امرنا فقرئت في كنيسة الكليَّة القداسة مريم البتول ام الله التي في محلة الزويلة بحضور اخوتنا الاساقفة المحترمين واولادنا المباركين الكهنة والشمامسة المؤمنين وجميع الشعب وقوف

فلا قِبل لنا ان نوضح لقداستك يامجد الكهنة واباهم وان نصف الفرح العظيم الذي شمل الجميع وتلألأ على وجوههم ساطعاً مشفوعاً باصوات التهليل التي كان الشعب يجاهر بها فهذا اليوم لدينا عظيم جداً وهو لا شك اليوم الذي ذكرهُ النبي قائلاً « هذا اليوم الذي صنعهُ الرب فلنفرح ونتهلل بهِ » ولكن قد امتزجت مع هذا الفرح الوسيم الدموع والعبرات وطلبنا من الله ان يطهر عقولنا وبصائرنا ويخرجنا من الظلمات الى هذا النور الكلي البهاء الذي لا ينطفيء ابدًا. وبعد ان اسدى كهنة الله وجميع الشعب الشكر لله القادر على كل شيء قد شكروا جميعهم لقداستك وتضرعوا الى الله ليحفظك ايها الاب الاقدس لسياسة كل المسيحيين ليعلمهم الله بشخصك حتى اذا دانوا للايمان

---

(١) يريد بها اللغة العربيَّة التي كانت منتشرة وقتئذٍ في بلاد مصر وهي التي كان يعرفها كثيرون من سكان البندقية لكثرة معاطاتهم وحروبهم مع العرب الذين كانوا قد ملكوا سورية منذ قرون طويلة واجبروا اهلها على تعلُّم لغتهم العربيَّة والتكلم بها وحدها

المعصوم من الغلط بلغوا الى نقطـة الاتحاد والسلام . ليكتبنا ابن العذراء كلنا بين مختاريه ويجعلنا في عدد غنمه

وقد وكلنا الى الاب نفسهِ بعض مهمات لم نستطع ذكرها هنا خطًّا فهو يعوض كل ما نقص في هذه الرسالة فتستطيع غبطتك تصديق كل ما يبديه لك

اخيرًا بما اني انا الحقير والمسكين لا استطيع ان اذهب اليـك بنفسي ارسلت لك الاخ المحترم اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس المشهور بعلمهِ ودماثة خلقهِ وعهدت اليهِ في ان يبلغ اليك من قبلي اشياء كثيرة فلتتنازل اذن قداستك ولتستمع باذن صاغية وثقة تامة لكل ما يقولانه فليحفظ الرب الاله قداستك لسنين طويلة لخير المسيحيين ولاتحادهم

أُعطي في القاهرة في ١٢ ايلول عام ٦٩٤٠ حسب الروم وهي بحسب القبط عام ١١٥٧ من تاريخ الشهداء وسنة ١٤٤١ للتجسد الالهي

٣

فلما وصل نائب البطريرك القبطي الاب اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس الى فلورنسة قبلهُ البابا (وقد كان باقيًا في المجمع) بالسرور والاكرام فدفع اليهِ كتاب بطريركهِ في غاية آب وتلا بين يديه خطابًا عربيًّا فترجم الى الايطالية ثم الى اللاتينية واليك لمعة منهُ :

اني لدى مقابلتي بين عظمتك السامية ودناءتي ايها الاب الكلي الغبطـة يأخذني الرهب والاندهاش فان قصرت بهذا الكلام الذي انطق بـهِ التمس ان تشملني بذيـل العفو . كيف لا اجزع وما انا الا تراب ورماد اتكلم امامك انت وكيل الله على الارض ونائب المسيح وخليفـة بطرس وابو ورأس ومعلم الكنيسة العامة الـذي أُعطي مفاتيح الفردوس لتفتح وتغلق السماء لمن تشاء انت رئيس الملوك واعظم المعلمين . فعند افتكاري بهذه الامور ارتجف مذعورًا في المثول

بحضرة قداستك وامام اكابر الكنيسة الرومانية التي أشربت منذ اوائل النصرانية حكمة الالهيات وتعليم يسوع المسيح الحقيقي الذي حفظتهُ حتى اليوم ولا تزال تحفظهُ كما سلمهُ لها الطوباويان هامتا الرسل بطرس وبولس. لكن الكنائس الخصوصية التي نسيت مدة من الزمان هذه الحكمة وهذا التعليم ولم تبقَ على الاساس الاول بل افترقت عن الكنيسة الرومانية ام سائر الكنائس ومعلمتها قد سمح الله ان تكون رذالة للامم وغنيمة للغير المسيحيين كما نرى ذلك باعيننا في فريق من الروم والارمن وفينا نحن الحبشيين والقبط وقد انفصلنا عنكم من نحو تسعة قرون . على ان لنا في احزاننا تعزية عظيمة واملاً كبيراً لان الله الذي منَّ عليك بضم الروم والارمن الى وحدة الايمان الكاثوليكي هو نفسهُ الذي الهمك ان تدعونا الى الاتحاد بواسطة ابنك العزيز البرتس الراهب الفرنسيسي . فنتأمل انه يفيض بركتهُ لنكون واياكم على رأي واحد في كنيسة الله الكاثوليكية . فانا الذي يكلمك وتراهُ طاعناً في السن قد هجرت وطني مقتحماً الاهوال والاخطار لآتي وانطرح على قدمي قداستك رسولاً ونائباً غير مستحق عن بطريركي المحترم كما تتأكد ذلك من الاوراق التي اقدمها لك من قبل البطريرك عينهِ وكما يؤيد ذلك ايضاً الاخ البرتس الذي عانى معي مشاق جمة ابتغاء هذا الاتحاد الكلي الشرف في الايمان المسيحي

فوقع هذا الخطاب موقع القبول في قلب الاب الاقدس وجميع آباء اعضاء المجمع وتعجبوا كل التعجب من ارتياح الامة القبطية الى الاتحاد مع رأس الكنيسة وهي ساكنة في بلاد بعيدة فامر البابا بانشاء براءة باسمهِ الى بطريرك القبط

وفيما كان الموجون يهتمون باعداد هذه البراءة وصل الى فلورنسة وفد حبشي باسم ملك الحبشة قادم من اورشليم رأساً باذن الاب نيقوديم الراهب رئيس جميع الحبشيين ساكني القدس قد دفع للمجمع بعض رسائل لا يتيح لنا المقام ذكرها. بل جلّ ما نقولهُ عنها انها مع ارسالها دون علم بطريرك القبط المصري تشفّ عن

اخلاص في الانضمام الى كنيسة رومية وتثبت ان ملك الحبشة يرغب من كل قلبه في الاتحاد مع ام الكنائس ورئيس المؤمنين

٤

وعهد البابا والمجمع الى لجنة خصوصيَّة في فحص المسائل الخلافيَّة بين الكنيسة اللاتينية وكنيسة القبط بحضور معتمدي البطريرك وملك الحبشة ووفد الراهب نيقوديم ثم أصدر البابا براءة لجميع الاقباط وارسلها الى بطريركهم في مصر ويُقال انه كتب رسالة اخرى الى ملك الحبشة قسطنطين زرع (اي ابن) يعقوب لكن اضاعتها يد الحدثان فلم يوقف لها في التاريخ على اثر اما البراءة فهاك استهلالها :

« سبحوا الرب فانه عمل العظائم ... لان سيدنا يسوع المسيح برأفتهِ التي لا تغيض قد جمع بين الشرقيين المسيحيين كلهم تقريباً بعد انفصال طويل وضمَّهم الى الكنيسة الرومانية المقدسة لان الروم الخاضعين للبطريركيات الاربع المختلفة السكان المتفرقة اللغات ثم امَّة الارمن العديدة واخيراً الشعب القبطي الكبير القاطن مصر قد اتحدوا مع الكرسي الرسولي المقدس... »

ثم تذكر البراءة قضايا الايمان التابعة بما انها ضرورية لليعاقبة : الاولى بشأن الثالوث الاقدس مشفوعة بنقض اضاليل الاقدمين فيها. الثانية من حيث خلق العالم. الثالثة بشأن عدد اسفار الكتاب المقدس العهد العتيق والجديد واثبات ان الله وحده هو الملقن هذه الكتب دحضاً لاضاليل المانيين . الرابعة بشأن الوهية وانسانية يسوع المسيح وآلامهِ وافتداء الجنس البشري مع دحض الهرطقات التي تناقضها . الخامسة بشأن فرائض شريعة موسى والزمان الذي نُقضت فيهِ كالتمييز بين اللحوم المأكولة وما اشبه. السادسة بشأن قبول المجامع المسكونية الاربعة الاولى خصوصاً النيقوي والقسطنطيني والافسسي والخلكيدوني مع رذل الهرطقات التي حرمت فيها وعموماً سائر المجامع المسكونية المجتمعة شرعياً برضى وتثبيت سلطان الحبر الروماني ولاسيما

مجمع فلورنسة المقدس . السابعة بشأن كلمات التقديس ونوع الخبز الذي يجب استعمالهُ في الذبيحة الالهية . الثامنة بشأن الزواج وسواغية اعادتهِ بعد موت احد الزوجين بشرط الَّا يكون ثمَّة موانع قانونية

وبعد ان قرئت هاتهِ البراءة علانية باللاتينية والعربية قال نائب بطريرك القبط :

ايها الاب الكلي القداسة اوجانيوس الرابع الحبر الاعظم في الكنيسة المقدسة الرومانية والجامعة نائب المسيح الحقيقي وخليفة الطوباوي بطرس وانتم يا آباء مجمع فلورنسة المسكوني الكلي القداسة اني انا اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس المرسل من الاب الموقَّر السيد يوحنا بطريرك القبط بعد اطلاعي على هذه القضايا التي قرئت على مسمع منكم وعلى قضايا اتحاد الروم والارمن وبعد ان تمعنت فيها طويلًا اقرّ واعترف ان كل ما في هذه القضايا مطابق للحقيقة الالهية والكاثوليكية . فاذن باسم البطريرك المشار اليهِ وباسم جميع القبط وباسمي اقبل وارضى بالتقوى والاحترام الفائقين ببراءة المجمع المقدس الكلية الافادة وبكل ما فيها وايضاً بكل ما يؤمن ويُعلم الكرسي الرسولي المقدس والكنيسة الرومانية واستشهد على ذلك قداستكم واقبل باحترام الآباء والعلماء القديسين الذين تقبلهم الكنيسة الرومانية وانبذ وارفض الناس والاشياء الذين تنبذهم وترفضهم واعد ان البطريرك وكل القبط وانا ايضاً نطيع كابناء خاضعين دائماً بامانة لقوانين واوامر قداستك والكرسي الرسولي

وكانت البراءة مذيلة بتواقيع البابا واثني عشر كردينالًا كان عاشرهم الكردينال بساريون

وكان بودنا ان نذكر شيئاً من الرسالة التي بعث بها البابا الى ملك الحبشة لكن لما كانت قد كتبت بعد رجوع البابا الى رومية لتكون لها اهمية اكبر لم نقف عليها بين اعمال المجمع الفلورنسي وقد بحث العلماء عنها طويلًا فلم يرَوا لها اثرًا حتى يومنا هذا

٥

فهكذا قد انضمَّت كنيسة القبط الى وحدة الكنيسة الكاثوليكية الَّا انَّا لا نعلم بالتدقيق كم دام هذا الاتحاد في تلك البلاد بل نستدل من بعض الآثار انه بقي محفوظاً امداً مديداً لان احد ملوك الحبشة واسمهُ داود كتب بعد نحو مائة سنة للبابا اكليمنضس السابع رسالة يقول فيها : انه يعرف بابا رومية راعياً عمومياً للكنيسة كلها ويطلب اليهِ ان يرسل الى الحبشة آباء وكهنة ليعلموا شعبهُ قواعد الايمان والحقائق النصرانية. لكن لم يتسنَّ ارسال احد الى الحبشة الَّا في ايام البابا يوليوس الثالث الذي اوعز الى القديس اغناطيوس مؤسس الرهبانية اليسوعية بارسال ثلثة من رفقائهِ للقيام باعباء هذه المهمة العظيمة فرضي اغناطيوس ولو ضداً للقانون الذي رسمهُ في منع اليسوعيين عن تولي المناصب الكنسية وعيَّن الاب يوحنا نونياس ليكون بطريركاً على الحبشة واصحبهُ بالابوين اندراوس اوڤيادو وملكيور كرنير كاسقفين مساعدين لهُ ليخلفاهُ في كرسيهِ بعد موتهِ ولكن طرأت حينئذٍ ثورة شديدة في بلاد الحبشة فحالت دون مساعي هؤلاء الآباء ولم تأتِ رسالتهم بثمرة

وانما تحرينا الاسهاب عن القبط لان اكثر المؤرخين اغفلوا الاشارة الى اتحادهم في مجمع فلورنسة. اما الآن فنلمع بايجاز الى مفعول هذا المجمع المقدس عند سائر الطوائف الشرقية ولاسيما الارمنية التي اتحدت مع الكرسي الرسولي قبل القبط

٦

في شهر ايلول سنة ١٤٣٩ وصل الى فلورنسة رسل موفدون من قسطنطين بطريرك الارمن فاتفق وصولهم قُبيل خروج الروم من فلورنسة وكانوا اربعة وهم المطران يواكيم والعلماء سركيس ومرقص وتوما وبعد ان ادوا فرائض التحية والاحترام لامام الاحبار تقدموا الى الملك يوحنا باليولوغ وباحوا لهُ برغبتهم في الاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية والتمسوا منهُ ان يساعدهم ويمدَّهم بمشورتهِ فاجابهم الملك بان هذه الرغبة

تفرحهُ كثيرًا وانه يشتهي بملء السرور وعظم الشوق ان يدخلوا في حضن الكنيسة الكاثوليكية ويعتصموا بالايمان القويم ثم دعا لهم ان تكون العاقبة صالحة ووعدهم إن اتحدوا أن يسعى بمساعدتهم وامدادهم اينما احتاجوا اليهِ

وكانت الرسائل التي بعث بها بطريرك الارمن مؤرخة في الخامس والعشرين من تموز عام ١٥٣٨ ومما يقول فيها انه ارسل هذا الوفد لارجاع السلام والمحبة والاتحاد كما كانت موطدة بين البابا القديس سلفسترس وبين القديس غريغوريوس المنور وبين قسطنطين الكبير وطرطش (تيريداتس) ملك ارمينيا. فلما قرئت هذه الرسائل في المجمع عيَّن البابا ثلثة كرادلة وهم اسقف اوستية والبركاتي وجوليان دي سنت سابين مع كثير من العلماء للمداولة في مسألة الارمن

فكانت الجلسات تعقد يوميًا ومدار البحث فيها إمّا على اغلاط الارمن وإما على المشاكل التي كانوا مرتابين بها

٧

ولما انجلى صبح الحق بعد شهرين واتفق الفريقان اصدر البابا براءة هذا استهلالها: «افرحوا بالرب اله يعقوب يا جميع المدعوين بالمسيحيين ..» ثم جاءت على حل المسائل التي جرى فيها البحث. اولاً: امرت بان يرنَّم في كنائس ارمينيا كلها قانون الايمان النيقوي الذي كملهُ المجمع القسطنطيني الاول مع اضافة انبثاق الروح القدس من الابن. ثانيًا: اقتضت منهم قبول المجمع الخلكيدوني المسكوني والتسليم بتحديداتهِ بشأن طبيعتي يسوع المسيح في اقنوم واحد وذكرت هنا تحديد الوهيَّة الروح القدس وعقيدة الكنيسة بتجسد الكلمة كما شرحها شرحًا وافيًا ساميًا القديس كيرلس الاسكندري ولاون الكبير. ثالثًا: شرحت عقيدة المشيئتين كما حُدّدت في المجمع المسكوني السادس. رابعًا: حدَّدت بانه لا يجب فقط قبول المجامع الاولى الاربعة فقط بل ايضًا سائر المجامع المسكونيَّة وان يكرَّم البابا لاون الكبير كقديس عظيم عمود الايمان

الحقيقي . خامساً : علمتهم التعليم الكاثوليكي بشأن الاسرار السبعة . سادساً : نشرت لهم قانون القديس اثناسيوس . سابعاً : طلبت منهم ان يسلّموا بالبراءة التي كانت خاتمة لاتحاد الروم كما أُذيعت في مجمع فلورنسة المقدس . ثامناً : نظمت ايام اعياد الارمن ومواقيتها كما تعيدها الكنيسة اي بشارة العذراء وميلاد القديس يوحنا المعمدان وميلاد المخلص وختانتهُ والظهور الالهي ودخول السيد الى الهيكل

فقبل الوفد البطريركي باسمهم واسم البطريرك والاساقفة والخوارنة وجميع الشعب الخاضعين للبطريركية الارمنية هذه التقارير الجمعيَّة واعترفوا ايضاً بالمعلمين والقديسين الذين تعترف بهم الكنيسة الرومانية ورذلوا كل الذين ترفضهم واعلنوا باسم جميع الامة انهم يخضعون لكل اوامر الكرسي الرسولي كابناء اخصاء

٨

وبعد اتحاد الروم والارمن والقبط واهل الحبشة صار اتحاد اليعاقبة السريان القاطنين سورية وما بين النهرين وذلك ان بطريرك السريان اغناطيوس اوفد مطران الرها عبد الله الى رومية حيث اتمّ البابا اعمال المجمع الفلورنسي ليقدّم خضوعهُ للكرسي الرسولي فقبل البابا هذا بفرح جزيل وبعد عقد الاجتماعات اللازمة اصدر براءة نفيسة للسريان فسر فيها اخص قواعد الايمان في ما يتعلق بانبثاق الروح القدس وسرّ التجسد والاعتقاد بان في المسيح طبيعتين ومشيئتين فقبلت هذه البراءة بسرور وافر وهكذا تمّ اتحاد السريان

وتتمَّة لهذه الحوادث المتفرعة عن المجمع الفلورنسي العظيم الذي غمر شعوب الشرق بنفعهِ العميم لا بدَّ من ذكر شيء عن ارسال مطران رودس موفداً من قبل الكرسي الرسولي الى الشرق ليجلب الى طهارة الايمان بعض الشعوب التي كانت لحد ذلك الحين متمسكة بالهرطقات القديمة فلما بلغ رسول البابا اليهم قبلوا دعوة الحبر الاعظم الى الاتحاد فقدموا الخضوع التّام للكرسي الرسولي كما يفهم ذلك من البراءة التي ارسلها

الحبر الاعظم البابا اوجانيوس الى بعض رؤسائهم وهي محفوظة في اعمال مجمع فلورنسة الذي عقدت جلستهُ الاخيرة في غرَّة آب سنة ١٤٤٤ في الكنيسة اللترانيــة امام آباء المجمع بحضور الحبر الاعظم وختمت باتحاد سائر من بقي خارج حضن الكنيسة المقدسة من الطوائف الشرقية

تذييل للفصل التاسع

بعد نشر ما سبق في رسالة الكنيسة الكاثوليكية وفي اثناء المباشرة بطبعهِ هنا على حدةٍ بعث الينا احد المطارنة الاجلاء يستلفتنا الى مطالعــة ما كتبهُ بطريرك الروم الانطاكي مكاريوس الكاثوليكي الروح في كتابهِ الخطيّ المعروف بالانغرافوس في تاريخ سلاطين الروم بشأن ثمرة المجمع الفلورنسي في سورية وفحواهُ انه في سنــة ١٤٤١ حضر ناثانائــيل مطران رودس الى مدينة دمشق لدى البطريرك دوروثاوس الانطاكي ومعه كتابات الاتحاد التي كان قد تسلَّمها قبلًا من البابا اوجانيوس الرابع ومن الملك يوحنا الباليولوغوس واشتهر الاتحاد ومن دمشق توجَّه هذا المطران لدى البطريرك الاورشليمي ولدى البطريرك الاسكندري واخــيرًا يشير المؤرخ الى «ان الشيطان باغض الخيرات وحاسد المؤمنين اجتهد وهدم هذا الاتفاق» لكنا بحثنا على نسخة لهذا الكتاب في بيروت فلم نعثر عليهِ فاكتفينا بنشر استلفات سيادته

ثم ارسل لنا حضرة الفاضل القس كيرلس رزق احد اكليروس الروم الكاثوليك البطريركي الخاص يقول انه عثر في احدى المكاتب الشهيرة للروم الغير المتحدين في اورشليم على مخطوطين عربيين قديمين احدهما كتب في اواخر القرن الخامس عشر بيد نعمة الله ابن يوسف خوكاز وعزون بن جبرائيل عزون بعنوان اعمال المجمع الفلورنسي

وفي اوله وصف المؤلف المصاعب والاخطــار التي قاساها الشرقيون مع

الامبراطور يوحنا الباليولوغوس في البحار ثم وصف الاحتفالات التي جرت في استقبالهم ..
ثم المباحثات الطويلة التي جرت بين الطرفين ... اخيراً ذكر الصورة النهائيـة التي
قروا عليها وحدَّدوها باتفاق ورضى فقال ما يأتي « تمَّ الاتفاق بـين الروم واللاتين
بامضاء الصورة النهائية بعد جدال طويل استمر نحو سنتـين وذلك في مدينة فلورنسا
في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ من التجسد الالهي وختمهُ البابا وكان محرّراً هكذا البابا اوجانيوس
عبد عبيد الله وتحتهُ صورة الرسولين بطرس و بولس

ثم ختم الامبراطور ثم مطران ايراكليا نائب بطريرك اسكندرية ثم ايسيدوروس
مطران كيـاف نائب البطريرك الانطاكي ثم دوسيتاوس نائب بطريرك اورشليم ثم
باقي الروساء بالتدريج وتحت كل امضاء امضيت برضاي . اخيراً تليت الامضاءات
وحينئذٍ قبلوا ركبة البابا ويمينهُ ثم رتلوا لتفرح السماوات ذوكصا كانين الخ .
وانصرف كل الى مكانهِ بفرح ». انتهى

اما المخطوط الثاني فورد فيهِ اولاً ان كاتبه هو العبد الحقير بين الارثذكسيين
داود بن المرحوم موسى عزق بكريم من معمورة قارا سنة ١٥٠٠ لتجسد الكلمة ثانياً
هاك كلام الكاتب المذكور بتصرف وايجاز قال : «هذه نسخة الكتاب المرسل من المجمع
المقدس عن يد السيد كير نثنائيل مطران رودوس وفسره مطران بيروت كير مخائيل
في دمشق الشام المحروسة : لما كان سنة ١٤٤٠ للتجسد الالهي حضر من يدي الملك
يوحنا الباليولوغوس العظيم الحسن الديانـة .... ومن يدي السيد اوجانيوس بابا
رومية خليفة بطرس نائب السيد المسيح على البيعة الارثذكسية المقدسة ورئيس كهنة
الله وراعي خرافهِ المنتخب لهذا المجمع المقدس بسبب الفرقة التي خرجت من صيرة
المسيح واعادتها الى راعيها ومعلمها فحرك الروح القدس هذا السيد اوجانيوس للاجتماع
مع السيـد الملك محب المسيح وسيادة البطريرك والاساقفة الروم ومعلمي المسكونة
شرقاً وغرباً .. اقاموا نحو سنتين يتناضلون الى حين انتهوا وكتبوا في ذلك نسخة

بما اتفق بينهم وارسلوها الى الجميع والى الكرسي الانطاكي عن يد السيد كير نشائيل وفسرها بالهام الله السيد مخائيل مطران بيروت في تاريخهِ اعلاهُ وهاك اولها:

اوجانيوس عبد عبيد السيد المسيح المهتم بسائر الامور المختصة ببيعة الله تذكاراً موبداً لبني المعمودية... وكان هذا باشارة الملك المنتخب بين زمرة الملوك القديسين السلف فخر وجمال بيعة الله .. ايها الشعب الطاهر المستقيم بني المعمودية المقدسة الى الاخوة الاباء المعلمين الموجودين ببلاد سوريا المحترمين ... لتفرح السماوات وتتهلل الارض ......تمَّ الاتفاق بين جمهور الاباء الملتئمين ... وبعد المباحثة بين الروم واللاتين فكان الروم يقولون المنبثق من الاب بالابن على قول القديسين .. وانهم اقروا اخيراً انهُ يتخذ من الاب ايضاً معتقدين كاعتقاد اللاتين اذ فهموا انهم بذلك يريدون نفخة واحدة ومبدأً واحداً لكنهُ سُمح لهم ان يقولوا قانون الايمان بدون هذه الزيادة والابن بشرطان يعتقدوا بها ويضعوها في كتبهم وقد رسمنا ان هذا الاعتقاد هو الواجب الاعتقاد بهِ من الجميع ...(ثم ذكر سائر القضايا) وختموا المجمع باجمعهم .. وانصرف كلٌّ الى موضعهِ (انتهى). فهذا ما سبب في سوريا فرحاً عاماً عند الجميع لما نشر» (انتهى كلام الكاتب)

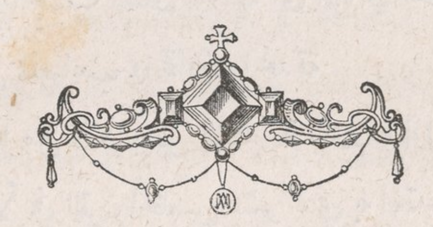
فهل من شهادة اقوى من شهادة ارثذكسي سوري معاصر المجمع عالم بما نال اهل سوريا من الفرح وهو احدهم من مكان قريب لدمشق حيث أُذيع المجمع لان قارا على بعد بضعة عشر فرسخاً شمالي شرقي الشام ثم قال الاب المشار اليهِ : ان هذا السينودوس المقدس لم يكن ليذهب بلا ثمرة ادراج الرياح لانه فضلاً عن الحقائق التي اثبتها وجعلها بمأمن من كل مضادة ظفر بالمرغوب بان اتم الاتحاد بين الكنائس ولو نهزة يسيرة على وجه الاطلاق اما الكرسي الانطاكي المقدس فنالهُ منهُ اوفر نصيب اذ قبل فيهِ باكرام وفرح كما سبق ثم حفظ لهُ اثراً جليلاً في كل قرن من حين انعقادهِ حتى اوائل القرن الثامن عشر في عهد الطيب الذكر البطريرك كيرلس

السادس الانطاكي الذي قبلهُ باكرام وعقد لهُ في ابرشيته عرًى غير منفصمة فكان تاريخ هذا المجمع نفس تاريخ الروم الكاثوليك بسوريا وقبل القرن الثامن عشر قُبل من بطاركة انطاكية الكاثوليكيين وحُفظ في ابرشيات ليست بقليلة كما يظهر من اوائل القرن المذكور فكان كجمرة تحت الرماد او كحبة خردل حتى صار شجرة كبيرة امتدت في سائر الانحاء فان السيد كيرلس المشار اليهِ جدَّد اعلانه بقبولهِ ومهد طرق زيادة الكثلكة لانه بالغيرة الرسولية التي ورثها من اسلافهِ البطاركة المستقيمي الرأي الذين ورث ايضاً حقوقهم وامتيازاتهم شرعيًا قد حافظ على التحديدات الكاثوليكية المجمعية وساق الرعية الى المراعي الخصيبة بايثاره كل ما هو جدير بالايثار بالرغم عن المصاعب والمخاوف المحدقة

هذا ولا ارى بدًا من ذكر بعض البطاركة الذين قبلوا ونادوا بالمجمع المقدس قبل السيد كيرلس. اولاً في القرن الخامس عشر الذي به انعقد : البطريرك دوسيتاوس الاول ولو انه نكص فيما بعد لمسايرة أُولي الاغراض ثم البطريرك مخائيل الثالث مع اساقفة الكرسي الانطاكي ثم البطريرك ثاودورس الخامس. ثانيًا في القرن السادس عشر: البطريرك يواكيم الخامس . ثالثًا في القرن السابع عشر : البطريرك اثناسيوس الثالث ثم كيرلس الرابع ثم افتيميوس الثاني ثم افتيشيوس الاول ثم مكاريوس الثالث رابعًا في القرن الثامن عشر: البطريرك كيرلس الخامس. ثم اثناسيوس الرابع ثم البطريرك كيرلس السادس ومن بعده خلفاؤهُ البطاركة الشرعيون الى اليوم الذي فيهِ جالس على الكرسي الانطاكي المقدس السيد غريغوريوس الاول الشديد الغيرة على التعاليم الكاثوليكية الراعي الساهر على نجاح وتقدم البطركية حفظهُ الله آمين

ومن ثم يرى كم من الاثمار والفوائد الجليلة اصدر هذا السينودوس المقدس الذي لم يزل في قوته الى الآن ولم ترفضهُ رسميًا وعموميًا كنيسة اخوتنا الروم الارثوذكس فنسأل السيد المخلص عروس البيعة وراعيها الغير المنظور ان يجود على

كنيسته بتمام الاتحاد العام المأثور ليصير فرحها كاملًا ويتمجد الله بالوحدة الايمانية والروحية آمين



الفصل العاشر

في اواخر ايام القيصر يوحنا

١ ــ فتنة مرقص الافسسي ضد المجمع الفلورنسي . ــ ٢ ــ هيجان ديمتريوس على اخيهِ القيصر يوحنا وارتداده خائباً . ــ ٣ ــ تغلب المسيحيين في بعض المواقع . ــ ٤ ــ انتصار العثمانيين في موقعة وارنة وقتل لادسلاس . ــ ٥ ــ سعي مرقص في نقض عرى الاتحاد وانغلابهُ في مباحثة علنية . ــ ٦ ــ بعض انتصارات قسطنطين وانكساراتهُ . ــ ٧ ــ تأثُّر القيصر يوحنا من الرزايا التي حلت بحلفائهِ ولاسيما انهزام المجريين . ــ ٨ ــ موت القيصر يوحنا

١

بينا كان الشرق من ارمينيا حتى اقاصي الحبشة يرتع على بساط الاتحاد الذي عُقد لواؤهُ في المجمع الفلورنسي بين كنيستي الغرب والشرق بهمة قيصر الروم يوحنا باليولوغ العظيم وكانت الشعوب قاطبة تدعو بتأييده ونصره وتبتغي دوام الكنيسة المقدسة مرتبطة بعروة الاتحاد الوثقى نشأَت في القسطنطينية حركة دينية مضادة للمجمع الفلورنسي المقدس ولم يكن لها بداءة ذي بدءٍ اهميَّة تذكر كما يزعم بعض المؤرخين لانها لم تظفر بالحظوة في عيني الملك يوحنا وكان ألدّ عدوّ لها قسطنطين شقيق القيصر الذي سنأتي على ترجمته وتفصيل ميتته المجيدة الَّا ان هذه الفتنة وجدت في ديمتريوس اصغر اخوة الملك اكبر نصير وكان النافخ في ضرامها مرقص الافسسي الذي خضع يوماً لحكم المجمع ولكن لما طلب منهُ آباء الروم تسليم اقراره خطاً او يبسلوه التمس من الملك ان يمهلهُ حتى يصل الى القسطنطينية حيث يقدّم خضوعهُ التام لئلَّا يُهزأَ بهِ امام اللاتينيين وهو شيخ طاعن في السن فقبل الملك ملتمسهُ رحمة به وشفقةً على شيخوختهِ على ان مرقص اغتنم فرصة السفر لتأليف حزب مضادٍ للمجمع واستمالة بعض الاساقفة الى رأيه فجذب اليهِ انطونيوس مطران هرقلية الذي انضم اليهِ كل الانضمام واخذ يرمي المجمع بالاغتصاب زاعماً انه لم يوقع صكّ الاتحاد الَّا مكرهاً

ولما كان يُسأل عما انزل بهِ اللاتين من آثار الاكراه على التوقيع: «أجلدوك بالاسواط او طرحوك في السجون او انزلوا بك النكال بتباريح العذاب» كان يصمت خجلًا ثم يجيب معتذرًا بانه لسوء حظهِ سقط في احبولة المواعيد التي كانوا يزينونها له فاخذه الطمع بنوال الهدايا والاموال الغزيرة . وكان يصرخ بعد هذا القول: «لتقطع هاته اليد التي وقَّعت هذا التجديف وليستأصل من شأفتهِ هذا اللسان الذي نطق بهِ»

وكان هذا الحزب يتقوى شيئًا فشيئًا بدسائس مرقص الافسسي واعوانهِ حتى مات فضعف حزبهُ كثيرًا كما سنرى الَّا انه عاد فنما وقويت شوكتهُ بعد موت الملك قسطنطين باليولوغ وفتح القسطنطينية

٢

وقد سبق الذكر ان ناصر هذا الحزب كان ديمتريوس اصغر اخوة الملك يوحنا وقد جاشت في صدره عوامل الحسد من اخيهِ قسطنطين الموعود بخلافة اخيه يوحنا فأخذ يبرم الدسائس والفتن ويلقي النزاع والشغب في المدينة فلم تنجح مساعيهِ لضعف حزبهِ وسقوط كلمتهِ بين الروم فخرج يستغيث باعداء وطنه مستنجدًا اياهم لمحاصرة القسطنطينية وكان قد جمع تحت امرتهِ جيشًا صغيرًا مؤلفًا من اخصاء اعوانهِ وبعض المفسدين فزحف بهم على العاصمة لفتحها عنوة وخلع اخيهِ يوحنا وخلافتهِ في كرسي المملكة الَّا انه لم يفلح ايضًا في خيانتهِ هذه لان سكان المدينة ادركوا مآربهُ فوصدوا ابوابها ورمموا الاسوار ودافعوا اشد الدفاع فارتد المحاصرون خائبين ولم يستطيعوا ان يأتوا المدينة بضرر بل دمروا ضواحيها وخربوها تخريبًا . فلما عاد ديمتريوس بخفي حنين اراد التقرُّب من السلطان مراد فطردهُ وازدراه

اما اخفاق حملة الاتراك هذه المرة مع ديمتريوس فلانَّ الجيش الذي سيَّره السلطان لم يكن كبيرًا وذلك لسببين اولهما ان السلطان مراد لم يكن يريد ان يفتح القسطنطينية احد غيره انما كان يجب ان يقع الانقسام بين رؤساء الروم فيتسنَّى له

اخذهم بلا عناء وثانيهما ان السلطان كان يريد ان يجمع كل قوتهِ لمصادمة حملات اعدائهِ المضرمين عليهِ نار الوغى وكان الدّهم يوحنا كرڤين امير ترنسلڤانية الملقب بالهوني الذي زحف عليهِ بمقدمة جيش كبير لملك المجر وتملك الصرب فامسى مشهور الاسم

٣

ومن اشد اعداء العثمانيين يومئذٍ كان جرجس كستريوت المشهور باسكندر بك وكان نصرانيا أُخذ فتى بين الاسرى وربي في بلاط السلطان مراد وصار يحارب اعداءه لكن كان يجنُّ في قلبهِ غلّ الانتقام من هذا السلطان اخذاً بثأر اخوتهِ الثلثة الذين قتلهم وترع من يدهم امارة البانيا فاتفق ان اسكندر بك كان يحارب المجريين مع سائر الجيوش العثمانية فانحاز الى الاعداء ضد العثمانيين حتى هزمهم وحينئذٍ قبض على كاتب سرّ السلطان واجبره ان يعطيهُ كتابة مذيلة بطغراء السلطان مراد الى والي مدينة كرويَة عاصمة البانيا التي غصبها السلطان من ابيه واخوتهِ ليسلمهُ المدينة والّا قتلهُ قتلًا فلبى الكاتب طلبهُ فترك اسكندر بك المعسكر وهرع الى المدينة المذكورة ودخلها صلحًا وتحصن فيها حتى تمكن من دفع كل هجمات السلطان

فانتعشت في تلك الاثناء قوة المسيحيين ببعض الغلبات التي حازوها فتحصنوا في بلادهم واخذوا بالمدافعة عنها ببسالة وشجاعة فتيسر للحبر الاعظم والحالة هذه ان ينادي بالمحاماة عن القسطنطينية واستحثّ همة لادسلاس ملك بولونيا والمجر وجعلهُ مقداماً وزعيماً لهذه الحرب ووعده بمال كثير سدًّا لنفقات الحرب فهال السلطان مراد هذا التحالف ولا سيا لان كثيرين من امراء المسلمين في اسيا الصغرى الخاضعين لهُ كانوا قد هاجوا رافعين لواء العصيان عليه وخالعين نير طاعته عن رقابهم وكان في مقدمة هذه الثورة ابرهيم بك امير قرمانية الذي اوقد نارها وحرك سائر الامراء

على اقتفاء اثره فزحف السلطان مراد بجيش جرَّار على الثائرين لاخماد هيجانهم وقهر المتمردين فاغتنم الامراء المسيحيون فرصة غيابه وتفرُّق شمل عساكره فتحالفوا على استرداد المدن التي كان قد فتحها

وكان البابا اوجانيوس قد جهز حينئذٍ عمارة قوية من سبعين سفينة وعقد لواءها لابن اخيهِ كردينال فلورنسة فرنسيس كندلميري فجاء بها الى بحر اليونان وارسى في مضيق الدردنيل ليسدّ في وجه السلطان باب الرجوع الى اوربا وكان لادسلاس ملك المجر مسالمًا وقتئذٍ للسلطان مراد فحل عرى السلم وعقد النية على الحرب لسببين اولهما رسالة انتهت اليه من القيصر يوحنا تحضهُ على انتهاز هذه الفرصة الملائمة لانقاذ البلاد ثانيهما خطبة حماسية القاها الكردينال جليان سفير البابا على مسمع من جميع عظماء الامَّة المجرية. فزحف لادسلاس بجيشه على مدينة وارنه واحتلها عنوة ثم عزم على افتتاح ادرنة ثم المسير الى القسطنطينية للمدافعة عنها لكن حال دون قضاء مأربه عدة موانع اخصها ان اسكندر بك لم يستطع ان يصل اليه ليتحد معهُ لان امير الصرب حجر عليه الاجتياز في ارضه ومنها ان السلطان مراد قد تغفل عمارة البابا فعبر مضيق الدردنيل وعاد الى اوربا بكل جيوشه

فلما بلغ ذلك لادسلاس اخذ منهُ الغم كل مأخذ حتى نزل به داء اليم الزمهُ السرير واوقفهُ في وارنه انتجاعًا للشفاء اما السلطان مراد فزحف بخيله ورجله من ادرنة حاضرة مملكته على وارنه فحمي وطيس القتال فتفرَّقت عساكره ايادي سبا وكاد يركن الى الفرار لولا ان اثنين من حرَّاس رأسه منعاهُ

٤

غير ان لادسلاس اسكرته سورة الظفر فدفعتهُ الحمية الى ان يهجم على السلطان مراد فيقتلهُ بيده فركب جوادًا بمقدمة نخبة من ابطال رجالهِ واخترق الصفوف مشرعًا السنان حتى وصل الى محلّة السلطان وكاد يطعنهُ فكبا جوادهُ فاسرع احد حرَّاس

السلطان وصرم عنقهُ ورفع رأسهُ على حربة على مرأى من الجيوش فانخلعت قلوب المجريين والبولونيين وانحلّت عزائمهم وولوا الادبار فتأثرهم العثمانيون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً منهم الكردينال جليان الذي تبع لادسلاس في هذه المعمعة مع اسقفين آخرين وقتل كثير من العثمانيين حتى ان السلطان قال انه لا يشاء ان يثير فيما بعد حرباً كهذه تكون عاقبتها ظفر جيوشه ولكن بعد سقوط الوف عديدة منها

فنجم عن هذه الضربة الجسيمة تفرق شمل الامراء المتحالفين فلبث يوحنا باليولوغ مهملاً من الجميع لا حليف لهُ ولا نصير فدان لمشيئة السلطان مراد

٥

فلما اخفق سعي هذا التحالف الذي اشترك بهِ البابا نفسه مادياً وادبياً لخير الروم اغتنم مرقص الافسسي الفرصة لنقض عرى الاتحاد الذي عقد بين الشرق والغرب واخذ يقرّف الذين قبلوا هذا الاتحاد طاعناً تارةً على الاساقفة الذين حضروا المجمع وطوراً على الملك نفسه

اما غريغوريوس البروتوسنجلوس معرف الملك فلم يتمالك ان يصمت عن افتراء مرقص على الغربيين والمتحدين معهم فقال لهُ «ما الذي حملكَ على قذف هذه الشتائم أَلِأَنَّ البابا لم يجزك بصلةٍ وافية كما كنت تعلل آمالك لما صورت سميهُ القديس اوجانيوس على لوحٍ كبير وقدمته لهُ مشفوعاً بخطاب مفعم تقريظاً وتملقاً: «أنسيت ما كلمته بهِ في هذا الخطاب اذ قلت لهُ ايها الاب ابراهيم ارفع يدك لتبارك اولادك الآتين من اقصى الشرق»

فتغاضى الملك يوحنا باليولوغ عن حسم هذه المخاصمات واذن باقامة مناقشة علنية بين مرقص الافسسي ومطران كورونه فلم يفلح مرقص هذه المرة ايضاً اذ غُلب امام الجمهور بقوة ادلّة خصمه القاطعة حتى ان تأثُّره البليغ من هذا الانغلاب كان على رأي المؤرخ لوبو سبب موته حزيناً بُعيد المناقشة اي قبل وفاة الملك يوحنا الّا ان

كثيرين من المؤرخين المحدثين يرتؤون تأجيل موت مرقص الى مبادئ تملك قسطنطين باليولوغ. هذا ولما كان يوسف مطران موتون قد اذاع دحض افتراءات مرقص في ايام قسطنطين اثرنا ان نتكلم عن وفاة مرقص في ترجمة هذا الملك العظيم

٦

ولم يكن قسطنطين حين تغيب السلطان مراد عن اوربا الا والياً لبلاد بلوبونيس على انهُ لم يدع هذه الفرصة تضيع سدًى فجمع رجال حزبه وان قليلين عدداً وشرع يوسع نطاق ولايته بهجومه على اراضي السلطان والاستيلاء عليها فاسعده الحظ بان دخل ولاية بيوتية وفتح حاضرتها مدينة تيب ثم تملك جبل بندوس واثار جميع سكان تلك الضواحي لينقضوا على تسالية واهتم في الوقت نفسه بتقوية بلاده وتحصينها ولاسيما ترميم السور العظيم المقام لاغلاق باب الدخول في بلوبونيس فقد جدد بناءه بحجارة ضخمة متينة متشبكة بعضها ببعض بكلاليب حديدية وكان سمكه خمسة اذرع وكان محصناً بخمس قلع منفصلة عن بعضها بمسافات متساوية وحفر في سفح جانبه الخارجي خندقاً عميقاً واسعاً يملأ من ماء البحر وكان هذا الخندق يصل بحر ايجي بالبحر اليوني فتضحي بهِ ولاية بلوبونيس جزيرة منفصلة عن اليابسة

فلما بلغ السلطان مراد هذه الامور غضب غضباً شديداً لما يعرف من شجاعة قسطنطين وشدة بأسه فسار بجيوشه الجرارة تتبعها عجلات كثيرة عليها صفائح نحاسية لعمل المدافع كما يخبر بذلك المؤرخ التركي خوجه افندي فلما اتمّ جميع المعدات الحربية امر الجنود فسدوا الخندق ثم حمل بهم على السور المحصن وجعل يرشقهُ بقنابل المدافع فخرقتهُ بخروق جمة وتهدم جانب كبير من القلاع المتينة ثم هجموا هجمة واحدة فاحتلوا القلاع ودوَّخوا البلاد. وذهب بعض المؤرخين الى ان العثمانيين قد استعملوا المدافع للمرة الاولى في هذه الموقعة الَّا ان ذلك مردود بما جاء عنهم انهم قبل ست وعشرين سنة اي عام ١٤٣٢ قد استخدموا المدافع لضرب القسطنطينية وبلغراد

ولما فتح السلطان ولاية بلوبونيس رجع بكثير من جيشه الى ادرنه واقام في تلك الولاية مقامهُ رئيس جنوده طرخان الذي اباح للعساكر بان يهدموا ويحرقوا ويغنموا كل شيء حتى اعيا كل جندي من حمل الامتعة التي غنمها اما السكان فاتخذوهم اسرى ولكثرتهم سقطت اثمانهم حتى بيع احسن العبيد بدريهمات يسيرة

فلما رأى قسطنطين الحالة البؤسى التي احاقت بشعبه مسته الشفقة وانفطر قلبهُ حزنًا وتأسيًا وعمد الى عقد الصلح فاوفد الى السلطان مراد ابا المؤرخ خلكونديلوس فطرحهُ السلطان في السجن فانفذ قسطنطين رسولًا ثانيًا يتعهد للسلطان بقبول كل ما يقترح عليهِ من شرائط الصلح. فطلب السلطان ان يهدم السور عن آخره وان يدفع لهُ في كل سنة ضريبة معلومة

فاخذ قسطنطين يهتم في شؤون ولايته مصلحًا الاضرار الناجمة عن الحرب وكانت ثلثة اقسام كورنتس وبتراس وسبرطه فولى على الاولى يوحنا كنتاكوزين وعلى الثانية الكسيس لسكاليس وعلى الثالثة المؤرخ فرنتزيس الذي كتب تاريخ الروم ولدينا النصائح التي القاها عليهِ قسطنطين حين ولاه فاثرنا تعريبها :

« قبل كل شيء لا تسبب لاحد ضررًا ولا تدع سلطةً غريبة عن سلطتك تفعل في اقليمك فان سلطتك سلطتي. احترم الشرائع ولا تحد عنها البتة فيثيبك الله عن ذلك وانا اكون عنك راضيًا. ارفض الرشوة (او الهدايا) وانبذنَّ عنك الذين يقدمونها لانها تعمي العقل وتفسد القلب وتسبب مظالم شتى وكثيرًا ما تجرُّ آخذها الى الحكم على البار وتبرئة المجرم. فالمولَّى على اجراء العدل يجب عليهِ ان يكون امينًا نحو الله ونحو مولاه ويلزمهُ ان يكون صادقًا في كلامه حكيمًا عائشًا بالاعتدال والقناعة ولما كنت مقتنعًا بانك مزدان بهذه الصفات وكلت اليك التولي على هذا الاقليم »

٧

ولما ترلت بالبلاد هذه الخطوب والمصائب ازداد الملك يوحنا حكمةً ودراية

وحسن تدبيرهُ للمملكة واصلح كثيرًا من شوائبه لانَّ الايام عركته والتجارب والبلايا حنكتهُ فاتخذ الاستقامة منهجًا والعدل سبيلًا لكن حلت بقومه وحلفائه رزايا جديدة أضرمت منهُ الفؤاد حتى علّق عليها بعض المؤرخين قصف حياته بعد مدة يسيرة واعظم هذه الخطوب ما حل بالبطل يوحنا الهوني امير ترنسلفانية الذي انتخبهُ المجر بعد موت الملك لادسلاس كفيلًا لمملكتهم في غضون قصور ملكهم الطفل فان السلطان مراد وولي عهده محمد وكان عمره حينئذٍ تسع عشرة سنة فقط زحفا على المجر بمائة وخمسين الف مقاتل ولم يكن المجريون وقتئذٍ الَّا خمسين الفًا فتصافّ الجيشان في سهل قوصوه (في بلاد الصرب) في ١٨ تشرين الاول سنة ١٤٤٨

وحارب المجريون يومئذٍ ببسالةٍ غريبة فلم يسعدهم الحظ بالغلبة بل سقطوا جميعًا محصودين بمنجل المنون في ذلك السهل الواسع ولم يفلت منهم الَّا نزرٌ يسير اركن الى الفرار مع يوحنا الهوني

فعدّ السلطان مراد هذه الغلبة اكبر الانتصارات التي حازها فاذاعها بابهة عظيمة في جميع الافاق ولاسيما في القسطنطينية

٨

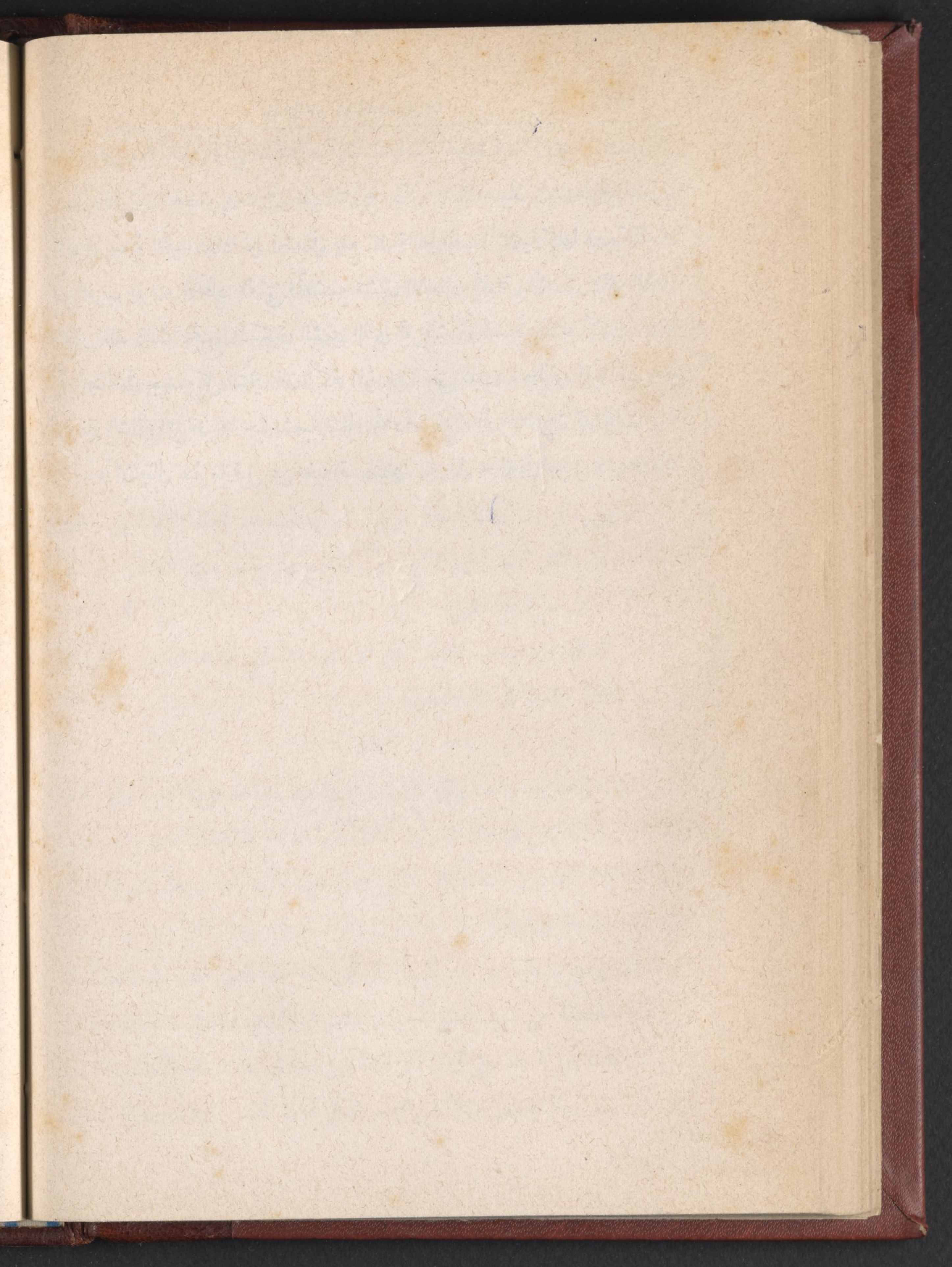
وعاش الملك يوحنا بعد هذه الموقعة المهولة سنة واحدة قضاها حزينًا كئيبًا وفي آخرها توفاه الله بداء النقرس في ٣١ تشرين الاول عام ١٤٤٩ فكانت مدة ملكه بعد موت ابيهِ ثلثًا وعشرين سنة وثلثة اشهر ومن حين توَّجه ابوه وجعله شريكًا لهُ في الملك في حياته ثلاثين عامًا

مات يوحنا باليولوغ عن غير عقب ذكر عن ٥٨ عامًا قضى اغلبها في المحاماة عن وطنه والمحافظة على شرف امته . أجلْ لم يشتهر في الحروب اشتهار شقيقه قسطنطين الذي بذل نفسه عن شعبه حتى اراق آخر نقطة من دمه في حصار القسطنطينية اما يوحنا فلم يفقد بهذا القصور شيئًا من مجده الذي حازه بحسن ادارته ودراية تصرفه

وما ابداه من سداد الرأي وعقد الصلات السياسية المفيدة

وقد خلّد القيصر يوحنا في بطن التاريخ ذكرًا جميلًا جليلًا لا ينازعهُ فيهِ منازع ألا وهو سعيهُ المجيد وراء خير امته في جمع كلمة الطوائف المسيحية كلها وضمّ الشرق الى الغرب بعروة الاتحاد الوثقى وتجشمه مشاق الاسفار بخوض البحار وهجر الاهل والدار لعقد ذلك المجمع المسكوني الشهير الذى غمر الشرق باسرهِ بفضله الكبير . وقد أثّر العناء في جسمهِ كل التأثير فان اكثر المؤرخين حتى الذين لم يطرئوه اقرّوا ان هاته الاسفار الشاقة التي قضاها حبًّا بشعبهِ ابتغاء اتحادهم مع سائر المسيحيين قد عجلت موته فلا بدْعَ ان يقال عنهُ ما قيل عن اخيهِ قسطنطين انهُ بذل حياته في سبيل دينه ووطنه وامته





القسم الثاني

في القيصر قسطنطين الثالث عشر آخر سلاطين الروم

الفصل الاول

اوائل ملك قسطنطين

١ إجماع الآراء على انتخاب قسطنطين خليفة لاخيه يوحنا. ــ ٢ تهنئة البابا لهُ. ــ ٣ موت السلطان مراد ومبايعة ابنه محمد الثاني خليفة لهُ. ــ ٤ عزم قسطنطين على الزواج وخطبته لابنة ملك ارمينية الا ان شبوب الحرب حالت دون عقد القران

١

لما توفي الملك يوحنا ولم يترك لهُ عقباً كان الحق في خلافتهِ على عرش سلطنة الروم لاخوتهِ الثلثة قسطنطين اكبرهم وديمتريوس وتوما وكان الجميع يتأملون ان قسطنطين يخلفهُ ليس فقط من حيث تقدمهُ سناً بل ايضاً لان اخاهُ يوحنا كان يرشحهُ لخلافتهِ قبل وفاته اما توما اصغرهم فكان محباً لقسطنطين فلم ينازعهُ واما ديمتريوس فاستفرغ قصارى الجهد ليمتطي صهوة الملك وقد سبقت الاشارة في القسم الاول الى انه حاصر القسطنطينية عبثاً بمساعدة العثمانيين في ايام اخيهِ يوحنا . فلما توفي شرع يؤلف احزاباً في القسطنطينية عينها ضد قسطنطين لكن حبطت مساعيه كلها وذهبت اتعابهُ سدًى لان قسطنطين كان محبوباً من الجميع عند الاغنياء والفقراء وكانت تؤثرهُ الامبراطورة الامّ واتفق اخوه الصغير توما وجميع ارباب الكهنوت من مطارنة وكهنة وكل اعضاء مجلس الملاِ وكل الجيش وبصوت واحد نادوا جميعهم بقسطنطين ملكاً لِما يعهدون في ديمتريوس من شراسة الاخلاق وشذوذ الآداب بخلاف قسطنطين الذي كان وديعاً بشوشاً قد خلب قلبهُ حب الكل فضلاً عن انه كان بطلاً شجاعاً

لكثرة النوائب التي عركته والحروب والشدائد التي حنكته فطردوا اصحاب ديمتريوس وأجمعت آراؤهم قبل مجيء قسطنطين الى الحاضرة ان يوفدوا الى السلطان مراد رسولاً يخبرهُ بانتخاب الشعب قسطنطين ملكاً للروم خشية ان يلتجىء ديمتريوس الى السلطان ويستجيره على اخيهِ كما صنع في ايام الملك يوحنا فارسلوا فرنتزيس المؤرخ الشهير فلما وفد على السلطان اكرم مثواه واستصوب هذا الانتخاب وحمَّلهُ هدايا ثمينة

فلما تمت جميع المعدات اللازمة بعث ارباب مجلس الاعيان بوفدٍ كبير الى لقدمونية مقام قسطنطين حاملين اليهِ شعار السلطنة فقابلهم في مدينة لقدمونية في سادس كانون الثاني عام ١٥٥٠ لكنه لم يذهب الى القسطنطينية الَّا في شهر آذار من السنة نفسها وروى المؤرخون ان استقبالهُ كان بابهة نادرة واحتفل بتتويجهِ قيصراً احتفالاً لم يشهد لهُ مثال

٢

وفي هذه الغضون وردت الى الملك قسطنطين رسالة تهنئة من البابا نقولاوس الخامس فيها يحرضه ان يواظب على حفظ الغيرة عينها التي ابداها حتى ذلك الحين باجتهاد وامانة استحق بهما امتداح سلفهِ البابا اوجانيوس الرابع الذي كان قد بعث اليهِ برسالة طافحة ثناء وحباً ابوياً وهاك لمعة منها:

« اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله الى العزيز قسطنطين باليولوغ امير سبرتة السلام والبركة الرسولية

« قد بلغنا شوقك العظيم وحرارة تقواك اكراماً لله وغيرتك الشهيرة على الايمان الكاثوليكي تلك الاوصاف الحميدة التي تحملك على تعميم الاتحاد المقدس بين الكنيسة الشرقية والغربية في القسطنطينية وسائر بلاد الروم وقد انتشر هذا الاتحاد رسمياً بفرح عظيم وباتفاق متبادل . وهذا قد علمناه من اخينا كريستوف مطران

كورونه سفيرنا ومن كثيرين من الرجال الاتقياء أُلي الرأي المستقيم. . . لانَّا عرفنا انك وضعت يدك على صدرك وحلفت بين يدي سفيرنا المطران المذكور الذي تقبَّل قسمك باسمنا و باسم كرسينا الرسولي بانك تبذل قصارى جهدك في تقرير هذا الاتحاد وكل ما هو عائد لكمالهِ وان يثبت راسخاً بكل قوتهِ . فنحن والكرسي الرسولي قد شكرنا الجودة الالهية لتحليتك بهذه الشعائر المرضية وقد شكرناك انت ايضاً لانك حفظت وتحفظ هذه النعمة السماوية ونحن نرغب ان نعمل ونكمل كل ما يسرّ تقواك البهية ونريد الآن بالخصوص ان نصنع ما نستطيع دليلاً على معرفة جميلك

« ولهذا بعونة الله الذي لاجلهِ تواصل اتمام هذا العمل المقدس وتريد اكمالهُ في المستقبل نعدك اذا رقيت تخت سلطنة الروم او توليت زمامها باي نوعٍ كان ان نبذل في اسعافك وسعنا واذا اتممت تقرير الاتحاد بقراءة او باعلان صك اتحاد المجمع الاخير فانَّا نعد تقواك برسالتنا هذه باسمنا واسم كرسينا الرسولي انَّا نمدُّك بجميع المساعدات والاغاثات التي وعدنا بمنحها ولدنا العزيز بالمسيح الملك يوحنا لحراسة مدينة القسطنطينية والمدافعة عنها ونقول لك ايضاً كن على يقين ان الكنيسة الرومانية والكرسي الرسولي لن يتخليا عنك البتة آن الحاجة ما دمت تؤدي لهما الاكرام الواجب وتمشي في سبل العدل وتشتغل لاتمام هذا الاتحاد الجزيل القداسة بكل امانة ونشاط

« أُعطي في فلورنسة في ١٩ نيسان عام ١٥٤١ وهي السنة الحادية عشرة لحبريتنا

اوجانيوس اسقف

الكنيسة الكاثوليكية

٣

وبعد ارتقاء قسطنطين الى تخت السلطنة بزمان يسير فجعت الدولة العثمانية بموت السلطان مراد فارتجت لمصابهِ البلاد وكانت وفاته في شهر شباط عام ١٤٥١ اي بعد موت الملك يوحنا بسنة واربعة اشهر . وذهب المؤرخون الى انه كان في

السنة الخامسة والسبعين من عمره لكن الارجح انه قُبض عن ٤٩ عاماً فقط

كان السلطان مراد محبوباً من عموم رعيتهِ حتى النصارى انفسهم لانهُ كان مزداناً بفضائل طبيعية جمية كالشهامة والعدل والحلم وقد احرز مجداً عظيماً وحاز انتصارات جمة الا أنه حاصر القسطنطينية فارتدَّ عنها وحمل على المدينة الحقيرة كروي التي كانت في يد اسكندر بك فلم يفتحها وحينئذٍ قال «ان كان الله مضاداً فماذا تعمل الخليقة»

توفي السلطان مراد وترك عرش السلطنة لابنهِ محمد الذي خلفهُ ولم يكن عمره سوى ٢٢ سنة وكان حين وفاة والدهِ في مغنيسيا فلم يُعلم احداً بشيء بل هبَّ الى جوادٍ عربي كريم فامتطاه وقال «من كان لي صاحباً فليلحق بي راكباً» ثم جرى ينهب الارض بسرعةٍ فوصل الى الدردنيل (غاليبولي) بعد يومين والمسافة بين مغنيسيا وغاليبولي تبلغ مائة وعشرين فرسخاً فاعلن حينئذٍ موت ابيهِ وسافر حالاً الى ادرنه فلما بلغها امر فأُقيم لوالده مأتم غاية في الابهة ونقلت جثتهُ الى بروسه (في اقليم بتنية) حيث مدفن سلاطين آل عثمان ثم وفد عليه سفراء كثيرون من الامم المجاورة ليعزوه بوفاة والده ويهنئوه بخلافتهِ لهُ فاحسن وفادة الجميع وقبلهم برقة وبشاشة وانعطف خصوصاً الى سفراء الروم الآتين من قبل قسطنطين فبالغ في اكرامهم وقال لهم «انه مستعد ليجدد مع قسطنطين عهود الولاء التي عقدها والده السلطان مراد مع الملك يوحنا . وحلف بالله والرسول والملائكة والقرآن انه لن ينكث البتة بهذه المواعيد التي تعهد بها للروم» ولم يتردد اجابةً لطلب وفد الروم في تعيين راتب وافر لاحد الامراء العثمانيين اورخان شلبي الذي كان نزيل القسطنطينية وهو احد اعقاب السلطان بايزيد الاول

وبعد انصراف سفراء الملك قسطنطين استقبل محمد وفود سائر ولايات الروم المبعوثين من قبل ولاة الجزائر الصغيرة والاقاليم التي بامرة توما وديمتريوس اخوي

الملك ثم واجه وفد الفلاخ والبلغار وخاطبهم جميعاً بلسان الحب والسلام وضرب لهم مواثيق وعهوداً سلميــة من شأنها ان تقنع سامعها بان الراحة توطدت والحرب انحسمت فلا يراق على الارض نقطة دمٍ واحدة

٤

واخذ قسطنطين من حين قبض على صولجان سلطنة الروم يفكر في ان يعقد لهُ على امرأَة تقرّبهُ من احدى الدول القوية فيشتد بها ازره وتتقوَّى بمحالفتهـا اركان مملكتهِ فاشار عليهِ صديقهُ الامين فرنتزيس المؤرخ بان يتزوَّج أَرمـلة السلطان مراد السلطانة مريم بنت ملك الصرب ابتغاء ان يحصل من هذه الزيجـة على فائدة مزدوجة اي ان يضمّ ملك الصرب كل قواه مجموعة الى قوى صهره فتتوطد بهـا بلادهما كليهما وان يستجلب السلطان محمد الى المحالفة او أَقـلهُ الى الاعراض عن الحرب فلا يحمل على حصار القسطنطينية وسلطانتها تكون امرأَة ابيـهِ لكن هذه الافكار السياسية لم تتحقق عملياً وهذه الامنية قد حبطت لان السلطانة مريم عقدت النية على ان ترفض الزواج وتنقطع الى عبادة ربها زاهدة في احد الاديرة

فلما انقطع امل قسطنطين من السلطانة مريم اشار عليهِ اصدقاؤه بان يخطب ابنة دوق البندقية فرنسيس فسكار الا ان امراء البلاط رأَوا ان ليس في هذه الزيجة مناسبة لمقامه القيصري لان الفتاة لم تكن ابنة ملك فتأَثر البنادقة من هذا التعليل فكظموا غيظهم طي القلب ومن ثم فترت غيرتهم في المدافعـة عن القسطنطينية كما سنرى

ثم ارسل قسطنطين نديمهُ فرنتزيس الى جورج متيس ملك ارمينيا وبلاد الكرج ليخطب لهُ ابنتهُ فسافر فرنتزيس في هذه المهمة ومعهُ موكب عظيم مؤلف من بعض اعيان الروم وكهنتهم يصحبهم فئـة من رجال الحرب وبعض الاطباء والضاربين بآلات الطرب

فلما بلغ وفد الروم الى ارمينيـا احسن ملكها وفادتهم واجزل اكرامهم وفرح جدًّا بتقربهِ من سلطانهم قسطنطين وقال لفرنتزيس « ان عادة الارمن ان يؤدي الرجال مهر العروس » ملمحاً الى انه لا يؤدي مهر ابنتهِ كما يفعل الروم . على انهُ لما كان راغباً في عقد هذا الزواج وعد باعطائهِ اياها عند رحيلها على سبيل الهدية ستة وخمسين الف ذهب . وتعهد ايضاً بان يبعث لها في كل سنة بثلاثة آلاف ذهب تصرفها كيفما شاءت وسمح لها بان تأخذ معها جميع الحلى والجواهر والحجارة الكريمة التي كانت تتحلى بها في بيتهِ مع اثوابها الفاخرة . ووعد فرنتزيس انه عند رجوعهِ من القسطنطينية الى ارمينيا لزفاف ابنتهِ يخلع عليه ثلث حلل من الحرير الثمين تقدَّر كل منها بخمسمائة ذهب . ولا يخفى ان حرير بلاد الكرج في تلك الايام كان يفضل حرير الدنيا باسرها

فلما عاد فرنتزيس الى القسطنطينية ارسل الملك جرج معهُ سفيرًا الى الملك قسطنطين حاملًا اليهِ صك عقد الزواج ليصادق عليهِ ويختمهُ بختمهِ فلما قرأ قسطنطين الصك رضي بكل ما فيهِ وذيلهُ برسم ثلثة صلبان دلالة على قبولهِ

الَّا ان هذا العقد الذي قُبل من الطرفين لم يتيسر اتمامهُ فعلًا ولم يؤتَ بالفتاة الى خطيبها بل لم تخرج من حجلتها في قصر ابيها لان الحرب انتشبت بعد قليل بين العثمانيين والروم وجلبت بعد سنتين موت قسطنطين وانقراض سلطنة الروم



الفصل الثاني

في احوال الكنيسة القسطنطينية قبل الحصار

١ موت مرقص الافسسي وذكر بعض احواله كما رواها مطران الروم في موتون . ــ ٢ سعي قسطنطين وكبراء امة الروم على توطيد الاتحاد ونشره على رؤوس الملاِ في كنيسة اجيا صوفيا . ــ ٣ هيجان السفلة واصحاب الثورة

١

على ان الحملة الاولى لم توجه ضد المسيحيين رأساً بل سُيرت الى ابرهيم بك امير قرمانية (المعروفة قديماً بقيليقية) الذي كان وان مسلماً يؤيد المسيحيين ويحميهم في ايام السلطان مراد الا انهُ انخلع قلبهُ هذه المرَّة خوفاً فاجاب السلطان محمد الى الصلح مسلماً بكل ما فرض عليهِ من الشرائط . ولما كان السلطان محمد في دار هذا الامير صادف بعض المسيحيين اعداء قسطنطين فاخذوا يطعنون على ملكهم ويفترون عليهِ امام محمد ويقنعونهُ بانهُ لهُ عدوٌّ الدّ وانهُ مختلس الملك ادعاء ان اخاه ديمتريوس احقّ منهُ بالخلافة ثم التمسوا من السلطان ان يامر فتسير فرقة من جنوده لاعانة ديمتريوس في مناوشات طفيفة نشأت في شبه جزيرة المورة

وبينما كان ديمتريوس رئيس حزب المشاقين يستعين بالعثمانيين لمحاربة امتهِ كان قسطنطين يستفرغ جهده في توطيد الاتحاد بين الكنيستين وتعميمهِ في كل انحاء السلطنة فارسل الى البابا نيقولاوس الخامس خليفة اوجانيوس الرابع يجدد ويشدد معهُ وثاقات الاتحاد المقدس ويلتمس منهُ ان يرسل لهُ بعض العلماء اللاهوتيين ليساعدوه على قطع دابر الشقاق واكمال عمل الاتحاد وطلب منهُ ايضاً ما وعده بهِ من الاعانة المادية للدفاع عن بلاده التي امست هدفاً للغارات ومطمحاً للفاتحين

وفي هذه الغضون مات مرقص مطران افسس الذي كان إمام المضادين الاتحاد وقد سبقت الاشارة الى تضارب آراء المؤرخين في حقيقة سنة وفاتهِ اذ لم يوقف لها على نصّ صريح في كتبهم اما كيفيــة موتهِ فمعروفة مشهورة وقد كتبها معاصره المطران يوسف اسقف موتون الذي قابلهــا بضدها اي ميتة البطريرك القسطنطيني يوسف الصالحة وهاك ترجمة نص هذا المؤرخ عن اليونانية :

« ان البطريرك يوسف كان يشتهي اتحاد الكنيسة المقدس لا خوفـاً من التهديدات ولا حرصاً على المجد والكرامة ولا رغبــة في الرجوع سريعاً الى القسطنطينية لكن لتنظر عيناه ما اشتهى كثيرون من البطاركة ان يروه ولم يروا فقرّت عينهُ بمشاهدة سلام الكنيسة واتحاد اعضاء جسم الرب معــاً فابتهجت بذلك نفسهُ ووقَّع بتقوى الله اتحــاد الكنيسة معترفاً بانبثاق الروح القدس من الآب والابن وبمطهر النفوس وبأن اسقف رومية هو رأس الكنيسة وبعد اذ فعل هذا جثا علي قدميهِ وتلا صلواتهِ ورفع يديهِ نحو السماء وشكر الله وهكذا اسلم نفسهُ البارّة

« امــا انت (يا مرقص) الذي يشتم البطريرك يوسف وكل اكليروس الروم الذين كانوا معهُ (في فلورنسة) فلم تنل آخرة مثلهُ بل بالعكس قد تقيأت من فمك برازك حين فاضت روحك والحاضرة باسرها على ذلك شاهدة. فهكذا يعرف العدل الالهي كيف يعامل كلاً بحسب عملهِ وايمانهِ. فكما عوقب اريوس سابقًا بان دفع احشاءه من الاسفل هكذا انت قذفت برازك من فيك »

ويحسن بنا هنا ان نورد شيئاً مما كتبهُ هذا المؤرخ اي المطران يوسف اسقف موتون الرومي عن احوال الدين والكنيسة في تلك الايام الاخيرة قال :

« ان مرقص الافسسي بعــد ان رجع من المجمع عوضاً عن ان يهتم بالبحث والتنقيب ومطالعة كتب الآباء القديسين كما ادّعى لبناء السذّج والبسطاء لم يتشاغل الا بنسج اوهام باطلة وابرام دسائس مضرّة ليصد المؤمنين عن الكنيسة ويجذبهم الى

شقاقهِ لكن المؤمنين رغماً عن هذه الحيل والدسائس قد حفظوا الاتحاد وسيحفظونهُ دائماً ويهجرون مرقص متصلباً في شقائهِ »

وقال ايضاً هذا المؤرخ الفاضل : « لما كان الآباء في المجمع يأتون بشهادات الاباء القديسين الشرقيين الاعظمين اشتهاراً ويؤيدون جانب الحق والاتحاد كان مطران افسس يدَّعي بان هذه النصوص مزيفة ولما طُلب منهُ ان ياتي بالكتب الصحيحة الخالية من التزييف وفتش كتبهُ ورآها مطابقة للنصوص المذكورة اعلن بان كتبهُ نفسها كانت مزيفة مفسدة ولا توجد نسخ حقيقية لم يعتورها الفساد والزيف الا في القسطنطينية حتى صار ضحكة عند كل اهل المجمع »

وروى اسقف موتون نفسهُ انهُ « في الجلسة العشرين المعقودة في مجمع فلورنسة أُتي بنص من القديس باسيليوس مثبتاً انبثاق الروح القدس من الاب والابن . فاحتجَّ مرقص بان هذا النص زائد وليس لهُ اصل في الكتب اليونانية القديمة وهو قادر على الاتيان بكتاب عنده قديم فيهِ هذا النص فطلب منهُ إحضاره على الفور فدعا شماساً وامره بالاتيان بهِ بعد ان اسرَّ في اذنهِ ان يقطع الورقة التي فيها هذا النص فهرع الشماس وفتش سريعاً عن النص ولما عثر عليهِ وضع الكتاب على النافذة والتفت ليأخذ مدية ويقطع تلك الورقة لكن بتدبير رباني هبت الريح فقلبت الاوراق فلم يأبه الشماس بل قطع ورقةً اخرى وعاد حالاً حاملاً الكتاب بفرح الى سيدهِ مرقص الذي قدمهُ على الاثر لارباب المجمع فاخذوه وفتشوا عن النص المذكور فوجدوه مطابقاً كل المطابقة للذي جاؤُوا بهِ فالتفت مرقص الى الشماس شزراً وقد تميَّز غضباً فقال لهُ الشماس بسذاجة وبصوت مسموع من جميع آباء الروم اني قسماً ببركتك ايها الاب الجزيل الاحترام قد قطعت من الكتاب هذه الورقة الملعونة لكن يظهر ان الشيطان ارجعها والصقها ثانيةً »

وكانت غيرة الملك قسطنطين على توطيد الاتحاد بين المؤمنين تتقوى وتتشدد

عما نشره اسقف موتون هذا وبما كتبهُ ايضاً بطريرك القسطنطينيـة غريغوريوس البروتوسنجلس الذي خلف البطريرك مطروفانس

٢

فيظهر من ثم ان لا صحة لما عزاه بعض المؤرخين اللاتين والروم من الاهمية الزائدة لمرقص مطران افسس بقولهم انهُ من بعد رجوعه من المجمع الفلورنسي قد نقض عهد الاتحاد وجذب الروم الى الشقاق. ويرد ذلك بما راينا من ان مرقص بعد ان طعن على المجمع وكتب ضده لم يلبث ان مات بُعيد وفاة الملك يوحنا بل ذهب البعض كما اشرنا انفاً الى انهُ مات قبلهُ فغاية ما امكن ان تصل اليهِ فتنتهُ ازعاج الافكار وبلبلة الضمائر موقتاً ليس الَّا. دون ان يحصل على نتيجة رغبتـه في رد الناس الى الشقاق فان الرواة الثقات ينبئونا بان اشرف رجال الروم واغزرهم علماً وافضلهم سيرة قد استنفدوا الوسع في توثيق عرى الاتحاد واجراء اوامر المجمع المقدس ودافعوا بشهامة ضد خصومهم باللسان والقلم كالبطريرك مطروفانس بسلوكهِ وتعليمهِ والمطران يوسف اسقف موتون والبطريرك القسطنطيني غريغوريوس البروتوسنجلس (الذي حضر المجمع) بتآليفهما المشهورة وهؤلاء الفضلاء نشطوا الملك قسطنطـين ليسأل البابا نقولاوس الخامس ان يرسل الى القسطنطينية رجالاً علماء واتقياء يشتغلون في قطع دابر الشقاق وتوطيد الاتحـاد والوفاق فاوفد البابا الكردينال اليوناني ايسدورس مطران كياف الى القسطنطينية وطنهِ حيث اشتهر منذ صبوتهِ باعمالهِ التقوية الجليلة ايَّام خدمتهِ الكهنوتية وبحميد مزاياه وسمو عقلهِ وسعة معارفهِ ولا سيما تضلعهِ من العلوم اللاهوتية

فبلغ الكردينال ايسيدورس الى القسطنطينية في شهر تشرين الاول سنة ١٥٥٢ فرّحب بهِ الملك واكرم مثواه وبعد عقد عدة محافل لاهوتية حضرها كثيرون من مشاهير العلماء ضرب الملك موعداً لاشهار الاتحاد العام احتفالياً في الكنيسة الكبرى فلما كان اليوم المعهود ذهب الى القسطنطينية محفوفاً برجال الدولة واعيان المدينـة وكبراء آل

الكهنوت الى كنيسة آجيا صوفيا واحتفل بابهة عظيمة بالقداس الالهي حيث دُعي اولاً للبابا بالنظر الى انهُ رئيس الكنيسة العامة ثم للبطريرك القسطنطيني جرجس مليسين خليفة غريغوريوس وكان اكبر المحامين عن الاتحاد المقدس فهذا هو العمل العظيم الذي اتاه قسطنطين قبل ان أسعر العثمانيون الحرب التي جرَّت عليهِ وعلى المملكة بعدسنة الويل والثبور

٣

ومن العجب العجاب ان عامة المؤرخين الغربيين يشيرون الى ان الروم في هذه السنة نفسها قد انشقوا عن الكنيسة واضرموا ثورة عظيمة ضد الاتحاد على انَّا نرى هؤلاء المؤرخين في غلط مبين لانهم عوضاً عن ان يتخذوا الملك قسطنطين واكابر الملّة ومتقدميها منهاجاً يقيسون عليهِ حال سائر الامة قد نسبوا للامة كلها فعل بعض السفلة الطغام الذين اثاروا في المدينة بلبالاً كعوائدهم في سائر البلاد واليك الخبر مفصلاً :

كان في احد اديرة القسطنطينية راهب مسموع الكلمة عند الشعب اسمهُ جناديوس فذهب اليهِ قوم وسألوه عن رأيه في العمل العظيم الذي جاءه قسطنطين لتوطيد الاتحاد ونشر اعمال مجمع فلورنسة المقدس فلم ينبس جناديوس ببنت شفة بهذا الشأن بل اسفر عن انقباضٍ وتقطيب وجه ولم يبدِ رأيه لاحدٍ ولا للرهبان الذين في ديره بل كتب رقعة صوّب فيها سهام الطعن واللوم على هذا الاتحاد وعلقها على باب الدير ورجع فاختلى في قلايتهِ

وكتب هذه الرقعة على نمط النبوءة ونسق الكتاب المقدس مقرّعاً ابناء وطنهِ الروم لانهم علقوا آمالهم على اسعافات البشر اي اللاتين ولم يلتمسوها من الرب القادر على كل شيء . وانهم تركوا تقليدات آبائهم لينحازوا الى اوهام تعليم مشؤوم تركوا

ينبوع الماء الحي واحتفروا لنفوسهم آبارًا مشققة وما شاكل ذلك من العبارات المزخرفة المنتحلة من اقوال الانبياء

فلدن قراءة هذه الرقعة جاشت في قلوب الجهلة والسذّج شعائر الشقاق واضرمت فيهم نار الفتنة وخرجوا من الدير يطوفون في الشوارع ويقذفون المطاعن على المجمع والاتحاد وبعد تجولهم في اكثر احياء الحاضرة دخلوا نوادي المسكرات وشربوا على ذكر البتول وكان بعضهم يستغيث بها لتنجي المدينة من محمد والبابا وفي هذه الاونة قيلت تلك العبارة المشهورة التي تناقلها المؤرخون وهي انهم يؤثرون صورة الهلال على صورة تاج البابا فلا ريب في ان هذه العبارة قد قيلت حقيقة ولكن قد غلط المؤرخون في نسبتها الى شعب الروم عمومًا فهي ليست على الصحيح الا قول اهل الثورة الذين من رعاع الشعب وسفلتهم وبرهان ذلك واضحٌ جليًّا من ان هذه الثورة انما طرأت ضدًّا لرغائب الملك واكابر الشعب وعظماء المدينة في حين كانوا عاقدين ذلك الاحتفال الباهر في الكنيسة الكبرى لتأييد الاتحاد بين كنيستي الغرب والشرق فيكون عمل غوغاء الشعب واهل الثورة حقيرًا لا عبرة فيهِ



الفصل الثالث

استعداد السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية

١ بناؤه قلعة ليموكوبيا في اناطولي حصار. ــ ٢ اعتراض قسطنطين على بنائها وتهديد السلطان لسفراء الروم. ــ ٣ وصف القلعة وضرب السلطان رسماً على جميع المراكب المارة بازائها. ــ ٤ اتيان المجري اربين الشهير عند السلطان لصب المدافع وصبه له عدة مدافع كبيرة وصغيرة. ــ ٥ قطع السلطان كل امداد عن القسطنطينية براً وبحراً

١

فلما عاد السلطان محمد من قرمانية شرع يستعدّ لفتح القسطنطينية وتحقيق قول اهل الثورة الذين كانوا يؤثرون الخضوع لهُ على الاتحاد مع بابا رومية فطفق يجهز المعدّات اللازمة ويصنع العدد الوافرة واول عمل اتاهُ انهُ بنى حصناً حصيناً على مضيق البسفور من جانب اوربا واسمهُ بالتركية روملي حصار بازاء القلعة العظيمة التي كان جدّهُ قد بناها واسمها اناطولي حصار وقد رغب في ذلك ان يكون مسلّطاً على البوغاز من جانبيهِ فيسدّه مانعاً عن القسطنطينية كل اغاثةٍ او نجدةٍ تأتيها من البحر الاسود او من بحر الروم

فامر السلطان كل رعاياهُ بان يرسلوا لهُ فعلةً ويبعثوا بالعدد اللازمة لبناء هذه القلعة وتحصينها وجاء هو بنفسه الى المكان المعهود تنشيطاً للفعلة على الإقدام والتعجيل في العمل وكان اسم ذلك الموضع ليموكوبيا ويبعد عن غلطة بعض كيلومترات وكان فيهِ كنيسة قديمة على اسم رئيس الملائكة ميخائيل فهدمت واتخذت حجارتها لبناء القلعة . فلما وصل السلطان ابدى العملة نشاطاً غريباً وقد اخذت منهم الحمّية ايَّ ماخذٍ حتى حذا حذوهم بعض الباشوات انفسهم فجعلوا يخلعون ثيابهم الموشّاة بالذهب ويحفرون التراب وينقلون الحجارة وما اشبه

٢

لكن ما عتَّم ان وفد على السلطان رسل قسطنطين ينكرون عليهِ هذا العمل وقالوا لهُ ان بناءَهُ قلعة قريبةً جدًّا الى القسطنطينية مما يخلُّ بالعهود السلمية ويُخشى منهُ إثارة حرب جديدة فرحَّب السلطـان اولاً بالرسل وكلمهم ببشاشة وقال : من العجب ان ليس لي حتى الان موقعٌ حصين يصل اوربا بآسيا. وان بناء هذه القلعة ليس من شأنهِ ان يكدّر قسطنطين بل بالعكس يجب ان يفرحهُ لاني باقترابي من القسطنطينية استطيع ان اغيثهُ واعينهُ على قرصان البحر من اهل رودس واسبانيا والبندقية الذين يغيرون على متاجر الروم ومتاجرنا . فلم تنل هذه الاعتذارات قبولاً في عيون سفراء قسطنطين فطلبوا منهُ ان يكفَّ عن البناء بل ان يهدم ما بُني من القلعة فتميَّز السلطان من الغيظ ونظر اليهم شزرًا وقال « أليس لكلٍّ ان يبني في ارضهِ ما شاءَ وهل في الارض احدٌ اقوى واعظم مني يمنعني عن هـذا الحق » ثمَّ أمرهم ان يخرجوا من وجههِ وينذروا الملك قسطنطين بانهُ ان ارسل سفراءَ آخرين ذبحهم لا محالة

فلما بلغ قسطنطين هذا الجواب اغتاظ غيظًا شديدًا وعزم ان يجمع عساكره ويهجم بهم على السلطان ورجالهِ. الَّا ان كبراء الدولة اشاروا عليهِ بان لا يغضب السلطان ويقتحم هذا الخطر فرضخ قسطنطين لهذا الرأي واستمسك باللطف والمجاملة وتراءَى انهُ صدَّق اقوال السلطان وغاياتهِ السلميَّة الظاهرة خوفًا من ان ينقضّ وعمَّالهُ على الحقول فينهبوها ويحرقوها ويقتلوا اهلها ولذلك ارسل لجنوده وعملتهِ اسعافاتٍ ماديّة وللسلطان نفسهِ مشروبات مرطبة ثم بعث اليهِ يطلب منهُ ان يحمي زروع وغلال الزرَّاع الروم الذين في الحقول المجاورة

فتظاهر السلطان بالخلاف لانهُ ارسل عساكره الى الحقول وامرهم ان يرعوا خيلهم وبغالهم في الزروع وان يقتلوا من يمنعهم عنها من الروم وبينما كان قسطنطين في قصره رأى سكان الحقول تائهين خارج بيوتهم وقد تأثرهم العثمانيون ليقتلوهم وتمكنوا من ذبح

عديدين منهم فلم يتمالك صبراً بل امر بقفل جميع ابواب القسطنطينية وحبس من كان فيها من رجال العثمانيين لقضاء بعض مآرب خصوصية وكان بينهم بعض الشبان الاعزاء الى السلطان والقائمين في بلاطهِ فطلبوا اطلاق سبيلهم وإلَّا قتلوا نفوسهم شرَّ قتلةٍ فرقَّ لهم قسطنطين وافرج عنهم ثم اطلق الباقين بعد ثلاثة ايام

ولم يكفَّ السلطان عن ابتناء القلعة بل شدَّد في ترويج الاعمال باسرع ما يستطاع وروى محمد حسن خوجه افندي المؤرّخ التركي ان البنَّائين كانوا حينئذٍ خمسة آلاف وتحت يد كلٍّ منهم رجلان يعاونانهِ وقد فرض عليهِ ان يبني في اليوم مع صاحبيهِ ذراعين كاملين

٣

وكانت هذه القلعة الشاهقة مثلّثة الزوايا وعند كل زاويةٍ برج حصين فكان من جانب البر برجان ومن جانب البحر برج واحد وكانت جدرانها متينة سمك كلٍّ منها ٣٢ قدماً اما جدران سائر القلعة فكان سمكها ٢٥ قدماً . وكان ظاهر القلعة كلها مغشىًّ بصفائح سميكة من الرصاص لصدم قنابل المدافع بحيث كان السلطان يستعمل منذ اربعمائة سنة ونيّف ما يظنهُ المتأخرون ابتداعاً حديثاً من تصفيح المراكب الحربية وتدريع الحصون فانهُ بتصفيح قلعتهِ الباذخة جعلها شبيهة بالبوارج المدرَّعات المخترعات في ايَّامنا هذه

وقد انتهى بناء هذه القلعة في شهر آب عام ١٤٥٢اي بعد اربعة اشهر كاملة فاقام فيها السلطان حاميةً من اربعمائة جندي وولى عليهم مقدَّماً اسمهُ فروس آغا وأمرهُ بان يجبر جميع المراكب الجارية الى البحر الاسود او منهُ ان تأتي وترسو في اسفل القلعة وتحييها بخفض راتها وتدفع ضريبة معلومةً قد عيَّن هو نفسهُ مقدارها . ورغبةً في اجراء هذه الرسوم وضع على البرج الذي من جانب البحر مدافع نحاسيَّة ضخمة في كل جهاتهِ

واول مركب مرَّ ولم يشأ ان يخضع لهذه الرسوم كان مركباً بندقياً اسم ربانهِ رتسي فلما وصل الى اسفل القلعة جرى في البحر سريعاً الان مدفعاً رشقهُ بكلّة ثقلها ستمائة لبرة فغرَّقتهُ اما ربَّانهُ فنجا من الغرق هو وثلثون من اصحابهِ راكبين زورقاً صغيراً لكن لما بلغوا الى اليابسة قبض عليهم العثمانيون وارسلوهم الى السلطان الذي كان حينئذٍ في مدينة ديديموتيك فأمر بهم فعلّق ربَّانهم رتسي على العود (الخازوق) ونقفت رؤوس الباقين وحتم بان تبقى جثثهم بلا دفن لتكون مأكلاً لطير السماء . كما أخبر المؤرخ اليوناني دوكا الشهير الذي كان يومئذٍ في بلاط السلطان رسولاً موفداً من امير لسبوس

وفي هذه الغضون كان رجال السلطان يخرجون الى الحقول ويغزونها سالبين ما وقع لهم من الاموال والناس حتى يصلوا الى اسوار القسطنطينية . فارسل قسطنطين يشكو الامر الى السلطان فاجاب بانهُ لم يكن ليرضى عن مثل هذه التعديات ولهذا أمر فأُرجع المسبيّ كلهُ الى اصحابهِ وقصد بذلك تسكين الخواطر وابقاء الراحة مستتبّةً في البلاد ريثما ينجز معداتهِ ليحمل مرةً واحدة على القسطنطينية

٤

وبلغ السلطان ان في القسطنطينية رجلاً مجريًّا اسمهُ أربين كان يتعاطى صبَّ المدافع وهو ماهرٌ في حرفتهِ هذه بل فريد عصره فيها لم يسبقهُ فيها احدٌ من قبل ولم يجارهِ فيها مجارٍ في ايامهِ وكان يعمل عند قسطنطين الملك لكنهُ لم يكن يدفع لهُ اجرةً وافية فجاء الى السلطان وبذل نفسهُ في سبيل خدمتهِ فرحَّب بهِ واكرم مثواهُ واقترح عليهِ امتحاناً لمهارتهِ ان يصبَّ لهُ مدفعاً لم يصبَّ اكبر منهُ حتى ذلك اليوم . فقال لهُ المجريُّ ساصنع لك آلات مدفع جديدة تكون قادرة ان تدفع حجراً ضخماً ان اصاب اسوار القسطنطينية جعلها هباً منثوراً . ثم خرج من عندهِ وشرع في العمل واستمر ثلثة اشهر لعمل القالب لصب نحاس المدفع

وروى المؤرخ فرنترس ان قطر هـذا القالب كان ثلاث اقدام ومحيطهُ تسع اقدام ولما تمَّ صب هذا المدفع المهول استعظمهُ الناس جداً حتى لقبوهُ بالسلطاني" ولما اراد السلطان امتحانهُ في مدينة ادرنه التي صُبَّ فيها انذر جميع السكان بان لا يرتاعوا اذا أُطلق لان صوتهُ كان اقوى من قصيف الرعد والكلّة التي اطلقها كان وزنها ١٢٠٠ لبرة حسب شهادة ليونردس مطران ميتلين الذي كان حاضراً في حصار القسطنطينية وروى بعض المؤرخين ان ثقلها كان ١٨٠٠ لبرة وكانت من الصوّان الاسود الصلب المستخرج من البحر الاسود

وبعد ان شهد السلطان امتحان هذا المدفع السلطاني الغريب امر بصب غيرهِ اصغر منهُ وذهب الى قلعة ليموكوبيا (روملي حصار) واخذ يصل الليل بالنهار صحبة كثيرين من المهندسين الحربيين ليقف على اقرب الحيل واقوى الوسائل التي تمكنهُ من اخذ القسطنطينية. وكثيراً ما كان يبتكر هـذه الذرائع ويعرضها على المهندسين حتى بهتوا من حذاقتهِ واصابة بصيرتهِ فقد رسم صورة القسطنطينية . واخذ يبحث عن انجع الذرائع واسهل الجهات لفتحها فعيَّن المحل الموافق لوضع المدافع والمكان المناسب من السور لخرقهِ وهدمهِ بكلل المدافع والجهات التي يحسن حفرها وملؤُها باروداً تحت السور لتدميرهِ ثم كان تارةً يمرِّن الجنود في ساحة الوغى على مرأًى منهُ وطوراً يمتحن كل المدافع التي صُبَّت حديثاً . واخيراً اهتمَّ بنقل المدفع السلطاني الاكبر الذي عُوني في جرّهِ مشاقٌّ باهظة. واختلف المؤرخون في عدد الثيران التي استخدمت لجرهِ فقال بعضهم اقتضي لتحريكهِ خمسون زوجاً منها وبعضهم ستون زوجاً وذهب آخرون الى انهُ لزم لجرهِ مائة وخمسون زوجاً من الثيران . ولما جُرَّ هذا المدفع سار معهُ الف رجل منهم مائتان سبقوهُ لتمهيد الطريق ومائةٌ وخمسون نجاراً رافقوه لاصلاح آلات الجر وبناء الجسورة وما شاكل ذلك وعدد كبير منهم مشوا من عن جانبيهِ ليبقوهُ متوازن الثقل بشدّهِ بالحبال من الجانبين

٥

وبعد ان هيأ السلطان المعدَّات والتجهيزات اللازمة للحرب اجتهد في ان يقطع عن القسطنطينية كل امدادٍ يأتيها من الخارج ولا سيا من قبل شقيقي قسطنطين الاميرين ديمتريوس وتوما. فسيَّر ضدهما طرخان سنجق والي ثسالية ومكدونية فاجتاح مع ولديهِ احمد وعمر شبه جزيرة المورة التي كانت باقيةً بيد الروم وعبر السور الذي كان على جرف الخراب وجعل يدمّر كل ما صادف في سبيلهِ مبتدئًا من اقليم اركادية وقد نابتهُ في المواقع بعض الخسائر وانكسر مرارًا بازاء جنود الاميرين حتى ان احمد ابنهُ البكر وقع اسيرًا في يد الروم وأُرسل مقيدًا الى سبرتة الا انهُ لم يرتدَّ مع رجالهِ عن الحرب والتدمير ولو تحملوا اكبر الخسائرِ قيامًا برغائب السلطان الذي لم ينوِ حينئذٍ فتح تلك البلاد بل رام إلهاء الاميرين بهذه المناوشات كيلا يتمكنا من إمداد اخيهما قسطنطين حين حصار الحاضرة



الفصل الرابع

زحفة السلطان محمد الثاني على القسطنطينية

١ استنجاد القيصر قسطنطين ببلاد الغرب دون جدوى ــ ٢ ــ مسير السلطان بخيله ورجلهِ على المدينة ــ ٣ ــ وصف القسطنطينية قبل الحصار وتحصيناتها ــ ٤ ــ مضايقة العثمانيين للمدينة برًّا وبحرًا ــ ٥ ــ اسماء الذين اشتهروا في الدفاع عن الروم ايام الحصار ــ ٦ ــ اضطرام نار الحرب

١

لما انذرت الاحوال بالخطر العظيم المحدق بسلطنـــة الروم ارسل قسطنطين يستنجد ببلاد المغرب لكن بلا جدوى وكان يعلّق على ملك فرنسا كرلس السابع آمالاً كبيرة متذكرًا بان ملوك الفرنسيس قد ارسلوا في ايام آبائهِ قوّادًا باسلين وابطالاً ذوي بأس للدفاع عن القسطنطينية منهم يعقوب دي لا مَرْش حفيــد القديس لويس الملك الذي وافى القسطنطينية مصحوبًا بالاميرال بونيفاس دي كستلن في عهد الملك اندرونيكس باليولوغ نحو سنة ١٣٣٥ ولما بلغاها كانت محاصرةً من العثمانيين تحت امارة أرخان فضربا عمارة المحاصرين واكرهاهم على رفع الحصار عن المدينة . ثم بعد ثمانين سنةً وفد المرشال بوسيكو صحبة الوف من الفرسان المتطوعة وزحف بهم على السلطان بايزيد الذي كان محاصرًا القسطنطينية وكاد يفتحها فردُّوهُ عنها وخلصوا المدينة . وكان في ايام قسطنطين بعض الشيوخ الذين شهدوا بسالة هــذا المرشال الفرنسي وانتصاراته فاخبروا انهم لم يبرح من بالهم الاحتفال العظيم الذي أُجري لهُ عند ما اهدى اليهِ الامبراطور مانويل باليولوغ سيفًا مرصعًا ومنحهُ اعظم الالقاب العسكرية في مملكة الروم

وقد ذكرنا في اوائل القسم الاول من هــذا الكتاب ان ملك الروم مانويل أبا الملكين يوحنا وقسطنطين ذهب مع بوسيكو الى بلاط كرلس السادس ملك فرنسا وقوبل بمزيد التجلّة والاكرام لكن بعد ان رجع الى القسطنطينية أحدقت بفرنسا اعظم

المصائب وتزلت بهـــا النكبات والنوائب كما هو مشهور في تاريخها لان الملك كرلس السادس لما دخل على عقلهِ اختلال ولم يستطع القبض على زمام الملك اغتنمت الفرصة امرأتهُ ايزابلاَّ الالمانية المحتد وباعت مملكة فرنسا للانكليز بخيانةٍ فظيعة حتى ان كرلس السابع لما جلس على تخت المملكة لم يكن في ملكهِ الا مدينة او مدينتان فقط فاخذ يفتح سائر مملكتهِ بلداً بلداً بالحرب بمساعدة تلك الفتاة الفاضلة حنة دَرك الملقبة بعذراء أرليان الشهيرة

فلما وقعت القسطنطينية في مضايقها الاخيرة لم يكن كرلس السابع ليقوى على ارسال نجدة تخلصها لارتباكهِ في تدبير شؤون مملكته الداخلية بعد طرد الانكليز منها ولهذا لم يكن من الفرنسيس في الدفاع الاخير عن القسطنطينية الا عدد يسير من الفرسان انتظموا بين متطوعي العساكر البابوية

وكان جالساً حينئذٍ على عرش بطرس البابا نقولاوس الخامس الذي كان من اشد المحامين عن الروم واعظم المساعدين على تخليصهم من الاعداء فجهز في مدينة انكونة التي تحت ولايتهِ عدة مراكب حربية وارسل الى دوق البندقية ودوق جنوا يحثهما على التسالم والاتفاق بينهما والاتحاد مع سفنهِ للمسير جميعاً الى مياه القسطنطينية والدفاع عنها انقاذاً للروم

وسنأتي على ذكر ما اتتهُ هـــذه النجدة البابوية متحدة مع البنادقة والجنويين وكيف اقتحمت الاخطار ودخلت مضيق القسطنطينية وهالت العثمانيين بشجاعتها الغريبة ومحاماتها عن الروم

٢

ففي اوائل شباط عام ١٢٥٣ زحف السلطان محمد بجميع جيشهِ برّاً حتى عسكر تجاه القسطنطينية وكان قد ارسل احد قواده المسمى كرازي باشا فنهب القرى والدساكر التي حول الحاضرة واحتل جميع ارباضها حتى اصبحت المدينة خاليةً من كل امداد

من جانب البرّ. وقد تضاربت آراء مؤرخي الروم المعاصرين في عدد الجيوش العثمانية فذهب ميخائيل دوكا الى انهم كانوا ٢٥٠ الفاً وقال خلكنديل ثلثمائة الف وروى فرنتزيس اربعمائة الف

وسار السلطان في طليعة الجيش متشحاً بكل شعائر عظمتهِ فكان قابضاً بيده على الرمح الحديدي الذي كان عنوان السلطة عند سلاطين آل عثمان ولم يحملهُ احد قبل السلطان محمد الفاتح منذ موت السلطان بايزيد . وهذا الرمح لم يكن كلهُ من حديد بل كان من خشب مصفح بالحديد كما ذلك معروف من رمح بايزيد الذي لم يزل مخبوءاً في المغارة التي تحت جامع بروسة الاكبر

وكان السلطان محفوفاً بموكب غايةٍ في الأبَّهة وقد احاط بهِ مائة من الدراويش إحاطة السوار بالمعصم يتقدمهم زعيمهم الاكبر الشيخ حسام الدين الذي كان يحضُّ الجنود على الاقدام ويتنبأُ لهم بسقوط القسطنطينية بين ايديهم وقضى الجيش على الطريق بين ادرنه والقسطنطينية مدة طويلة بسبب نقل المدافع ولا سيما المدفع السلطاني الكبير فوصل السلطان الى ابواب الحاضرة في سادس نيسان عام ١٤٥٣ وامر بان يضرب خباؤُهُ السلطاني وراء التل الموازي الباب المدعو كاليفاريا وعسكرت جنودهُ حول السور مما يجاور كنيسة ڤلاشرناس الى الباب المذهَّب على مسافة فرسخين

٣

ولا ريب في ما تتوق اليهِ انفس القراء من معرفة موقع القسطنطينية في تلك السنة لتتبع حوادث الحصار في مواضعها وكنا نودّ لو استطعنا ان نمثلهُ لهم كما رسمهُ السلطان محمد هو نفسهُ بيده لكن حال دون المرام فقدُ هذا الاثر الجليل فنصفهُ كما وصفهُ المؤرخون المعاصرون فنقول :

كان سور القسطنطينية في ايام الحصار على شكل مثلّث الزوايا طرفان منهُ داخلان في البحر والطرف الثالث وهو الغربي من جهة اليابسة اما الزاوية التي من

جانب الشمال فهي داخلة في مياه قرن الذهب وهو خليج يفصل القسطنطينية عن غلطة احد ارباضها وهذا الخليج يعدُّ من اجمل وآمن مرافئ الدنيا اما الزاوية التي من الشرق فمتوغلة في بحر مرمرا وكانوا يدعون هذا المرفأ بالخارجي مقابلةً لمرفإ قرن الذهب الداخلي . وكان السور من جهة البحر ذا جدارٍ واحد . اما من جهة اليابسة فكان ذا جدارين الخارج اقل ارتفاعاً من الداخل وكان حول الحائط الخارجي خندق واسع عمقاً وعرضاً مبني بالحجارة الصلبة وكان على طول الجدارين بين مسافة ومسافةٍ برج شاهق وعلى كل من الابواب قلعة حصينة وكان على رأس كل زاوية من السور برج عظيم اكبر من القلعة . واقوى واعظم واهم هذه الابراج كان برج اكروبوليس المبني على الزاوية الشرقية المعروفة بالقديس ديمتريوس واسمها اليوم رأس السراي ثم البرج المبني على رأس الزاوية التي بين المرفإ واليابسة واسمهُ الآن قلعة الخمسة الابراج ثم المبني على الزاوية الثالثة التي من جهة اليابسة وكان اسمهُ قلعة سيكلوبيون وفي محلّهِ يرى اليوم قلعة السبعة الابراج التي بناها السلطان محمد الفاتح . وقد اجمع اكثر المؤرخين على ان محيط سور القسطنطينية يومئذٍ كان اربعة فراسخ

هذه هي هيئة القسطنطينية قبل الحصار الا ان تحصيناتها لم تكن مجهزة كالواجب لان اثنين من الموكول اليهم تحصين الاستحكامات واصلاح ما فيها من الخلل كانا قد هربا ناهبين اموالاً جزيلة ولم يصلحا شيئاً ولكن لما دنا الخطر اهتم ارباب الامر بتجهيز الحصون وتعزيز الاستحكامات وترميم الخراب وكان اشد الناس اشتغالاً باصلاح هذه الشؤون الكردينال ايسيدورس اليوناني سفير البابا الذي بذل جهده في المحاماة عن وطنهِ وأَصلح من نفقتهِ الخاصة ابراج انياس حيث سُجن يوحنا باليولوغ الاول أَسيرًا وقد استفرغ همته في تشجيع الشعب وحضهم على الدفاع لان قلوبهم كانت قد انخلعت خوفاً وقد اخذ منهم الهلع كل مأْخذ لاشاعة بعض نبوءات كاذبة بعضها كان ينذر بسقوط القسطنطينية مهما بُذل من الوسائل لتخليصها . وبعضها كان

منسوبًا الى الملك لاون الفيلسوف ومفاده ان قد دنا اجل انقراض سلطنة الروم وبعضها كان مستندًا الى ورقة شاع انها قد هبطت من السماء فيها كتب انهُ يجب ان يؤذن للعثمانيين بالدخول الى القسطنطينية حتى عمود الملك يستنيانس لان ملك الرب ينزل اليهم حينئذٍ وما اشبه

وما قصدنا في ذكر هذه الاشاعات والنبوءات الكاذبة الا دليلًا على اضطراب قلوب الامة باسرها وتفويضها الدفاع الى العسكر وحدهُ وتبيانًا للهمَّة العظيمة التي بذلها الملك قسطنطين والكردينال ايسيدورس لاضرام نار الحميَّة في افئدة الشعب واغرائهِ على الدفاع بشجاعة وبسالةٍ ورجاء

٤

وبعد ان وصل السلطان وعسكر حول العاصمة اضحت القسطنطينية مكتنفة من كل الجهات البرّيَّة والبحريَّة فكان للعثمانيين عمارتان منتشرتان في كل بحر مرمرا اما من جهة البر فكانت جنود السلطان محدقةً بالمدينة على مسافة ستة آلاف قدم . فعسكرت الجيوش الوافدة من اسيا من الجانب الايمن حتى باب الذهب وبحر مرمرا اما الجيوش الاوربية فعسكرت من الجانب الايسر حتى باب ڤلاشرناس والمرفإ الداخلي (قرن الذهب) . ثم ارسل السلطان محمد زاغان باشا احد ذوي اقرباهُ الى البلاد التي في شمالي قرن الذهب لمحاربة الجنويين المتسلطين على غلطه منذ امدٍ مديد ومنعهم عن اغاثة الروم

فامست المدينة مضايقةً من كل الجهات الا من جانب (قرن الذهب) لان الاهلين لما احسوا بقدوم السفن العثمانية نصبوا الزنجير الحديدي الغليظ فمنعوا كل مركب غريب من الدخول وكان طرفهُ في قلعة اكروبوليس في القسطنطينية وطرفهُ الاخر في احد ابراج غلطة المسمى فرويرون . وكان هذا الزنجير مستندًا الى عمدٍ خشبية ضخمة مركوزة في عمق البحر وكان من ورائهِ من الجانب الداخلي عدة مراكب

حربية تحميه فلا يستطيع مركب غريب ان يتعدَّاه . واستعمال وضع الزنجير الحديدي لسدّ المرفإ قديم جداً يمتد الى ايام قيصر الروم ساڤاريوس قبل ان بنى قسطنطين في بزنطية مدينتهُ الشهيرة كما روى المؤرخ كسيفلينوس في ذكره حصار بزنطية في عهد الملك ساڤاريوس . وروى المؤرخ ثاوفانس ان الملك لاون الايصوري نصب هذا الزنجير لما جاء العرب وحاصروا القسطنطينية فارتدوا عنها اذ لم يقووا على قطعهِ ويقال ان الصليبيين لما فتحوا القسطنطينية حملوا الزنجير القديم الى عكاء لكن الروم صنعوا زنجيراً اخر اضخم وامتن وكانوا آونة الحصار في غاية الاحتياج اليهِ لان عمارة قسطنطين لم تكن لتقوى على منازلة العمارة العثمانية

٥

وقبل ان نبسط الكلام عن الحرب والحصار يجدر بنا ان نأتي باسماء الذين تولوا قيادة الجيش واحسنوا المدافعة عن القسطنطينية فمن الروم نذكر اولاً الملك قسطنطين وسفير البابا المطران ايسيدورس اللذين كانا لا يألوان جهداً في الاهتمام في كل شيء ولبثا في معمعة الوغى حتى فتحت المدينة . ثم نذكر الغرندوق لوقا نوتاراس الذي سناتي على ايراد قصتهِ المفجعة . ثم الامراء ديمتريوس كنتاكوزين ونيكيفورس وثاوفيلس الذين من آل باليولوغ ثم ثيودور كرستينس الذي كان شيخاً جليلاً مشهوراً بمهارتهِ في الحيل الحربية وقوته التي لم تضعفها الشيخوخة . وكان بين المدافعين عن الحاضرة من دون الروم كثيرون من الاجانب الذين جاؤوا متطوعين لخدمة الانسانية من الفرنسيس والاسبانيين والايطاليين وكان اشهرهم يوحنا يستنياني احد القوَّاد الجنويين الذي ولاهُ الملك قيادة الجيش برمتهِ . وهذا الضابط الجنوي كان تحت امرتهِ مركبان حربيان حصينان فيهما اربعمائة رجل ذوي بأس كان يتجول بهم في البحر وقد جاء اعمالاً خطيرة تشهد بحذاقتهِ وتحنكه في فن الحرب فطلبهُ قسطنطين وأذن لهُ بالدخول في مرفإ القسطنطينية الداخلي وسلمهُ قيادة الجيش واعداً اياه اذا انتصر على العثمانيين بانهُ يهبهُ جزيرة لمنوس

ملكاً شرعياً وسنرى انهُ دافع الدفاع الشديد حتى آخر يوم من الحصار . وقد اشتهر ايضاً في هذا الحرب الامير ارخان التركي الذي كان نزيل القسطنطينية فقد حارب ببسالة غريبة مع جنود الروم

٦

ولم يضرم السلطان نار الحرب الّا بعد وصول جيوشهِ كلها بثلاثة ايام وكان يدرّبهم تدريباً غايةً في الدراية وانشأَ للمحاربين عدة متاريس يلوذون اليها عند تلظي ضرَم الوغى ونصب ١٤ صفاً من المدافع لضرب المدينة من كل الانحاء المختلفة وكان بينها المدفع السلطاني الذي كان يديره صاحبهُ اربان المجري وقد نُصب بازاء باب كالفاريا (اي باب عملة الاحذية) واوقع بالمدينة اضراراً جسيمة لضخامة القنابل الثقيلة التي كان يرشقها على السور وكان السلطان محمد وجيشهُ يتأملون الدخول الى القسطنطينية بهذه الوسيلة ومن هذا الباب نفسهِ الذي أمر السلطان بان تحفر تحتهُ اسراب (لغوم) لوضع البارود فيها والهابهِ دكّاً للسور فلم يلتفت الروم بداءة ذي بدء الى هذه الحفرة لانهم كانوا موقنين بان الاساس مبني على صخر صلدٍ في منتهى الصلابة . لكن احد المهندسين الالمان أبه الى هذا الخطر العظيم وشرع يحفر من داخل السور تحت ذاك الباب حفرةً بازاء حفرة العثمانيين وبعد تعب عنيف وصل الى محفر العثمانيين واكرههم على الهرب بادخالهِ الدخان الى حفرتهم وايصاله النار المعروفة « بالاغريقية » الى معملهم ففرّوا مهرولين ولم يتمكنوا من وضع البارود الممزوج بالزفت والهابهِ . فلما حبطت هذه الحيلة امر السلطان بنقل المدفع السلطاني الى تجاه باب القديس رومانس فصوّبت القنابل على البرج الذي كان يحمي هذا الباب

ولم تكن مدافع الروم بضعيفةٍ فانها كانت تقذف كللاً حجريّة وزن الواحدة منها ١٥٠ لبرة وهي وان ادنى من مدافع العثمانيين كان لطلقها دويٌّ شديد حتى تزعزعت منهُ اركان السور فخافوا من ان يتأتى عن اطلاقها خراب في المدينة لذلك استصوبوا

ان لا يطلقوا المدافع بل استخدموا ما بقي بـين ايديهم من البارود القليل لدفع كلل رصاصيـة محشوَّة في نوعٍ من البنادق يسع بعضها نحو عشر كلل كانت تقتل خلقاً كثيراً وقد روى المؤرخ مخائيل دوكا ان الكلة كانت تصيب الرجل فتنفذ منهُ الى رجلٍ ثانٍ فثالث وتقتلهم

اما المدفع السلطاني الذي نقل الى تجاه باب القديس رومانس فقد الحق بالمدينة خراباً جسيماً الا انهُ انفجر بعد زمان قليل وتطايرت حطامهُ شعاعاً فقُتل بها عديدون من جنود العثمانيين الذين كانوا حولهُ وقتل بينهم المجري الذي صبهُ. فتأسف السلطان جدًّا واشفق ان تنفجر سائر المدافع فأَمر بسدّها وعدل عن اطلاق القنابل



الفصل الخامس

حصار القسطنطينية

١ ردم العثمانيين الخندق الاول الذي حول السور وارتدادهم عنهُ بعد ان احرق الروم برجهم الخشبي – ٢ – قدوم عمارة مسيحية نجدة للروم من عند البابا ودوق جنوا – ٣ – نقل العثمانيين مراكبهم على اليابسة وادخالها في المرفإ الداخلي بالتواطوء مع الجنويين – ٤ عدم يأس الروم من الظفر وسعيهم في احراق سفن العثمانيين وحبوطهُ بخيانة احد الجنويين – ٥ – فتنة بين البنادقة والجنويين

١

بعد ان تخرَّب جانب كبير من الاسوار شرع السلطان يهتم بتجهيز حملةٍ عامة على المدينة لفتحها فامر اولاً بان يردم الخندق الاول الذي وراء السور الاول من جهة اليابسة فلبَّى الجنود امرهُ بحماسة غريبة لم يأتِ التاريخ بذكر مثلها مقتحمين الاخطار لردم هذا الخندق طارحين فيهِ كل ما عثرت ايديهم عليهِ حتى خيامهم وحطامهم والآلات النافعة التي يحتاجون اليها بل كانوا اذا اتفق ان احدهم سقط في الخندق ولم يستطع الى الخلاص سبيلاً لم يلتفتوا اليهِ بل كانوا يرمون عليهِ الاخشاب والتراب والحجارة فيدفن في الخندق حيًّا

فلما فرغ الجند من ردم الخندق جرَّ السلطان محمد برجاً خشبياً حصيناً على الدواليب الى سور المدينة ليضرب باب القديس رومانس وكان هذا البرج ذا طبقات كثيرة في كلٍّ منها عدد وافر من العساكر كانوا يرشقون نيراناً صناعية ليبعدوا المحاصرين عن الاسوار وكانت بايديهم سلالم من الحبال في اطرافها كلاليب حديدية يلقونها على السور فتتعلق بهِ ومن ثمَّ يصعدون بها عليهِ . وكان البرج مغشًّى بجلود بقر طريئة سلخت حديثًا لئلاَّ يستطيع الروم احراقهُ وقد ستر بقطع كبيرة من اللباد متدلية من اعلاهُ لمنع نفوذ السهام والحجارة المرشوقة عليهِ من داخل المدينة

وكان السلطان ملقياً جلّ اتكالهِ على هذا البرج الخشبي آملاً انهُ بهِ ينال النصر والغلبة فلما تقدم البرج على الاسوار أُطلقت جميع المدافع من معسكر العثمانيين دفعاً للمحاصرين عن الدنو من الاسوار وعن الحاق الضرر بالبرج اما الروم فاستفرغوا جعبة الحيل لاحراق البرج فلم يستطيعوا يومئذٍ الى ذلك سبيلاً ودامت نار الحرب متلظية ذلك النهار كلهُ حتى المساء دون ان يتبيَّن وجه النصر لاحد الطرفين

وعند صباح اليوم التالي اخذ من العثمانيين العجب كل مأخذ لما رأوا ان الخندق الذي ردموهُ قد أُعيد فتحهُ لان الروم تألبوا في الليل جمّاً غفيرًا فنبشوا التراب واخذوا الحجارة والاخشاب ورمموا السور وسدوا كل ما ثلم منهُ فاستعر القتال شديدًا و برز كل من السلطانين محمد وقسطنطين في مقدمة جيشهِ مهيجاً حماسة وشجاعة الجنود ومغريًا اياهم على الاقدام نوالاً للظفر الَّا ان الروم تمكنوا يومئذٍ من احراق البرج الخشبي عن آخره فغضب السلطان غضباً عظيماً وعدل عن مهاجمة المدينة من جانب اليابسة الى الحمل عليها من جانب البحر ولكن كان دون هذه الحملة اخطار واهوال

٢

و بينما كان السلطان مشتغلاً في استنباط اسهل الطرائق للحملة البحرية نزلت بعمارتهِ مصيبة زادت غضبه اضطراماً وهي قدوم عمارة مسيحية صغيرة لنجدة الروم مؤلفة من بعض سفن اوفدها البابا ودوق جنوا تقلُّ رجالاً ذوي بأسٍ ومؤونةً وافرة من الحنطة والشعير والخمر والزيت والتمر والحمص والعدس وغير ذلك من البقول والمآكل الجافة وكان بينها سفينة للروم ارسلها قسطنطين لتشحن قمحاً من صقلية فامر السلطان بسفنهِ الحربية كلها فاجتمعت لمنع عبور هذه العمارة التي لما دنت ورأت البحر مغطىً بالسفن ولا يمكنها اختراق صفوفها ما لم تتبدد كلها وقفت على مسافة منها واطلقت مدافعها على السفن العثمانية بإحكام حتى غرّقت منها مراكب كثيرة واتلفت غيرها.

وكان السلطان واقفاً على رابيةٍ تشرف على البحر ينظر الى منتهى الامر فلما ابصر تبدد شمل عمارتهِ هبَّ الى جوادهِ وترل مسرعاً حتى وصل الى الشطّ بقرب مراكبهِ فأخذ يؤنب الجنود والنوتيّة والضباط ثم امسك بامير البحر المعقود لهُ لواء جميع السفن فبطحهُ على الارض وشرع يضربه بقضيب ذهبي كان في يدهِ لكن رغماً عن اجتهاد السلطان في تحميس عساكرهِ وحملهم على الاقتحام كانت العمارة المسيحية تتقدم بسرعةٍ الى الامام مغرّقةً ما اعترضها من السفن ولما انتهت الى الزنجير الحديدي السادّ مدخل المرفإ دلّاهُ الروم الى البحر حتى عبرت سفن العمارة كلها داخلة قرن الذهب دِخلة انتصار ثم رفع الزنجير كما كان اولاً فلما بلغت الى الشاطئ قابلها الروم المنتشرون في تلك الجهة جماهير بمزيد الاكرام مصدّين تصدية الفرح والسرور

٣

فوجّه السلطان من ثم جلّ اهتمامهِ الى مشروع غريب لم يكن يخطر على بال وهو ان ينقل السفن الحربية من البسفور الى المرفإ الداخلي مجرورة على اليابسة حتى اذا بلغ مياه قرن الذهب انزلها وتمكن من مهاجمة المدينة بحراً فخطط اولاً لهذا العمل طريقاً يمهدهُ بين الاشواك والعليق يمر وراء غلطه وينتهي على شط قرن الذهب بازاء دير وكنيسة القديس قزما

وبعد رسم هذا الطريق وتمهيدهِ غُطي بالالواح الخشبية مطليّةً بشحم البقر والغنم حتى يتيسر للمراكب ان تزلق عليها بلا عناء . وروى المؤرخون ان طول هذا الطريق كان فرسخاً ونصف فرسخ وقد جرَّ السلطان عليهِ في ليلة واحدة تسعين سفينةً يسحبها الرجال بالحبال ولما وصل بها الى الشط انزلها كلها الى البحر وتمَّ ذلك كلهُ ليلاً دون ابداء اقل صوت خشية ان يدري الروم فيوقفوا انزالها الى البحر خلافاً لما ذكر بعض المؤرخين من ان السلطان اراد أن يجرَّ هذه المراكب على البر باحتفال

وابهةٍ كما لو كانت جارية في البحر فقالوا: كان في مقدم ومؤخر كل سفينة ربّان يامر الجنود بالتقدم والاسراع وكانت الرجال ترنم اغاني البحريَّة بجرّها السفن والادوات والمهمات الحربية. وفي رأينا ان لو صحت هذه الرواية لكان ذلك الاحتفال عند وصول السفن وانزالها الى البحر ابتهاجاً بتلك ذلك المرفإِ الجديد او عند سحب السفن الاخيرة اليهِ

ولم يكن الجنويون سكان غلطة ليجهلوا هذا المشروع الغريب الذي ابتدعهُ السلطان لنقل السفن برًّا الا انهم تواطؤوا معهُ بعقد ميثاق سرّي تعهدوا فيهِ بحفظ هذا السر طيّ الكتمان ووعدهم هو بانهم اذا لزموا الحياد لا يمسهم بضررٍ

٤

فلما رأى الروم السفن العثمانية في مرفئهم الداخلي هالهم امرها وتشاءموا بالخراب وداخلهم القنوط لان الاسوار من جهة البحر لم تكن حصينةً ولم يكن عندهم عساكر كافية للدفاع والكفاح الا انهم لم ييأسوا من رحمة ربهم بل جاهدوا الجهاد الحسن مشتغلين ليلًا ونهارًا بما من شأنهِ تعزيز المدينة وحفظها

ولم يقف السلطان عند هذا فقط بل جعل يهتمّ بعمل مشروع آخر يمكنهُ من الهجوم والاستيلاء على القسطنطينية فوصل صفائح والواحاً خشبية عريضة بعضها بكلاليب حديدية وحبالٍ غليظة ونصبها على الماء ممتدةً من الضفة الواحدة التي في غلطه الى الضفة الاخرى في اسفل اسوار المدينة بازاء باب كيناجيون حتى اصبحت كلها جسرًا واحدًا متينًا على خليج قرن الذهب واصلًا بين البرَّين تسهيلًا للعساكر والمدافع ان تمرّ عليهِ وتقتحم المدينة. ووضع في طرف هذا الجسر بعض مدافع لتضرب السور وتدمرهُ وعزّز الجسر بسفن حربية قامت على جانبيهِ

فالتحمت الحرب اولًا بين السفن في المرفإِ فكان النصر لسفن العثمانيين لكثرة عددها ولما رأى يستنياني قائد جيوش الروم قرب فوز العثمانيين من هذه الجهة عقد النية على احراق سفنهم فانتدب لذلك عشرين شابًا من الروم وعشرين من الاجانب

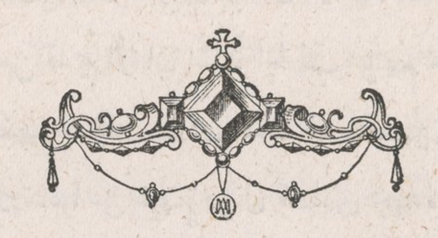
الذين بذلوا ارواحهم فداء عن المدينة فركبوا زورقًا واحدًا وساروا مع عمارة بندقية وتقدموا للعمل وكان كل شيء مرتبًا مناطًا بهِ امل عظيم بالنجاح لكن احد جنوبي غلطة انبأ العثمانيين بالدسيسة فانتبهوا للخطر ولما فاجأتهم سفن البنادقة بادؤوها بالضرب فاحبطوا عملها واغرقوا بعضًا منها واسروا الزورق الراكب فيهِ الشبان الاربعون فلما مثلوا بحضرة السلطان أمر بهم فقتلوا جميعًا على مرأى من المحاصرين فحزن الملك قسطنطين حزنًا شديدًا على قتل الاربعين وإدراكًا لثأرهم امر بمائتين وخمسين اسيرًا فشنقهم في اعلى السور

٥

وحدثت بين البنادقة والجنويين فتنةٌ فكان الاولون يتهمون الآخرين بالخيانة وافشاء سرّ الحرب حتى تقهقروا وحلّت بهم خسارة جسيمة اما الجنويون فكانوا يؤاخذون البنادقة على تقصير وقلة تدريب وبما ان نار هذه العداوة كانت كامنة في صدور اهل الطرفين من قديم الزمان اشتدَّ الخطب بينهم حتى افضى بهم الامر الى اشراع السلاح على بعضهم مقتتلين الا ان الملك قسطنطين جاء بنفسهِ الى رؤساء الامتين ونصح لهم ان يرتدعوا عن غيهم وبذل قصارى جهده في اصلاح ذات بينهم مذرفًا العبرات على الضنك المحدق بالمدينة من قبل الحرب الخارجية وممّا قال لهم « افلا يكفي ذلك العدو الهائل الذي يحاربنا حتى نلهب شرر الحرب الاهلية ونجعل نفوسنا غنيمة في يد الاعداء » فمستهم حينئذٍ الشفقة على تلك الحال الحرجة والتأم الفريقان وعادا للتعاون والتضافر في الحرب مع الروم والمدافعة عن مدينتهم كما كانوا من قبل

وقد سبق القول ان الجنويين سكان غلطة كانوا قد عقدوا ميثاقًا سريًا مع السلطان على ان لا يتدخّلوا في الحرب بشرط ان يسلموا هم ومراكبهم ومدينتهم من غزوات جنوده لكنهم مع ذلك كانوا يغيثون الروم خفيةً فيبيعونهم القوت والذخائر وما اشبه

فلما بلغهُ ذلك امر باطلاق مدافعهِ على مراكبهم فأوفدوا اليهِ رسلًا يذكرونهُ بالعهد وتشكوا من انهُ نكث بهم فتظاهر بالاندهال من هذا العمل المنكر وقال انهُ انما اطلق المدافع على مراكب ظنها للقرصان تحمل قوتًا وذخائر للروم ولم يكن ليفتكر انها للجنويين ونصح لهم خشية ان يقع مثل هذا الاشتباه ان يبعدوا مراكبهم عن المرفإِ فلم يرضخ الجنويين لمشورتهِ وتظاهروا بعدم فهمها فلم يخرجوا مراكبهم من المرفإِ فاطلق المدافع على اكبر مراكبهم المعقود لواؤُه لامير البحر فاتلفتهُ واغرقتهُ فالتزموا بان يخرجوا بمراكبهم الى خارج الخليج



الفصل السادس

توقُّف الحصار بعض ايام

١ ـ وصف مركز كل من رؤساء جيش الدفاع ـ ٢ ـ خصام القائدين يستنياني ونوتاراس ـ ٣ ـ خوف العثمانيين من قدوم نجدة للروم ـ ٤ ـ طلب قسطنطين رفع الحصار وعزم السلطان على استئناف الحصار بعد استشارة ارباب ديوانهِ

١

وقبل ان نأتي على تفصيل اهم المواقع الشديدة التي خاضها الروم قبل سقوط مدينتهم ببسالةٍ وشجاعة لا ندَّ لهما نستحسن وصف مركز كلٍّ من رؤساء جيش الدفاع من الروم والفرنج . وكان الملك قسطنطين يتجوَّل في كل انحاء المدينة متنقلًا من موضع الى آخر متفقدًا بنفسهِ جميع المراكز الحرجة والمتداعية الى السقوط منهضًا همة الجنود والامَّة وناقلًا الضباط الى الخطط المختلفة حسب الحاجة وقد أُوتي من الله موهبة الشجاعة الاسديَّة واضرامها في قلوب الغير حتى ان كلًا من المدافعين كان يطلب ان يقيم في المركز الاكثر خطرًا اقتفاء بمثل قسطنطين نفسه الذي كان يتردَّد دائمًا الى اضعف المواقع ويقيم غالبًا في باب القديس رومانس الذي كان العثمانيون يبذلون دون هدمهِ كل قوات مدافعهم . وكان قسطنطين يتجوَّل اعتياديًا مع القائد يستنياني وبصحبتهِ ثلثمائة رجل ذوي بأسٍ من الجنويين ونخبة من ابطال الروم وكان موريسيو كتانيو القائد الجنوي يحمي جهة السور التي من باب الذهب حتى باب الينبوع الذي بحذاء كنيسة سيدة الينبوع العجيبة مع مائتين من الجنويين . وكان القائد بطرس يلياناس قنصل اسبانيا في القسطنطينية يحامي عن قلعة الميدان مع بعض جنود من امتهِ الاسبانية ومن الروم . وكان سفير البابا الكردينال ايسيدورس يدافع عن قلعة القديس ديمتريوس مع جماعة من الايطاليين والفرنج الذين جاء بهم من المغرب . وكان

القائد الشهير نوتاراس متوليًا حراسة المدينة من جانب المرفإ الداخلي بازاء غلطة . وكان الباب الجميل يحرسهُ قومٌ من الكريتيين . وكان مينوتو قنصل البندقية قائمًا بالمحافظة على قصر الملك . اما سائر جيش الروم فكان متفرّقًا في المراكز حسب الحاجة إما للقيام مقام العساكر المقتولة واما لاعانة الضعفاء والخائري القوى . واما الامير ديمتريوس كنتا كوزين والامير نيكيفورس باليولوغ فقد عُهد اليهما في حراسة المدينة عمومًا والسهر على راحتها وردّ الهجمات التي تفاجئهم من الخارج او تسكين الاضطرابات الداخلية ومعهم لذلك سبعمائة رجل . والمركز العام الذي كانت تجتمع اليهِ العساكر كلها كان بجوار كنيسة الرسل . وكان رهبان القديس باسيليوس وعديدون من طغمة الاكليرس يبذلون جهدهم في المدافعة عن المدينة مقتحمين الاخطار بانفسهم لسد نوافذ السور ودفع هجمات المحاصرين

وفي هذا الاثناء صفرت يد الملك قسطنطين من النقود ونزلت بهِ ضربة عسر الماليَّة وكان الاغنياء يدفنون اموالهم ويتظاهرون بالفاقة لئلا تسلب منهم لسد حاجة المعوزين فالتزم ان يطلب من الاكليرس الاواني المقدسة لتكسر وتبذل في هذه الضيقة وقد اقسم ايمانًا مغلظةً بانهُ عند استتباب الراحة وارجاع السلام يرجع كل الذي اخذه . فاستخدم هذه الاموال الكنسية لدفع رواتب العساكر واغاثة الفقراء والملهوفين . ومع هذا كله كان سفلة الشعب وطغامهُ يذمون هذا البطل قسطنطين ويجتمعون على تقريعهِ فكان يستمع الاهانة باذنهِ ويغضي عن اصحابها بصبر جميل

٢

ومما زاد اشجان الملك قسطنطين اشتدادًا الخصام الطارىء بين قائدي الجيوش يستنياني ونوتاراس فان يستنياني طلب من نوتاراس بعض مدافع وعُدَد حربية ليدافع بها عن باب القديس رومانوس حيث كان الملك يحارب . فابى اعطاءه اياها بحجة احتياجهِ اليها للمحاماة عن مراكزه . فشبت من ثم نار الشحناء ثم نفخت فيها رياح المجافاة

بالكلام فاضطرم سعيرها حتى افضى الامر بيستنياني الى ان قال للقائد نوتاراس : انه خائن الوطن ويستحق ان يطعن فؤاده بالحسام فلما رأى ذلك قسطنطين هرع الى القائدين وآخذهما برفقٍ فسكن غضبهما مبيناً لهما ما ينشأُ عن خصامهما من الضرر ثم عانقهما بحبٍّ وامرهما فتعانقا امامهُ وتصالحا

اما هذا الخلاف الحقيقي فمصدره حسد نوتاراس من يستنياني لانه توسَّم من الملك ميله اليهِ واكرامهُ لهُ اكثر منهُ . ويسند المؤرخون تفضيل قسطنطين القائد يستنياني على نوتاراس الى سببين اولهما ان نوتاراس كان من الحزب المضاد لاتحاد الروم مع اللاتين ويعزو اليهِ بعضهم قول هذه العبارة الشهيرة «اني احبُّ اليَّ ان ارى القسطنطينية خاضعة للعمامة الخضراء من ان اراها خاضعة لتاج البابا» اما السبب الثاني الذي حمل الملك على المبالغة في اعزاز يستنياني فلما انطوى عليهِ هذا القائد من الحذق والدراية الحربية والحماسة الشديدة في المحاماة والامانة المخلصة التي ابداها الى آخر ايام الحصار حتى ان السلطان محمدًا بذل قصارى جهده ليستميلهُ الى حزبهِ بدفع الاموال الوافرة فابى الّا المدافعة مع قسطنطين عن الروم

٣

الّا ان الرعب وقع في قلوب العثمانيين في هذه الاثناء من جرَّاء حادث جوي غريب ظهر بصورة نور ساطع فوق افق القسطنطينية فتفاءلوا بهِ لاول وهلة انه شؤم على الروم ذاهبين ان الغضب الرباني قد حلَّ على المدينة واهلها لكنهم ما لبثوا ان تشاءموا منهُ لانتشار اشاعة بغتةً في المعسكر لم يعلم اولاً مصدرها لكن عُرفت فيما بعد انها مُذاعةٌ من كبير وزرائهم الذي اتهم بالخيانة كما سيأتي بيان ذلك في محلهِ اما الاشاعة فكان مآلها ان جيشاً عرمرماً قدم لنجدة الروم من جهة البرّ تحت امارة القائد الهونيّ الشهير وان سفناً حربية قوية تشق عباب البحر آتية لاغاثة الروم بحرًا فانخلعت قلوب العثمانيين

لهذه الاشاعة الفاجعة واخذ منها الذعر كل مأخذ وفسروا حينئذٍ هذا النور بانه نورٌ سماوي ودليل على المعونة الربانية التي يؤتيها الله الروم

وقد عظم هذا الخطب بين الجيش فوهنت قوته ولم يقوَ على الحرب حتى ان السلطان الذي كان يعرف ان يفتح لكل مشكل مخرجاً التزم ان يبادر لنقض هذه الاشاعة وتعبير الحادث الجوي بخير له ولامته بقولهِ انهُ هو نفسهُ رأى هذا النور صاعداً بسرعة في الجوّ فذلك دليلٌ على ان الله عضد الروم اولاً ثم هجرهم مهملاً

٤

وقبل يوم الفتح الاخير طرأ بعض موانع اوقفت الحرب اياماً وذلك ان الامير اسمعيل امير سينوب ولو مسلماً لم يكن ليحبّ ان السلطان محمداً يستولي على القسطنطينية فاوفد الى القيصر في الخفية رسولاً يشير عليهِ بان يرسل من قبلهِ وفداً الى السلطان يلتمس منهُ الصلح فهو يجيبهُ اليهِ لا محالة فارسل قسطنطين يسألهُ رفع الحصار عن المدينة وهو يؤدي لهُ في جنب ذلك ما شاء من التعويضات . فاجاب السلطان بانه يرضى بالصلح اذا تنزَّل لهُ القيصر عن القسطنطينية وهو يتعهد لهُ بان يجعلهُ ملكاً على بلاد المورة كلها ويهب في الوقت نفسهِ اخويه توما وديمتريوس تعويضاً من املاكهما اقاليمَ يتولَّونها في البلاد الاسلامية وختم جوابهُ بهذه العبارة لا بدَّ من احد امرين: «إما أن احصل على القسطنطينية واما ان القسطنطينية تحصل عليَّ»

ومع ذلك جمع السلطان ارباب ديوانه وطلب من اعضائهِ المشورة فقام وزيره الصدر الاعظم خليل باشا الذي كان متحزّباً للروم واشار عليهِ بوجوب الاجابة الى مطاليب قسطنطين مسنداً رأيهُ الى عدة اسباب اوضحها في الحضرة فكان لها وقع شديد في القلوب حتى ان السلطان نفسهُ ظهرت عليهِ سمات الميل الى مشورتهِ ولاسيما عند ما انذره بقرب وصول عمارة مسيحية نجدةً للروم من المغرب وقد صدق الوزير

بهذا الانذار لان البابا كان قد جهز عمارة ثانيةً قوية من سفنهِ وسفن البندقية وجنوا واسبانيا وغيرها وارسلها في تلك الاثناء الى مياه القسطنطينية

فارتبك اهل الديوان من هذا الامر وتزعزعت عزائمهم فقام زوغانس باشا ثاني الوزراء الذي كان عدوًا لخليل باشا وقاوم رأيهُ ناقضًا مشورته باسباب قوية ايضًا وممَّا قال خصوصًا انه لا يخشى من نجدة اهل الغرب لانها مؤلفة غالبًا من امم مختلفة محتدًا ومشربًا اذ يجب للاتفاق على رأي واحد زمان طويل وان اتفقت فلا تعمل اعمالها بترتيب لعدم خضوعها لرأسٍ واحدٍ ثم ختم مشورته هذه بقولهِ: «وهب ان هذه العمارة المسيحية قد وصلت افتظن ان قوة غير قوة الله تعالى تستطيع ان تخيفك وتقاومك انت السلطان الاعظم. فداومنَّ اذًا على اطلاق المدافع على اسوار المدينة حتى اذا تدمَّرت حملت عليها وفتحتها لا محالة»

فسرَّ السلطان من هذا الخطاب سرورًا جزيلًا وقبل ان يعود الى ضرب الحاضرة امر زوغانس بان يستعلم من الجيش عن ميلهِ ورأيه فجاءهُ مبشرًا ان جميع الجنود والقواد تائقون الى الحرب ممتلئون نشاطًا وحماسةً. فثارت الحمية حينئذٍ في نفس السلطان فامر بان تصفَّ المدافع كلها وتجهز آلات المنجنيق جميعها لتضرب اسوار المدينة ضربةً اخيرةً فتدكها واخذ يجهز حملة عمومية وضرب لها ميقاتًا اليوم التاسع والعشرين من شهر ايار



الفصل السابع

في الحملة الاخيرة على القسطنطينية

١ـ صوم العثمانيين استعدادًا للحملة وتحميس السلطان لهم بخطاب شديد ـ ٢ التجاء الروم الى الصلاة وخطاب قسطنطين التحميسي للجنود ـ ٣ ـ ابتداء هجوم العثمانيين على السور وارتدادهم عنهُ اولاً ـ ٤ ـ اعتزال القائد يستنياني من الحرب لجرحٍ اصابهُ

١

في النهار السابق يوم الحملة العمومية امر السلطان جميع المسلمين بالصوم مدة اليوم كلهِ والتوضوء سبع مرات واراد ان يكون المعسكر مضيئاً في الليل بالانوار الساطعة و بعد ان افطر الجيش كلهُ وانشرحت نفسهُ وتقوت اعضاؤه امرهم فاجتمعوا نحو منتصف الليل وخطب فيهم خطبة حماسية اليك مؤدَّاها ملخصة كما ذكرها كتَّاب عصره:

«ايها الجنود اجمعون ها قد حان الآن اليوم العظيم الذي فيهِ تجنون ثمرة فائقة في اللذة والعظمة قد خبأها لكم الله تعالى وحرمها لآبائكم الذين كانوا اليها تائقين. ها اليوم تدخلون دِخلة انتصار الى هذه المدينة الشهيرة اعظم حواضر العالم باتساعها ووفرة ثروتها فستغنمون منها كنوزًا لا تطيقون حملها فاذا انتصرتم تمتعتم بملاذّ هذه الدنيا ونعيمها وان سقطتم باذن الله تحت سيف النصارى فستذهبون للتمتع بجنات تجري من تحتها الانهار كما وعد الكتاب بها للمجاهدين في سبيل الله واعلموا ان كل من يبقى منكم بعد الانتصار ينال جزاء جهاده مضاعف راتبهِ في حياتهِ كلها وفضلاً عن ذلك اني آذن لكم بنهب القسطنطينية فما تنالهُ يدكم مدة ثلثة ايام بعد فتحها يكون لكم حلالاً اما أنا فلا اريد ان آخذ من الغنيمة شيئاً الَّا اني ابقي لي ابنية المدينة فحذارِ من تدميرها. فتقدموا اذن بشجاعة وقوة واقتحموا الاهوال فاني اعدكم ان الذي يُقدم اولاً و يصعد على السور ناصباً فوقهُ راية الاسلام اغمره بالآلاء والنعم وارقيه الى ارفع

المناصب واسماها لكن ويلٌ لذاك الذي يتسلَّط عليهِ الجبن فيبقى في خبائهِ ولا يخرج الى الحرب فان صواعق غضبي تنقض عليهِ وتميتهُ شرَّ ميتة واني قسماً بالله الحي وبالانبياء الاربعة الالاف وبنفس ابي مراد وبحياة اولادي وبحسامي لافعلنَّ ذلك كلهُ واتممنَّ »

فلما فرغ السلطان محمد من خطابهِ وعينهِ كبر الجيش تكبيرة عظيمة وصاحوا بصوت عالٍ قائلين كلمة الاخلاص «لا اله الا الله ومحمد رسول الله»

٢

فعلم الروم عند سماعهم ضجة العثمانيين ان قد حان وقت الحملة العمومية فالتجؤوا قبل كل شيء الى الصلاة والاستغاثة بالله فجهز ارباب الكهنوت دورة حافلة حملوا فيها الذخائر المقدسة حفاةً وتبعهم اعضاء مجلس الملإ واعيان المدينة وضباط الجيش والعساكر والشعب وكان في الطرقات الشيوخ والشبان يسترحمون الله متوسلين اليهِ ان لا يتغافل عن شعبه وميراثه ثم جمع قسطنطين رؤساء الجيش ونخبة من العساكر الروم والايطاليين وخطب فيهم خطاباً وجيزاً هذا فحواهُ :

ايها الاصدقاء الامناء

ان شجاعتكم صارت لديَّ مشهورة لاني كل يوم ارى من آثارها دلائل واضحة اما اليوم فلا يكوننَّ اعتمادكم على قوَّة ذراعكم بل ليكن اتكالكم على يمين رب الصباوت القادر على كل شيء لانكم لا تدافعون عن انفسكم وعيالكم واموالكم بل انتم مجاهدون في سبيلهِ اذكروا ان لكم سبعة وخمسين يوماً تدافعون فيها ببسالة لا ندَّ لها مقتحمين اشد الاخطار فلا تنثنينَّ اليوم عزائمكم ولا سيما ان قوة اعدائكم قد خارت وسئمت من طول مدة الحصار فادفعوهم اليوم كما دفعتموهم من قبل ولا ريب ان حملتهم اليوم تكون آخر هجماتهم فيتركون الحصار وتنالون من بعدها الراحة والسلام وانتم ايها الابطال المساعدون لنا الذين جاؤوا من البندقية وجنوا والبلاد البعيدة لاغاثتنا لا تطلبوا لكم وطناً غير وطننا فان مدينتنا تكون مدينتكم وخيراتنا تكون

خيراتكم لاننا سنقتسم بيننا اموالنا التي ساعدتم على المدافعة عنها . والآن فقدموا جميعكم صلاةً اخيرةً لله تعالى وتوسلوا اليهِ ان يكفّ غضبهُ عن شعبهِ وليرجع كل منكم الى مركزه واسمعوا اخيرًا الى نصائحي التي اشير بها اليكم فاوصي اولًا الضباط ورؤساء الجيش بان يلزموا السكينة والفطنة والعساكر بالطاعة والنظام واوصيكم جميعًا بالشجاعة شجاعة الابطال وعلى الرب سبحانهُ الاتكال »

نطق الملك بهذا الخطاب وملء قلبهِ حسرات تجرح الفؤاد حتى تفتّتت من سماعهِ الاكباد وجرت من جميع الحاضرين سيول من العبرات حتى انه هو نفسهُ لم يتمالك عند الفراغ من تذريف الدموع السخينة احرّ من الجمرات ثم عانق كل منهم رفيقهُ معانقة الوداع دلالة على الاتحاد والاخاء وحلفوا بانهم مستعدون لبذل آخر نقطة من دمهم في سبيل الدين والوطن

ثم ترك قسطنطين الجيش وذهب الى كنيسة اجيا صوفيا الكبرى وسجد فيها على درجة الهيكل الملكي وصلّى بحرارة عظيمة ثم تناول القربان الطاهر بخشوع وتهيُّب واقتفى اثره بهذا العمل التقوي كبار رجالهِ الذين تبعوه الى الكنيسة . ثم التفت الى الشعب وقال لهم « ان خطاياي هي التي جلبت غضب الله على هذه الحاضرة فها انا اليوم مستعد للتكفير عنها بتضحية نفسي لهُ تعالى »

ثم ذهب الى قصره واجتمع برجال بلاطهِ وحاشيتهِ وخدامهِ وطلب منهم المغفرة عما عسى ان يكون اساء بهِ اليهم فاجابوه كلهم بزفرات متنفسين الصعداء . ثم ركب جواده وتفقد الاسوار والمواقع كلها ورجع الى مركزه الخطير عند باب القديس رومانس

٣

فعند الساعة الاولى بعد منتصف الليل امر السلطان محمد الجنود بالهجوم ولما انبثق الفجر حملوا كالاسد حملة عمومية على كل مواقع السور وفي هجومهم لم يكونوا يبالون بما يلاقون من الاهوال بل كانوا يقتحمون الاخطار ليتسلقوا الاسوار واخوانهم

تسقط قتلى تحت اقدامهم بنبال الروم وحجارتهم ولم يكترثوا الى حياتهم في جنب ارضاء مولاهم السلطان بل كانت حميتهم تزداد وحماستهم تتضاعف وشجاعتهم تتقد اضطراماً لتجشم المهالك وخوض المنايا حتى تخضبت الارض بدمائهم وجرت سيولاً. وكانت القسي وآلات المنجنيق والمدافع ترسل على الروم السهام والحجارة والكلل كالمطر الزاخر اما الروم فمع قلة عددهم كانوا يبذلون وسائل اقوى وافعل لدفع العثمانيين فكانوا يرمونهم بالنيران الصناعية المحرقة ويسكبون عليهم من اعلى الاسوار خلاقين مملوءة زيتاً غالياً وكمية وافرة من الزفت المحمى ويرشقون حجارة طحن وقطعاً ضخمة من الصخور فكانت تقتل كل من صادفتهُ وكانوا يصوّبون اليهم بنادقهم ذات الطلقات العديدة القتالة ويرمونهم بها بغاية الاحكام فلم يخطئوا المرمى البتة وداوموا على هذه الهمة الشديدة والبسالة الفريدة حتى ابعدوا عساكر العثمانيين عن حوالي السور من جانب اليابسة والبحر عدة ساعات ولم يحكم بالانتصار لاحدٍ من الفريقين

٤

وما كاد الروم يفرحون بهذا الفوز الوقتي ويعلقون عليهِ اعظم الآمال بصدّ العثمانيين المرة الاخيرة عن مدينتهم وانقاذها من الفتح حتى طرأ حادث مريع انذر بالوبال والخراب فان القائد يستنيياني الذي حارب بشجاعة وحمية ليس عليهما من مزيد والذي احرز الانتصار في كل المعامع التي حضرها وخلّف بين الروم ذكرًا جميلًا بغيرتهِ على وطنهم وجاهد حتى آخر ساعة بجانب الملك مدافعاً عن قلعة بكطانية بقرب باب القديس رومانس. هذا البطل الصنديد فيما كان خائضاً بحر الوغى وقد قتل من الهاجمين بسيفهِ البتّار خلقاً كثيرًا اصابتهُ كلة نفذت درع الزرد فجرحتهُ جرحاً بليغاً فتنحى عن موقع القتال تضميدًا لجرحه لئلاَّ يموت من ترف دمهِ. فلما رأى رجالهُ الذين كانوا قد جاهدوا حتى تلك الساعة جهاد الاسد الضراغم انخلعت قلوبهم

وداخلهم القنوط من النصر فتركوا المعمعة ولحقوا بقائدهم واذ علم الملك الذي كان يحارب بالقرب منهُ اخذ منهُ الاضطراب كل مأخذ فاسرع الى يستنياني وبذل قصارى جهده ليرجعهُ ورجالهُ الى مراكزهم الَّا ان يستنياني ابى ان يرضخ لمشورة قسطنطين فركب زورقًا وسار في البحر الى غلطة ومنها الى جزيرة شيو (صاقص) حيث توفي بعد زمان يسير

وقد اجمع المؤرخون الروم واللاتين على التنديد بيستنياني لاعتزالهِ في الساعة الاخيرة تنديدًا شديدًا اما نحن وان يكن يشق علينا ان نلوم رجلًا مات اثر جراحهِ في الحرب وبعد انتصارات جمة فلا نستطيع ان نطلب لهُ عذرًا بل نستصوب رأي المؤرخين وتنديدهم لان المجاهدين والحالة هذه في سبيل تخليص تلك المدينة ولاسيما اذا كانوا ذوي مكانة رفيعة كيستنياني ملتزمون فرضًا لازبًا ان يبقوا في معمعة الوغى حتى آخر دقيقة من حياتهم . ولا شك ان يستنياني لو لازم موقعهُ في ساحة القتال وسقط صريعًا بجانب قسطنطين لكان خلد ذكرًا مجيدًا لن يمحى الى الدهر ولعل المدينة كانت قد نجت سالمة



الفصل الثامن

فتح القسطنطينية وقتل قسطنطين

١ ـ جهاد قسطنطين حتى آخر دقيقة وسقوطهُ بعد الفتح قتيلًا ـ ٢ ـ اختلاف المؤرخين في مقتلهِ وردّ بعض الحكايات الملفقة عنهُ ـ ٣ ـ بحث السلطان محمد الفاتح عن قسطنطين ووجود جثتهِ بين القتلى

١

لم يكن سفر يستنيياني وقومهِ ليوقع قسطنطين فى اليأس او يثبط همتهُ بل ازداد حماسةً ونشاطاً وعاد الى ساحة الوغى وواصل الحرب بشجاعة فريدة متكاتفاً مع اعيان بلاطه وكبار رجالهِ على المقاومة وقد تمكن من دفع هجمات العثمانيين مدة ليست بيسيرة الّا ان باب القديس رومانس قد تهدَّم اخيرًا بالصخور الضخمة المرشوقة عليهِ فبادر العثمانيون وهجموا بقوةٍ دفعةً واحدة فدخلوا السور الاول ودفعوا منهُ الروم فهربوا الى داخل المدينة ليحموا السور الثاني الداخلي لكنهم في هزيمتهم هذه الفجائية تشوَّش النظام فازدحموا جماهير غفيرة عند دخولهم ابواب السور فخنق منهم الازدحام عددًا كبيرًا وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيرًا اما الباقون فلم يقنطوا ايضاً من النجاح بل التأموا جميعاً واحاقوا بسلطانهم قسطنطين مدافعين الدفاع الاخير حتى آخر نقطة من دمائهم

ويشهد جميع المؤرخين ان الموقعة الاخيرة التي عقبها سقوط القسطنطينية وسلطنة الروم تعدُّ من اشرف ما سطرته الكتب عن تواريخ الحروب حتى انه لم يُرَ ملك مات مجيدًا عزيزًا مثل قسطنطين فانه لما اقتحم العثمانيون السور الثاني وانتشروا في المدينة لبث واقفاً على قدم الجهاد موقف البطل وقد اكتنفهُ جميع السادة وكبراء البلاط والامراء محامين عنهُ باذلين حياتهم دونه بمجد وشرف لم يسمع مثلهما . وقد

امتاز بينهم ثاوفيل باليولوغ وفرنسيس كمنين وديمتريوس كنتاكوزين ويوحنا الدلماتي هؤلاء الاربعة الابطال وكثيرون من اترابهم الشرفاء قد احدقوا بملكهم احداق السوار بالمعصم وحاربوا مدة طويلة دافعين صفوف العثمانيين الذين اكتنفوهم واخذوا يضربونهم من كل الجهات ولبثوا واقفين ارواحهم لخلاص سلطانهم حتى خارت عزائمهم وسقطوا جميعهم صرعى على اقدام سيدهم فبقي قسطنطين وحده ولم ينثنِ عزمهُ عن المقاومة بل داوم مشرعاً سيفهُ على الهاجمين مخترقاً صفوفهم وضارباً بجسامهِ يميناً ويساراً حتى دنا الاجل فحمل عليهِ اثنان من الجنود الظافرة فضربهُ احدهم بسيفهِ فقطع نصف وجهه وضربهُ الاخر فشق رأسهُ وسقط مجندلاً يخبط بدمهِ

٢

وقد تناقل روم القسطنطينية من الآباء الى البنين ان الموضع الذي سقط فيهِ قسطنطين كان في الساحة الصغيرة التي لا يزالون يسمونها «ساحة القتل» وهي تقرب من جامع السلطان سليمان . ونرى ان هذا يقرب الى الصواب اكثر من اقوال الكتّاب المتأخرين لاتفاقهِ مع قولٍ آخر مفاده انه لما دخل العثمانيون السور الاول كان الروم قد اغفلوا احد ابواب السور الداخلي مفتوحاً فاقتحموه داخلين الى شوارع العاصمة واشتبك القتال في داخل المدينة فالتزم قسطنطين ان يعود ورجالهُ ليدافع عن الشعب وهذا الخبر القريب من التصديق ايضاً يؤيد ما قيل عن مصرع الملك . ولا شك بان شعباً برمتهِ لا يمكن ان ينسى الموقعة الاخيرة التي بها سقط آخر ملوكهِ باذلاً حياته فداء عنهُ فهو ولا ريب الاحرى بالتصديق .

ومن ثم يتبين لنا ان هذا الرأي هو الاكثر احتمالاً خلافاً لما كتب بعض المؤرخين استناداً الى اخبارٍ مختلقة وخصوصاً انهم غير متفقين في رأي واحد على الموضع الذي سقط فيهِ الملك فذهب بعضهم انهُ مات على السور في ابّان الهجمة العمومية على المدينة وذهب آخرون الى انه اختنق بازدحام العساكر حين انهزامهم من وجه العثمانيين

الى داخل السور الثاني . على ان الشهود العيانيين رووا اختناق نحوٍ من ثمانمائة من العساكر الروم واللاتين عند ازدحامهم في الابواب . اما الملك فمن المستبعد بل من المستحيل تقريباً ان يكون قد سقط بينهم لما نعهد في رجالهِ من محبتهم لهُ واحداقهم بهِ مدافعة عنهُ كحدقة اعينهم

وكما رددنا هذين الرأيين غير المثبتين بدليل راهن ننكر ايضاً جميع الحكايات التي لفقوها عنهُ . وقال بعضهم انه أيس من الظفر فاستل سيفاً لينتحر وقال آخرون انه امر بقطع اعناق امرأته واولاده لئلاَّ يقعوا اسرى في يد المسلمين لكن لا شيء اسهل من ردّ هذه التلفيقات وحسبنا لذلك برهاناً ان قسطنطين لم يكن لهُ حينئذٍ زوجة ولا بنون لان ابنة ملك ارمينيا التي كان قد خطبها بعد موت كاترينا باليولوغ حليلتهِ الاولى لم تتمكن من الخروج من بلاط ابيها بسبب الحروب التي انتشبت بين الروم والعثمانيين

ولسنا نغضّ النظر عن تعنيف اولئك المؤرخين الذين تجرَّؤوا بلا استناد الى برهان سديد على نقل تلك الاكاذيب والحكايات الملفقة التي من شأنها تسويد عرض هذا الملك الهمام بل نكذبهم تكذيباً لان كل ما رأينا من الادلة الثابتة التي اوردها ثقات المؤرخين لا يصم سلوكهُ بشين ولا يعيب سيرته بمين ولا يحطّ شيئاً من رفيع مجده بل تتفق كلها على انه كان من اجلّ الملوك قدراً واعظمها غيرة على الدين والوطن حتى يخلق بالروم ان يسموه بالملك الشهيد كما يطلق الفرنسيس هذا اللقب الشريف على ملكهم لويس السادس عشر بل نقول ان قسطنطين قد مات شهيداً عن دينهِ ووطنه ميتة اشرف وامجد من الملك لويس لانهُ بذل طوعاً آخر نقطة من دمهِ في المحاماة والمدافعة عنهما

٣

ولما دخل السلطان محمد الفاتح الى العاصمة اخذ يستقصي عن قسطنطين ويسأل عمَّا كان من امره فارسل رجالهُ يفتشون عنهُ في جميع الجهات فلم يستطيعوا ان يميزوهُ

من بين سائر القتلى الا بعد عناء شديد لانه كان قد خلع ثيابه الملكية منذ بدء الموقعة ليتمكن من الحرب بسهولة وخفةٍ وقد تنكر لئلا يعرفهُ العثمانيون لكن وجدت جثتهُ اخيرًا بين القتلى وانما عُرفت من الحذاءين اللذين كانا في رجليهِ وكانا احمري اللون مرصَّعين بالذهب فقطعت هامتهُ المفلوقة بضربة السيف كما سبقت الاشارة وجيء بها الى السلطان محمد فامر بتعليقها على رأس عمود المرمر الاحمر المعروف بالعمود الاوغسطي ثم انزلها وارسلها الى كثيرٍ من مدن آسيا لتعرض فيها دلالة على انتصاره العظيم لكنهُ أذن لمن بقي من خدام قسطنطين بان يأخذوا جثتهُ ويدفنوها حسب عادتهم المألوفة

الفصل التاسع

في ما جرى على المحاصرين بعد الفتح

١ ـ اخبار بعض القواد من جيش الحصار ـ ٢ ـ مذبحة اجيًا صوفيا ـ ٣ ـ دخول السلطان محمد الفاتح بابهة الى المدينة ومسيره الى كنيسة اجيا صوفيا توًا ـ ٤ ـ فاجعة القائد نوتاراس ـ ٥ ـ قتل كبراء الفرنج والصدر الاعظم خليل باشا

١

كان فتح القسطنطينية يوم الثلثاء بعد احد جميع القديس ليومين بقيا من شهر ايار سنة ١٤٥٣ وروى ثقات المدققين ان قد أُسر يوم الفتح من الروم وغيرهم ستون الفًا وبيعوا ارقاء وقتل اربعون الفًا دون التفات الى كثيرين ماتوا غرقًا عند الهزيمة

وكان المؤرخ الرومي فرنتزيس الذي حارب حتى المنتهى قد تمكن من الهرب والنجاة لكن امرأته واولاده وقعوا اسرى ولبثوا في الاسر حتى افتداهم بمال جزيل ما عدا اصغر بنيـهِ الذي طعنهُ السلطان في صدرهِ فقتلهُ

اما سفير البابا الكردينال ايسيدورس الرومي الذي كان يدافع عن باب القديس ديمتريوس وقد جاهد ببسالة عظيمة وشجاعة فريدة حتى فتح المدينة فخلع ثيابهُ الكردينالية والبسها جثة احد القتلى ولبس اطمارًا خلقة فلما عثر الجنود العثمانيون على الجثة اللابسة حلتهُ قطعوا هامتها واخذوها مع القبعة الكردينالية الحمراء وقدموها للسلطان مفتخرين بانتصارهم على رجل شهير عظيم النفوذ اما الكردينال المتنكر فأُسر وبيع بابخس الاثمان لانه كان شيخًا واهن القوة ولما أُتيحت لهُ فرصة مناسبة اركن الى الفرار وركب سفينة بندقية حملتهُ اولاً الى بلاد المورة ومنها ذهب الى رومية وهناك استقرّ وكتب رسالة عمومية بعث بها الى جميع ملوك وامراء الغرب يخبرهم مفصلاً بما كان من سقوط القسطنطينية وموت الملك وتبدّد امتـهِ امة الروم وحضهم فيها على التضافر لاغاثة المنكوبين

واما القائـد الاكبر نوتاراس فلم يهرب بل تربص في قصره رجاء ان يكتسب صداقة السلطان باعطائهِ الاموال الوافرة التي كانت في بيتهِ وسنأتي على تفصيل مقتلهِ الفاجع

واما الامير التركي أُرخان تريل القسطنطينيـة الذي حارب مع الروم بشجاعة صحبة نوتاراس فلما فتحت المدينة أيس من العفو فتنكر بزيّ راهب وطرح نفسهُ من اعلى البرج ليهرب الى البريّة فتجندل على الارض قتيلًا

واما يستنيانى فبعد ان ضمد جرحهُ الثخين اراد الرجوع الى الحرب لكن لما بلغهُ انتصار العثمانيين سافر الى جزيرة ساقص حيث مات كما اخبر المؤرخ مخائيـل دوكا الذي يمتدح شجاعتهُ ويطلب لهُ في اعتزالهِ الحرب عذرًا خلافًا للمؤرخ فرنتزيس الذي لم يكن من اودّائهِ

واما القائدان الغربيان قنصل البندقية وقنصل اسبانيا فقـد ذُبحا مع اولادهما وكثيرين من جنودهما

٢

وقد لجأ عديدون من سكان الحاضرة الى كنيسة اجيا صوفيًا الكبرى حيث دخلوها ووصدوا الابواب فوافاها العثمانيون وحطموا بالفؤوس ابوابها حتى تمكنوا من فتحها وذبحوا فيها من الروم خلقًا كثيرًا الى ان جاء السلطان فزجرهم عن افراطهم وردعهم . وقد عدَّ المؤرخون هذه المذبحـة عقابًا انزلهُ الله بالروم لان كثيرين من الذين لاذوا بهذه الكنيسة عنـد الضيق كانوا قد ابوا في ايام السلام الدخول اليها والاشتراك مع الكاثوليكيين اعتدادًا أن من دخلها وتناول القربان المقدس فيها يكون قد اشترك بنفس فعلهِ مع الكنيسة اللاتينية لان الملك واعيان مملكتهِ وسائر الكاثوليكيين كانوا يقيمون فيها الصلاة بالاشتراك مع الحبر الاعظم وسفـيره كما يؤخذ ذلك من شهادة المؤرخ الرومي المعاصر ميخائيل دوكا اذ قال :

« ايها الروم اخوتي التعساء الحظ

« لقد دخلتم الى كنيسة اجيا صوفيا كملاذٍ امين في حين انقضَّ عليكم غضب الله . وقد كنتم منذ يومين تعدُّون هذه الكنيسة مرتع الهراطقة ولم يكن واحد منكم يدخل اليها خوف التنجس باشتراكه بالاسرار الالهية مع اخوتكم الذين قبلوا الاتحاد لكن هذه الضربات المريعة التي انزلها بكم الغضب الرباني هيهات ان تسكن روعكم وتجذبكم الى السلام اذ لو قدَّرنا ان ملاكاً هبط من السماء وكلمكم في بحر هذه المصائب الشديدة قائلاً « اذعنوا لوحدة الكنيسة فاستأصل اعداءكم » لكنتم رفضتم مشورته او رضختم اليها رئاء . والذين كانوا من بضعة ايام يقولون : نؤثر الخضوع للعثمانيين على الخضوع للاتين يعرفون ان قولي هو عين الصدق والصواب »

فهذه الشهادة التي جاء بها هذا المؤرخ الرومي الشهير الذي رأى كل ما كتبهُ تشرح لنا شرحاً بيناً عن حالة القسطنطينية الدينية في ايامها الاخيرة اذ ان فيها لحجةً دامغة تدحض آراء المؤرخين الغربيين الذين يذهبون الى انه لم يكن في القسطنطينية الّا حزبٌ ديني واحد وهو حزب الشقاق لانّا نرى جليّاً ان امة الروم كانت يومئذٍ منقسمة الى شطرين قويّين يتنازعانها يخاصم احدهما الآخر حزب الاتحاد وحزب الشقاق فكان من الحزب الاول كثيرون من العلماء والفقهاء كميخائيل دوكا المذكور والملك قسطنطين نفسهُ واكابر دولته وذلك ظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار من هذه الشهادة التي يؤخذ منها ان كنيسة اجيا صوفيا كانت مخصوصة بحزب الاتحاد حتى ان لا احد من حزب الشقاق كان يقبل الدخول الى هذه لئلاّ يتلطخ بالرجس باشتراكه مع أولي الاتحاد ومن ثم ينتج دليل قوي نضيفهُ الى الادلّة الكثيرة الدامغة التي عثرنا عليها فهو يؤيدها و يثبت ما اهمل ذكره المؤرخون ولم يستطيعوا انكاره ألا وهو ان قسطنطين آخر ملوك الروم كان كاثوليكياً محّاً من حزب الاتحاد

اما الذي اشكل على مؤرخي المغرب وجرَّهم الى الغلط فهو الثورة التي اوقد

شرارها سفلة الشعب وطغامهم (كما سبقت الاشارة) منادين بعدم الاتحاد مع الكنيسة والاغتصابات والمحارم التي ارتكبوها مروّعين اتقياء الكاثوليك وفضلاءهم حتى التزم البطريرك القسطنطيني غريغوريوس الذائع القداسة ان يرحل عن الحاضرة تملصاً من اعمال الجور التي كان يقترفها اغبياء الشعب فلاذ برومية واقام فيهـا ولم يكلّ عن نصح الشعب الى روم القسطنطينية حاضًا اياهم على البقاء في حضن الكنيسة الكاثوليكية والاستمساك والكتابة بعروتهـا الوثقى. ولكن فات هؤلاء المؤرخين ان يلاحظوا ان هذه الثورة والاغتصابات والهيجانات التي ثارت ضد الاتحاد وضد البابا والبطريرك كانت في الوقت نفسهِ ضد الملك قسطنطـين لانّا رأينا ان السفلة والرعاع كانوا يهينونه في وجههِ وهو كان يتظاهر بالتجاهل صابرًا صبرًا جميلًا باذلاً راحتهُ وكرامتهُ وحياته عينها حبًّا بالدين والامّة والوطن

فلا شكّ ان قسطنطين كان ومات كاثوليكيا ولا يتجرّأ احد من المؤرخين ان ينكر ذلك دون ركوب خطإٍ جسيم لان كل ما اوردناه عنهُ نقلًا عن فطاحل المؤرخين والكتبة المعاصرين المدققين ينطق باثبات هذا الرأي ولا ريب في ان من تدبر التاريخ المدقق يعتبره حقيقة راهنة ويعد خلافهُ غلطةً قد اصلحهـا التنقيب في عصرنا التاسع عشر كما أُصلحت غلطات تاريخية كثيرة من قبلُ

وما دققنا في تحقيق كاثوليكية آخر ملوك الروم قسطنطين بالحجج الصادعة الّا حبًّا بايضاح الحقيقة وحسمًا لمشكل تاريخي عظيم

٣

وقبل ان نأتي على فاجعة القائد نوتاراس الذي كان من زعماء حزب المضادين للاتحاد نذكر مدخل السلطان محمد الفاتح الى كنيسة إجيًا صوفيًا فانه نحو الظهر جاء المدينة من باب القديس رومانس بابهـة واحتفال عظيم مع وزرائهِ واكابر دولتهِ ولما اجتاز في ميدان القسطنطينية الاكبر طعن برمحهِ رأس الحية النحاسية المثلّثة فكسر

احد رؤسها وكان الشعب يتفاءل بها تفاؤل الشعب الاسرائيلي بالحية النحاسية التي نصبها موسى لخلاصهِ اعتقادَ انها حرز حصين حارسٌ للقسطنطينية. ولما انتهى الى كنيسة اجيا صوفيا ترل عن جواده واخذه الاندهال لدى تأمله عظمة وبهاء تلك الكنيسة التي لم يكن اظرف ولا اجمل منها في العالم كلهِ فدخلها متفقدًا على مهل كلاًّ من هياكلها وزخارفها وقبتها البديعة ولما دخل قدس الاقداس وقعت عينهُ على احد عساكره يقتلع قطعة نفيسة من رخام ثمين فهرع اليهِ وضربهُ بسوطهِ وزجره قائلًا «ألم يكفك يا خبث انت ورفقتك اني ابحت لكم الاستيلاء على سكان وثروات القسطنطينية أوَلم انهكم عن الابنية والحجارة لاني ابقيتها لي»

ثم امر السلطان اماماً فصعد المنبر وشرع يتلو الصلوات حسب السنة الاسلامية. ويزيد المؤرخون ان السلطان ضحى كبشاً على المذبح الاكبر ونصب عرشهُ فوقهُ وجلس حين الصلاة. ويقول المؤرخ التركي خوجه افندي انه منذ ذاك اليوم صعد المؤذن الى القبة العالية وأذَّن داعياً المسلمين الى الصلاة

٤

ولما خرج السلطان محمد من الكنيسة توجه الى قصر نوتاراس القائد الاكبر حيث كان هذا يترقبهُ راجياً تخليص حياتهِ ونوال الحظوة في عيني الفاتح وكان متحصناً في احدى القلع فسلمها للسلطان صلحًا بشرط ان ينجو سالماً فلما انتهى السلطان الى قصره استقبلهُ بمزيد الاحترام والتملُّق وقدم لهُ كنوزًا وافرة قائلًا لهُ انه قد خبأها ليعطيهُ اياها فاغلظ لهُ السلطان الجواب في بادئ الامر قائلًا «ماذا كنت تصنع بهذه الكنوز حين الحصار لِمَ لم تدفعها لملكك حين الحاجة أفي نيتك ان تخدعني كما خدعتهُ» ثم سألهُ «ألم يدفع امة الى يدي هذه الاموال مع شخصك وامَّتك» فاجابهُ نوتاراس «بلى» فقال السلطان «اذن انت لا تعطيني الا ما يخصني» ثم امر بـه فطرح في

السجن . ولكن احضره بين يديه ثانيةً ووبَّخهُ ايضاً متهماً اياهُ انه كان علة تطويل الحرب وسبباً لمنع قسطنطين عن تسليم المدينة فبرَّر نوتاراس نفسهُ وشكا وزيره الاكبر خليل باشا قائلاً انه كان صديقاً لقسطنطين وهو الذي اشار عليهِ بلزوم الشجاعة واطالة الحرب واطلعهُ حينئذٍ على اوراق كثيرة مكتوبة بخط الوزير الى الملك فانبسط قلب السلطان لهذا الخبر وانشرح خاطره لانه كان يطلب علة اكيدة على كبير وزرائهِ لقتلهِ لانه كان قد احسَّ بالخيانة من حين اذاع تلك الاراجيف المخيفة بين معسكر العثمانيين . وحينئذٍ هشَّ السلطان لنوتاراس وبشَّ وأجلسهُ امامه وامر بان يؤتى اليهِ بامرأتهِ واولاده الذين كانوا قد أُخذوا اسرى في المراكب ولما حضروا دفع في يد كل منهم الف ذهب وارسلهم الى بيتهم مع نوتاراس قائلاً لهُ كن مطمئناً فاني ساقيمك حاكماً على المدينة وارفعك الى اعلى المناصب جاعلاً اياك في مرتبة اسمى شرفاً من التي كنت فيها في ايام قسطنطين

وفي اليوم التالي زار السلطان محمد بنفسهِ نوتاراس في بيتهِ حيث كانت امرأته مريضة فعادها السلطان وسلم عليها ببشاشة قائلاً لها «كيف حالكِ ايتها الخاتون اشير عليك بان لا تحزني بما المَّ بكم اذ لا بدّ من الخضوع لاوامر الله واني لقادرٌ ان ارجع لكم كل ما فقدتموه اما انتِ فاعتني بمداراة صحتكِ » وحينئذٍ وقف بنو نوتاراس بين يدي السلطان يشكرونه على الطافهِ وآلائه السنية

ثم رجع السلطان واجتاز المدينة فرآها خاويةً خالية من السكان ودخل قصر الملك الشاهق واخذ يتفقد صاعاتهِ وغرفهُ وابنيتهُ الفاخرة التي كانت قد نُهبت وفيما كان يتعهدها اورد لوزرائهِ مثلاً من اقوال الفرس وهو « ان الرتيلاء بنت بيتها في قصر القياصرة والبومة نعقت في صاعاتهِ المذهبة » ثم اهتم بارجاع اثاث القصر وتزيينهِ كما كان اولاً . وفي تلك الليلة ادب وليمة عظيمة امام باب القصر لكبراء واعيان رجالهِ وفي آخر العشاء حدث ما اغضب السلطان على نوتاراس مما لا يسعنا المقام ذكره

فارسل اليهِ جلادًا ليقتلهُ مع ولديه الكبيرين ويبقي ثالث اولاده الذي كان قد طلبهُ من ابيهِ فابى ارسالهُ لهُ وكان غضًّا بارع الجمال

فلما وصل الجلاد بنوتاراس الى باب القصر اوقفهُ ليضرب عنقهُ فالتمس منهُ ان يقتل ولديه قبلهُ ليكون متأكدًا موتهما في ديانة آبائهما وشجعهما على قبول الموت بشهامة فصرم الجلاد عنق الاول ثم الثاني ولما انتهى الى الاب نطق حسب رواية المؤرخين بهذه الجملة مكررة «الهي انت عادل» ولعلهُ اراد بذلك ان يكفّر عن تلك العبارة الشهيرة التي يعزوها اليهِ اكثر الكتّاب وهي «أحبُّ اليَّ ان ارى القسطنطينية خاضعة للعمامة الخضراء من ان تخضع لتاج البابا» ومن المحتمل انه يكون بها ايضًا قد ندم عما فرط منهُ من قلة امانتهِ لقسطنطين من حيث عدم اسعافهِ في الضيق بكنوزه التي كانت عنده ومن مضادتهِ لهُ بشأن الاتحاد مع الكنيسة الغربية

وكيف كان الامر ان المؤرخين كلهم اجمعوا على امتداح هذه الميتة الشريفة ولو كانوا قد سبقوا فنددوا ببعض اعمالهِ المستهجنة واثنوا على شهامتهِ ولقبوه بشهيد الواجبات الوالدية. فلما قُطعت هامته جيء بها مع رأس ولديه الى محل المأدبة

اما امرأة نوتاراس التي كانت طريحة الفراش فقد فاضت روحها حزنًا واسفًا بعد موت بعلها بزمانٍ يسير واما ابنتهُ حنة فرحلت الى رومية بعد ان جمعت ما تيسر لها من ثروة ابيها ولما وصلت اليها رأت ان لابيها في هذه المدينة جانبًا من المال كان قد اودعهُ فيها لاستدراكهِ ما سيكون من سقوط الحاضرة فجعلت تنفق هذه الاموال في سبيل اغاثة ومؤاساة اخوتها الروم الذين هاجروا الى رومية كما سيأتي بسط ذلك في محلهِ

اما ابن نوتاراس الاصغر الذي كان عمره اربع عشرة سنة فقد أُخذ الى قصر الحرم السلطاني الَّا ان اكثر المؤرخين يذهبون الى انه لما تسنت لهُ فرصة مناسبة اغتنمها هاربًا من القصر الى شقيقتهِ حنة فعاش معها في رومية

وحبا بالحق الذي هو غاية مطلوبنا لا بدّ من القول ان المثالب المقرّف بها نوتاراس نقلاً عن المؤرخين مستندة كلها الى ما كتبهُ المؤرخ فرنتزيس الذي طعن ايضاً على يستنيباني ونسبهُ الى الجبن وعنهُ اخذ سائر المؤرخين على اننا نقول ان فرنتزيس ولو ذا صفات حميدة كان حقوداً يعنف اعداءهُ تعنيفاً شديداً لا يخلو من التعصب الاعمى وكان نوتاراس عدوّاً الدّ لهُ لان فرنتزيس كان يلتمس من الملك ان يمنحه لقب مدبر المملكة « لوغوثيت » الذي كان حاصلاً عليهِ نوتاراس فعارضهُ في ذلك نوتاراس ولهذا لا نقدر ان نثق ثقة تامة بكل ما قال فرنتزيس عن خصمهِ

٥

ثم ان السلطان شدَّد على جنودهِ الامر بعدم قتل من لا يرونه شاكي السلاح وبهذا حقن دماء كثيرين من سكان الروم والفرنج لكنهُ اصدر امراً بقتل كبراء الفرنج الذين عرف اسماءهم من نوتاراس ولم ينجُ منهم الا البندقي كونتاريني وستة من البنادقة فانهم لما بُسط لهم النطع ودنت آجال قتلهم تشفع بهم زوغانس باشا ثاني وزراء السلطان فعفي عنهم بعد ان وعدوا الوزير بدفع سبعة الاف دينار

ثم تقدم زوغانس باشا الى السلطان وشكا خليل باشا الصدر الاعظم الذي رأينا ان نوتاراس قد وشى بهِ ايضاً وطلب الى السلطان ان يبحث عن جرمهِ ابتغاء ان يتربع في منصبهِ . وكان السلطان الفاتح حانقاً على هذا الوزير الشيخ خليل باشا منذ صبائهِ لانه كان يجافيهِ وكثيراً ما اشار على والده السلطان مراد ان يخلعهُ عن الولاية التي عهد اليهِ في سياستها في ايامهِ فلم يتردَّد لهذا السبب ولاسباب اخرى عن الحكم عليهِ بالقتل فسيق الى ادرنة وهناك أُذيق كأس الردى وقد منع ذوي قرباه ان يلبسوا الحداد حزناً عليهِ

الفصل العاشر

في نصب بطريركٍ للروم

١ سماح السلطان للروم بانتخاب بطريرك لهم . ـ ٢ ـ ترحيبه بالبطريرك الجديد جناديوس . ـ ٣ ـ نقل كرسي البطريركية الى الفنار وتنازل البطريرك ووفاته . ـ ٤ ـ اختلاف المؤرخين في البطريرك جناديوس

١

ونفذ امر السلطان فلم يقتل فيما بعد من السكان غير شاكي السلاح لكن أُسر منهم خلق كثير ويقول بعضهم ان السلطان نفسهُ قد افتدى بعضاً من أُسرات الروم من ايدي جنوده اما الذين نجوا من القتل والاسر فهجروا القسطنطينيـة هائمين على وجوههم في القفار والجبال او راكبين البحار خائضين اشق الاهوال فلما رأى السلطان ان العاصمة خلت من السكان واضحت دورها خاوية تنعق فيهـا الغربان رغب في استرجاع الروم الى مدينتهم وتأمينهم تحت ظلِه السلطاني فظنَّ (وقد اصاب ظنـهُ المرمى) ان اقوى وسيلة لذلك انما هي توطيد الهيئة الدينية ونصب بطريرك قسطنطيني كما كان سابقاً لعلمهِ ان الروم شديدو الاعتصام بدينهم فدعا كبار رؤساء الكهنوت وسألهم لِمَ لم يأتِ بطريرككم ليهنئني كما فعل سائر الرؤساء والاعيان فاجابوه « ليس عندنا بطريرك » . وانما قالوا ذلك لا لان البطريرك القسطنطيني كان قد مات بل لان البطريرك غريغوريوس القديس كان قد لجأ الى رومية قبل الحصار تملصاً من تعديات غير المتحدين عليهِ كما سبقت الاشارة فقال لهم السلطان بادروا اذًا الى انتخاب بطريرك جديد حسب عادتكم وانبئوني بكل الاحتفالات التي كان قسطنطين يعملها حين انتخاب بطريرك جديد وقدموه لي حتى افعل كما كان يفعل ملوككم . فاجتمع الاساقفـة الموجودون وقتئذٍ في القسطنطينية وانتخبوا بطريركاً عليهم جناديوس الذي اجمعت آراء اكثر المؤرخين على انه كان هو نفس جرجس سكولاريوس الذي تقدَّم الكلام عنهُ في القسم

الاول اذ كان بمعيـة الملك يوحنا باليولوغ حين انعقاد المجمع الفلورنسي وسنأتي على بسط الكلام عنهُ بعد ذكر الاحتفالات التي جرت له بعد انتخابه فقد رسمهُ مطران هيرقلية في كنيسة الرسل القديسين التي جعلها السلطان كرسياً للبطريرك بعد ان حوَّل كنيسة اجيا صوفيا جامعاً للمسلمين

٢

ويؤكد المؤرخون ان جناديوس هذا لم يكن كاهناً بل رجلاً عالمياً من صف نبلاء المدينة الَّا ان حل هذه المسألة منوطٌ بحل المسألة الاولى التي وعدنا بان نفرد لها بحثاً على حدة . اما الآن فنكمل سياق الاحتفالات البهية التي أُجريت لهُ :

فلما سيم جناديوس بطريركاً سار على الفور الى السلطان يؤدي لهُ فروض التهنئة والاكرام ولما بلغ البلاط استقبلهُ السلطان بما لا مزيد عليـهِ من البشاشة والايناس والهشاشة حتى اذهل كل من كان من العثمانيين والروم انفسهم ثم قال « بما اني انا الآن جالس على سرير القسطنطينية يجب ان اعمل مع البطريرك ما كان قياصرة الروم يعملون معهُ » . فاخذ العكاز الرعائي الفضي المذهب ودفعهُ الى البطريرك قائـلاً لهُ (حسب رأي بعض كتاب ذلك العصر) الكلمات نفسها بحرفها الواحد كما استعملها ملوك القسطنطينية . لكن هذا الرأي مردودٌ كما رفضهُ كثـيرون من المؤرخين اما الاقرب الى الصواب فهو انه قال كما روى الاكثرون « كن بطريركاً حفظك الله تصرَّف بمحبتي وتمتع بكل الامتيازات والحقوق التي كان سلفاؤك بها متمتعين »

ولما انصرف البطريرك شيعهُ السلطان الى باب القصر وهناك وهبهُ جواداً ابيض اركبهُ عليهِ وامر وزراءه واعوانه الباشوات ان يسيروا بمعيته باحتفال واجلال حتى كنيسة الرسل

وكان السلطان محمد كثيراً ما يجتمع بالبطريرك جناديوس ويحادثه عن امور شتى وقد طلب اليه ان يكتب رسالة يشرح لهُ فيها الديانة النصرانية وبراهينها لانه

كان يتوق الى الاطلاع على جميع العلوم وخصوصاً العلوم الدينية

٣

ولم يلبث البطريرك جناديوس طويلاً في كرسيهِ الجديد في كنيسة الرسل لانها كانت مكتنفة بالمسلمين وكان النصارى بعيدين عنها كثيراً وقد رأى يوماً جثة قتيل مطروحة في الكنيسة فداخلهُ الخوف من ان تقع عليهِ تبعة هذه الجريمة فانطلق بنفسهِ الى السلطان يسألهُ نقل كرسيهِ الى مكان آخر قريب من المسيحيين فاجابهُ الى ملتمسهِ ونقلهُ الى كنيسة السيدة الكلية الغبطة «بمّاكارسته» في محلة الفنار حيث لا يزال كرسي بطاركة الروم حتى يومنا هذا

وقد ملَّ البطريرك جناديوس الاقامة في كرسيهِ الجديد ايضاً لما احدق بهِ من القلاقل فاستقال من البطريركية بعد خمس سنين واعتزل في احد اديرة مكدونية عام ١٤٥٨ حيث توفاه الله بعد حولين

هذا واَنّا نطوي الكشح عن البطاركة خلفاء جناديوس الذين لم يكونوا يستقيمون على الكرسي القسطنطيني الا مدة يسيرة وانما نغفل اخبارهم لان تاريخهم خارج عن محور كتابنا هذا الموجز ولان انتخابهم وعزلهم بالتعاقب في اثناء سنين قليلة وحسب الاهواء الشخصية مما يفعم القلوب حزناً وغماً وفي اخبارهم ما يسوء في عيون القوم ويسوّد صفائح التاريخ فنضرب عن كل ذلك صفحاً

٤

وانقسم المؤرخون في البطريرك جناديوس الى فئتين ولم يزالوا في شقاق ونزاع بشأنه فقد اجمعوا طرّاً انه هو نفس جرجس سكولاريوس الذي رافق الملك يوحنا الى المجمع الفلورنسي لكنهم يفترقون في هل كان هو ذلك الراهب جناديوس الذي سبب ثورة الشعب في عهد الملك قسطنطين يوم تلاوة صك الاتحاد المقدس كما سبقت الاشارة ام كان رجلاً آخر غيره. فذهب الاكثرون الى انه كان هو نفسه وذهب

آخرون الى انه غيره اي كان عصرئذٍ شخصان متفقان باسم جناديوس لكن مختلفان رأياً ومشرباً . وجرى على هذا الرأي الاب ممبور الذي عاش في القرن السابع عشر وكتب عن شقاق الروم . وذهب اليهِ ايضاً الاب بتسيبيوس اليوناني الذي ألَّف في قرننا هذا التاسع عشر كتاباً عن الكنيسة الشرقية . على اننا لا نقطع بارجحية احد الرأيين كما لا يمكننا ان نجزم بان جرجس سكولاريوس بقي محافظاً على وديعة الاتحاد ولاحين نصب بطريركاً على القسطنطينية كما يحقق كثيرون مثبتين انه انما استقال من البطريركية لما عانى من الامتهان من قبل اهل الشقاق . ولا نستطيع ايضاً ان نؤكد انه بعد رجوعهِ من المجمع تقلَّب رأيه وانضم الى حزب المضادي الاتحاد

لكن لدينا ما يؤيد اعتصامهُ الدائم بعروة الاتحاد وهو ان التآليف الباقية منهُ هي جميعها موافقة للايمان الكاثوليكي مناقضة للشقاق . وهذه المصنفات هي : ١ً رسالة لاساقفة الروم تأييداً للاتحاد ٢ً الخطب الثلاث التي القاها في المجمع الفلورنسي وقد تقدم الكلام عليها في محلها ٣ً مقالة في انبثاق الروح القدس ضد مرقس الافسسي . ٤ً كتاب في الانتخاب والرذل ٥ً كتاب المحاماة عن مجمع فلورنسة

وكيف كانت الاحوال ان كانت البينات التاريخية لا تبتّ هذه المسألة فان الكتب الباقية تحملنا على ضعف الظن في ان جرجس سكولاريوس الذي سُمّي بطريركاً باسم جناديوس كان هو عين الراهب جناديوس الذي ذكر عنهُ المؤرخ دوكا الرومي « انه كان يكتب دائماً ضد المجمع ويؤلف اقيسة لابطال الاتحاد » . فهيهات اذن ان الذي كتب تلك المصنفات تأييداً للوحدة الكاثوليكية يصدق عنهُ انه غيَّر مبادئه واضحى عدواً للاتحاد ولاسيما اذا كان هذا الزعم غير مستند الَّا الى اساس الشك والارتياب وليس لهُ ركن تأريخي يوثق به

الفصل الحادي عشر

في ما عمل السلطان بالبلاد المجاورة بعد الفتح

١ تسكين السلطان لقلق الاميرين توما وديمتريوس صاحبي المورة ثم استيلاؤه على بلادهما . ــ ٢ ــ سقوط مملكة طرابزون . ــ ٣ ــ قتل ملكها داود مع اولاده السبعة

١

انَّا لا نتحرَّى البحث هنا في سائر الاعمال والحروب التي اتاها السلطان محمد الفاتح اذ لا علاقة لها بموضوع تاريخنا لكن لا بدّ ان تتوق نفس القارئ ان يعرف بعد سقوط مملكة الروم ماذا حلّ بسائر فروع آل باليولوغ الملكي ولاسيا توما وديمتريوس اخوي الملكين يوحنا وقسطنطين اللذين كانا متولين على بلاد المورة . فها نحن نبسط الكلام عنهما وعن اصحابهما بايجازٍ مميطين اللثام عن كثيرين من الروم الذين هاجروا الى المغرب طاوين في صدورهم كنوز المعارف والعلوم التي غرسوها في ايطاليا اولاً ومن ثم امتدت الى سائر البلاد الاوربية وجاءت بالاثمار الشهية وما زالت تتزايد نموًّا وإزهارًا حتى يومنا هذا

فلما رأى توما وديمتريوس ما كان من سقوط القسطنطينية وما حلّ باخيهما قسطنطين داخلهما الخوف وعلما بانهما لا يستطيعان الى مقاومة السلطان محمد سبيلًا وان لا بدّ يومًا ان ينالهما ما نال اخاهما فتألَّف قلباهما بعد ان كانا متنافرين وعقدا العزم على جمع كل ما يملكان من الكنوز والتحف والرحيل بها الى ايطاليا حيث يعيشان بسلام تاركين الديار تنعي من بناها

الا ان السلطان ادرك نيتهما فلم ترُق في عينيهِ لانه خاف ان يتولى على بلادهما ملك آخر غيره فينشر عليهِ الحرب ويقاومهُ طويلًا فبعث برسل الى توما وديمتريوس يسكن جاشهما ويعدهما بالسلام والامان ليعيشا في بلادهما بالراحة والاطمئنان فسكن روعهما لان السلطان انجز وعده لهما فلم يثر عليهما حربًا مدة سبع سنين متوالية كان

متشاغلاً في غضونها ببعض مخاصمات ومناوشات مع اسكندر بك ويوحنا الهوني اللذين حاربهما بشجاعة غريبة لكن الحظ لم يسعده بالظفر عليهما

ولما كانت سنة ١٤٦٠ اغتنم السلطان محمد فرصة شقاق وقع بين الاميرين توما وديمتريوس للتدخل في امرهما وضم بلادهما الى سلطنتـهِ وذلك لان ديمتريوس كان قد دخل مدينة سبرتة ووصد ابوابها متمكناً فيها لكنهُ لما رأى السلطان زاحفاً عليهِ بجيوشهِ الجرارة انخلع قلبهُ وسلّم البلد صلحاً مذعناً لكل ما رسم عليـهِ من الشرائط وقضى سائر عمره ممقوتاً من اهل وطنـه عائشاً في ادرنة تحت ظلّ السلطان الفاتح وكانت وفاته بعد احد عشر عاماً. اما اخوه توما فكان ثبت الجنان وقد احسن الجهاد ولاسيما حين حوصر في قلعة كورنثس

لكن لما رأى توما ان قد دنا سقوطهُ اغتنم الفرصة فركب احدى سفن البنادقة هو وسائر بطانتهِ وسافر الى انكونه ومنها الى رومية حيث استقبلهُ البابا بيوس الثاني بمزيد الرعاية وكان حاملاً اليهِ هدية نفيسة الا وهي رأس القديس اندراوس الرسول الذي وُضع باحترام في كنيسة الرسولـين بطرس وبولس. وقد نال التفات البابا فاخذ منهُ براءة عامة الى جميع ملوك المغرب تستحثهم على حشد الجيوش والتكاتف لمساعدة المنكوبين فلم تنجع هذه الوسيلة. فعاد الى ايطاليا واخذ يبذل قصارى همهِ في ملافاة فقر اخوتهِ الروم وغمرهم بالحسنات وبسط لهم كل ضروب الاعانات واجتهد في نشر العلوم والمعارف حتى توفاه الله سنة ١٤٦٥

٢

وتتمةً لاخبار انقراض سلطنة الروم نذكر شيئاً عن سقوط مملكة طرابزون الصغيرة التي كان جالساً على سريرها يومئذٍ داود كمنين من سلالة قياصرة القسطنطينية :

ان السلطان الفاتح جعل يعدّ الجيوش ويجهز المهمات الحربية دون ان يطلع احداً على

مرامه ولا الى اي البلاد تسير هذه الجنود . ويروى عن ثقة ان احد اركان حربه سأله يوماً « ضدّ اي من الاعداء في اوربا او اسيا تجهز هذه الجيوش الجرارة » فنظر اليهِ شزرًا وقال لهُ « لو كانت في لحيتي شعرة تعرف ما اطويه من النوايا لكنت قلعتها وطرحتها في النار »

وقبل ان يحمل السلطان محمد على طرابزون زحف بجيوشهِ على شاه الفرس ليحاربه خوفاً من انه يأتي لمساعدة ملك طرابزون اذ توسم منهُ انه يروم الاستيلاء عليها بتزوجه بنت داود كمنين . ثم ارسل احد قواده محمود باشا الذي كان نصرانياً فاسلم ليحاصر طرابزون ويفتحها لكن هذه المدينة كانت منيعة فقاومت المحاصرين بشجاعة ودفعت هجماتهم بشدةٍ اثنين وثلاثين يوماً فعمد محمود باشا الى الحيلة واراد ان يناجي الملك داود وجهاً الى وجهٍ فلما اختلى به اعرب لهُ بصراحة عمَّا ستؤول اليهِ حالهُ ان لبث مصرًّا على مقاومة السلطان ومحاربتهِ ثم اغراه مقنعاً اياه بحجج دامغة انه اذا اسلم المدينة وخضع للسلطان نال عنده مقاماً رفيعاً وقدم لهُ نفسه مثلاً معترفاً انه كان من اشرف اسرات القسطنطينية ولما دخل في دين الاسلام واخلص للسلطان الخدمة رقَّاه الى اعظم المناصب حتى شرَّفه اخيرًا بلقب الصدر الاعظم . فانخدع الملك داود بقول محمود باشا وسلّم المدينة صلحاً لكنهُ ندم حيث لا ينفع الندم

٣

فنقل الملك داود مع اسرته الى القسطنطينية ثم سُعي به لدى السلطان انه كتب رسائل يخابر فيها اعداءه ملوك الغرب حتى البابا عينهُ فلم يشإِ السلطان فحص هذه الشكوى بل عرض على داود اختيار احد شيئين امَّا ان يدخل في دين الاسلام وامَّا ان يُقتل وكان الملك شيخاً جليلاً فأبى الا ايثار الموت على الحياة فقتل وحذا حذوه بنوه السبعة كلهم فقتلوا في إثره وكانت امهم الملكة هيلانة من سلالة آل كنتا كوزين تشجعهم على تجرُّع كأس المنون حتى آخر ساعة من حياتهم كما فعلت في العهد القديم صالومه

ام المكابيين السبعة وكان مصرعهم خارج اسوار القسطنطينية وقد امر السلطان بان تبقى اجسادهم بلا دفن مأكلًا للوحوش ولطير السماء امَّا الملكة الباسلة فلبثت كل الليل ساهرة على جثث بعلها وبنيها مبعدة عنها الكلاب والطيور ويروى انها عند الصباح جاءت بمعول واحتفرت لهم لحدًا ودفنتهم فيهِ فلما رأى الحرَّاس العثمانيون ما كان منها تعجبوا من هذه الجلادة والشجاعة الغريبة ولم يعارضوها بشيء

الفصل الثالث عشر

في بعض المهاجرين من علماء الروم

١ نزلاء فلورنسة وعقدهم بمساعدة اميرها جمعية علمية . ــ ٢ ــ الكردينال بساريون . ــ ٣ ــ بعض تآليفهِ

١

ونذيّل تاريخ انقراض سلطنة الروم بذكر بعض مشاهير الروم الذين هاجروا الى ايطاليا ونشروا فيها معارفهم وفنونهم فاحيوا فيها قوام العلوم والصنائع فنجحت نجاحاً عظيماً وامتد نورها الى سائر اقطار المغرب حتى سمي ذاك العصر عندهم بعصر الانبعاث والتجدُّد

لما سقطت القسطنطينية تفرق اهلها ايادي سبا فرحل بعضهم الى صقلية وهاجر البعض الى البندقية وآخرون الى انكونا ومن ثم كان كثيرون منهم يرحلون الى رومية والى فلورنسة حتى جعلوا هاتين المدينتين العظيمتين عصرئذٍ مركزين تنبعث منهما اشعة شمس العلوم والفوائد الى العالم كلهِ

اما الذين نزلوا فلورنسة فقبلهم بالترحيب والتكريم اميرها قزما دي مديسيس الذي كان قد ابرم علائق الوداد والصداقة مع بعض علماء الروم يوم حضروا مجمع فلورنسة وقد قدم لهُ احدهم جميستس بليطون القسطنطيني نسخة خط من كتاب افلاطون فلما قرأه قزما شغف بهِ ومن ثم عقد النية على تأسيس جمعية للعلماء تنتمي الى افلاطون واشتد كلفهُ بهِ حتى عزم ان يعقد حفلة جامعة اكراماً لهُ وقد ضرب لها موعداً اليوم الثالث عشر من تشرين الثاني فحضرها جميع محبي وتابعي فلسفة افلاطون من علماء الروم والايطاليان وذلك في قصر مصيف الامير الواقع وسط روضة بهية كان قد نصب بين اشجارها عمود رخام وضع فوقهُ صورة افلاطون وعلى رأسهِ اكليل

ذهب وهناك بعد ان جلس العلماء على مأدبة فاخرة قام كل منهم يتلو القصائد والنشائد اكراماً لافلاطون

ومن علماء الروم الفطاحل الذين هاجروا الى فلورنسة كان ثاودور غازا التسالونيكي وجرجس الطرابزوني ويوحنا ارجيروبولس وديمتريوس ككنديلاس الذي كان استاذاً للامير يوحنا مديسيس واخيراً قسطنطين ويوحنا لسكاريس الا ان قسطنطين هذا كان قد اتى ايطاليا بكتب كثيرة من القسطنطينية بقي منها الى اليوم كتب المؤرخين هيرودوتس وثيكيديدس والشاعرين اوريبيدس وسوفكلس والفيلسوفين افلاطون وارسطو وهي مسطرة اغلبها بخط يده وقد علق على كتاب سياسة ارسطو الذي نسخهُ بيده الكلمات الآتية ترجمتها:

« شكراً عظيماً لله ينبوع كل خير. هذا الكتاب هو عمل قسطنطين لسكاريس البزنطي وخاصتهُ ثم يصير الى الذي يفهمهُ »

وقد عبثت بهذه الكتب ايدي الزمان فنقلت بعد التقلبات والحروب الى اسبانيا ووضعت في مكتبة قصر اسكوريال في مدريد حيث نقلت معها رسائل كثيرة كتبها قسطنطين الى اخوتهِ الروم الذين هاجروا الى ايطاليا وكتاب جليل ألَّفهُ في التاريخ العامِ مختصراً حتى سقوط القسطنطينية وهو بعد ان ذكر موت قسطنطين ختم كتابهُ بهذه الالفاظ:

« بموتهِ ماتت مملكة الروم والحرّية والشرف والفصاحة وكل خير »

وقد نشأ من فرع آل لكساريس رجل علاَّمة اسمهُ يوحنا اعتنى في اذاعة العلوم في فلورنسة ورومية وغيرهما

٢

اما مكتبة القديس مرقص في البندقية فكانت دون مكتبة فلورنسة بالغنى لكنها كانت واعية كتباً عديدة باليونانية والعربية وقد اسسها الكردينال بساريون اليوناني

ووهبها لهذه المدينة قائلاً: «اني اهب هاتهِ الكتب الى هذه المدينة التي تسوسهـا الحكمة والشرائع ضاربة فيها اطنابها والفطنة والصدق مالكان فيها والفضيلة والاستقامة رائعة في جوانبها»

وكان بساريون همهُ في روميـة تأييد الكنيسة الكاثوليكية بين الروم ونشر العلوم والمعارف وكان بالخصوص يبـذل قصارى جهده لاعانة المنكوبين من بني جلدتهِ رامقاً اياهم بعين المساعدة ماداً لهم يد الاسعـاف كابٍ حنون كريم وقد جمع شمل الراهبات اللائي رحلنَ معهُ الى ايطاليا في دير واحد حيث تمكنَّ من ممارسة جميع قوانينهنَّ وصلواتهن واعمالهن التقويَّة حسب الطقس الشرقي. وكان رئيسـاً على دير كروتافرَّاتا (المغارة الحديدية) الواقع في ظاهر روميـة في المحل المعروف بمصيف شيشرون حيث كان يجمع اليهِ كثيرين من علماء مهاجري الروم ويتباحث في فنون الادب والفلسفة بمجادلات ومناقشات مفيدة فكان ديره كمدرسة عالية يتلقى فيهـا عشَّاق العلم ما تتوق اليهِ انفسهم من المعارف ولاسيما الفلسفـة التي لم تكن تقتبس عن افلاطون وحده كما في فلورنسة بل كان يضاف اليها فلسفـة ارسطو الذي اصلح كثيراً من اغلاط افلاطون معلمهِ وكان يفد عليهِ للزيارة جميع العلماء نزلاء فلورنسة ولاسيما الذين اشرنا اليهم آنفاً كجرجس الطرابزوني وجيمستس بليطون وغيرهما

٣

وقد ألَّف بساريون كتاباً في الفلسفة في ما وراء الطبيعـة تبعاً لارسطو وترجمهُ الى اللاتينية وصنَّف ايضاً كتاب ردّ ضداً لخصوم افلاطون واَلَّف كتباً فلسفية كثيرة ورسائل وخطباً عديدة عن مواضيع شتى كانت غايتها مزدوجة اي اتحاد الروم بالايمان الواحد وتخليص القسطنطينية. واشهرها رسالتهُ التي بعث بها الى الكسيس لسكاريس بشأن مجمع فلورنسة المسكوني وانبثاق الروح القدس وهي طويلة مثبتة في آخر اعمال المجمع شاغلة ستين صفحة كبيرة على قطع كامل وبما ان المقام يضيق دون

ذكرها برمتها نقتضب منها فاتحتها لانها تدلنا على الاعمال التي كان بساريون يتشاغل بها في تلك السنين بشأن الوحدة ونلمع الى سائر الرسالة بوجه الاختصار

قال في اوَّلها:

«بساريون كردينال الكنيسة الرومانية المقدسة الى الشريف والموقَّر لسكاريس محب الناس

« اني اعرف انك لا تهتم فقط بمطالعة العلوم البشريَّة بل انت ايضًا تنكبُّ على درس العلوم الالهية. ويلذُّ لك التأمل في الكتب المقدسة ولا يثنني عزمك عن البحث في حقيقة الايمان وكثيرًا ما سألتني ان اعينك على ادراك سبيلها فاعاقني عن اجابة سؤالك ثبوط همتي بنزول الشيخوخة وتركي هذه المباحثات والمجادلات التي كثيرًا ما تداولتها مع الروم اخوتي. لكن عوَّلت الان على استئناف هذه المجادلات معك لاني اعرف انك لست من الذين يؤْثرون اوهامهم وجهلهم على الحق بل اعهدك بالعكس رجلًا ممتلئًا من الحكمة والتواضع تسأَل لا لمماحكة بل رغبة في الوصول الى الحق. فعلى رأيي الخصوصي ان سلطان المجمع وحده كافٍ ليقنع ايًّا كان ويجذبهُ الى قبول نتيجة المجمع بقلب متواضع وتصديقها بسذاجة وبدون مضادة اذ في اجتماع عدد كبير من رجال مزدانين بالحكمة والعلم والفضيلة حيث كان الروح القدس في وسطهم لا نستطيع ان نفتكر بان الحقيقة كانت مخفية»

ثم ذكَّره الكردينال برسالة بعث بها اليهِ قبلًا. وفي فصل ثانٍ ذكر لهُ كل تاريخ المجمع باختصار وقد جئنا على ايراده في القسم الاول من كتابنا. وبعد ان اورد بعض قواعد وبراهين لاهوتية مختلفة عن امور شتى ولاسيما عما تعلمهُ الكنيسة عن اقنوم الاب اوضح في الفصل السابع قضية انبثاق الروح القدس مسهبًا عليها الكلام ومؤيدًا اياها بعشرين حجة دامغة واخصها تلك الحجة الشهيرة التي ذكرها القديس توما في تأليفهِ وهي لا تقبل ردًّا: «ان كان الروح القدس لا ينبثق الَّا من الآب

فقط فهو لا يتميز عن اقنوم الابن بشيء وعليه فلا يكون في الله الّا اقنومان اثنان فقط »

وفي الفصل الثامن والتاسع يدحض الاعتراضات التي يوردها الخصوم ضد انبثاق الروح القدس من الكتاب المقدس والآباء والقديسين

وقد انهى الكردينال رسالتهُ بتحريضهِ لسكاريس على ان يقرأ بتأنٍ وتمعن كتب الآباء القديسين الشرقيين والغربيين التي بعث اليهِ بها صحبة رسالتهِ هذه

الفصل الرابع عشر

رسالة الكردينال بساريون العامة الى جميع الروم

١ ـ امة الروم قديمًا وحالاً ـ ٢ ـ سبب هذه الحال ـ ٣ ـ مداواة الاحوال ـ ٣ ـ كيف بُحث في مسألة الروح القدس في فلورنسة ـ ٥ ـ برهان على انبثاق الروح القدس ـ ٦ ـ ردّ اعتراض ـ ٧ ـ براهين جديدة لدعم الحقيقة نفسها ـ ٨ ـ اعتراض آخر ورده ـ ٩ ـ الكنيسة هل هي عند الروم وحدهم ـ ١٠ ـ الكنيسة الحقيقية هي الكنيسة الرومانية ـ ١١ ـ محبة الكردينال لاخوته وكيفية ادراكه الايمان الصحيح ـ ١٢ ـ جوابه على اعتراض بشأن الانبثاق ـ ١٣ ـ ادارة الكنيسة من رئيس واحد ـ ١٤ ـ اثبات سلطان البابا الاسمى بالحوادث ـ ١٥ ـ النتيجة

لما اختلّت احوال الكرسي القسطنطيني بما جرى من التقلبات في انتخاب البطاركة وعزلهم خلافًا للقوانين الكنسية اقام البابا الكردينال بساريون بطريركًا للقسطنطينية ولو مقيمًا في رومية وحينئذٍ كتب رسالته العامّة الى جميع الروم ولما كانت من الاهمية بمكان احببنا ترجمتها برمتها :

بساريون

برحمة الله تعالى كردينال الكنيسة الرومانية المقدسة و بطريرك القسطنطينية

رومية الجديدة

الى جميع الخاضعين لكرسي القسطنطينية البطريركي

نعمة وسلام وبركة من لدن الله القادر على كل شيء

كنتُ اودُّ ايها الاخوة والابناء الاعزَّاء ان اكون فيما بينكم واكلمكم وتكلموني بشأن خلاصكم وبما ارغب واتمنى ان اراكم تقولونهُ وتعملونهُ لكن أبت الاعمال الكثيرة التي تشغلنا والمسافات الطويلة التي تبعدنا عنكم الّا ان تحول دون المرام فبقي علينا ان نخاطبكم بالكتابة ونطلعكم بالرسالة على جزء ولو يسيرًا مما كان يمكن ان نقولهُ معًا لو كنت حاضرًا فيما بينكم

فاسأل الله الذي يعلو كل شيء ان يمس قلوبكم فتصغوا لاقوالي بمثل المحبة التي تحملني على ان اقولها لكم لان الذي لا يخفاه شيء والعارف طوايا القلوب يشهد عليَّ ان بعد الغيرة الالهية محبةَ امتي هي التي تدفعني الى ان اقول لكم ما انا مطلعكم عليهِ ولا تسمح لي الاحوال ان البث صامتاً واخفي عنكم ما انتم مضطرُّون الى معرفتهِ

١ امة الروم قديمًا وحالاً

فاذاً قبل كل شيء اذكروا يا اخوتي ويا اولادي الروحيين ما اجلّ وما اعظم ما كانت امتنا مزدانة بهِ من الحكمة وسائر الفضائل وابهة القدرة والسلطة حسب العالم فان رجالنا كانوا المنشئين الاولين لكل فلسفة وعلم فضلًا عن انهم رقوهما الى اوج الكمال . وبيننا سطعت كل قداسة وفينا قامت السلطنة العامة . اما الآن يا لفرط التعاسة ودهاء المصيبة فلم نفقد السلطة فقط بل صرنا عبيدًا ارقّاء . . .

اما حظ الحكمة عندنا فامسى اقبح واتعس اذ لم يبقَ لها بيننا من اثر بعد عين لان المرء لا يسعى وراءها ولا يجدها الّا بعد حصولهِ على ما يقوم باود عيشهِ فها نحن اولاً وقد عُرّينا من كل هذه الخيرات بسبب الاستعباد وما وليه من الفاقة صرنا لا نسأل عن حكمة ولا نفتش عن العلم . اما الفضيلة التي تقوم سبل المتحلين بها وتجعلهم صلّاحاً وخليقين بكمل ثناء فاعرف انها باقية لدينا وارغب ان تبقى دائماً . لكن كيف حدث ان اناساً ادباء فضلاء فقدوا على هذا الاسلوب الحكمة والسلطنة والحرية نفسها . لان علّة هذه المصيبة الدهماء ليست من النصيب ولا الصدفة ولا اتفاق الاشياء ولا المقدَّر اللهم ان لم يعتقد ان الحوادث ليست مسوسة من العناية الالهية وهذا مستحيل

٢ سبب هذه الحال

ان من الناس قوماً ينظرون الى انفسهم بعين الاتضاع والاحتقار فيفكرون ان علّة مصائبنا وبلايانا انما هي ثقل خطايانا لكن ليس الامر كذلك فاننّا لا نغضب الله

اكثر من سائر الامم المسيحية التي لا تزال راتعة على بسط الرغد والرفاهية فقد قيل وبالصواب قيل ان آدابنا ليست بادنى رتبة من آداب امة اخرى ايّة كانت بل هي ارفع من آداب امم غيرها .

فنخاف اذاً ان تكون رزايانا هذه قد تولدت عن انحرافٍ عن حقيقة الايمان وشطط في العقائد الصحيحة وانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية لان بعضاً من رجالنا (١) بمجرد كبريائهم الخاصة قد بدؤوا بالشرّ مختلسين لانفسهم سلطة لا سلطة بعدها والذين جاؤوا بعدهم ورثوا منها ذلك لا بسوء نية شخصية لكنهم انقادوا الى الشر بخطإٍ سلفائهم فعلى جميع الناس ارباب الحجى والعقل السليم ان يمحوا ويلاشوا هذا الشر. ذلك فرض واجب عليهم وشرط لا بد منهُ للخلاص

٣ مداواة الاحوال

ولهذا يا اخوتي واولادي الاعزاء بالروح القدس ارجوكم واتضرع اليكم ان تبذلوا كل الغيرة وقصارى الجهد لاسترجاع مجد الامة القديم ولاحياء سابق شهرتها الساطعة حتى اذا تبعنا علماءنا القدماء وآباءنا القديسين المتفقين بايمان واحد وتعاليم دينية واحدة مع ما تعلمه وتحفظه اليوم الكنيسة الرومانية ابتعدتم عن هؤلاء المحدَثين الذين كانوا سبباً لشقاق الكنائس المشؤوم وقبلتم باحترام ديني المجمع المعقود في فلورنسة معتصمين ومتشبثين انتم ايضاً بكل ما حُدد بمساعدة الروح القدس بشأنه

٤ كيف بُحث في مسألة الروح القدس في فلورنسة

لقد قدمت حينئذٍ حجج عديدة قوية بشأن هذه العقيدة وكان كل من الفريقين يسهب في تأييد رأيه اما الانتصار فكان لهذا التعليم القائل بان الآب والابن هما مبدأٌ واحد للروح القدس وانه ينبثق منهما كمن نفخة واحدة (προβολέως) وقد

---

(١) يريد بهم على الغالب فوتيوس وميخائيل كيرولاريوس

جيء بشهادات كثيرة من القديسين والعلماء لا من الغربيين فقط بل من الشرقيين آبائنا تأييدًا لهذا التعليم الذي توطد ايضًا ببراهين عديدة فهل تظنون يا اخوتي انّا بحثنا في هذه المسألة باهمالٍ وقلّة اعتناء كلاَّ لقد قضينا ليالي برمتها وتيقنوا انّا بذلنا جهدًا جاهدًا على اننا رضخنا للحقيقة اذ حاشى لنفس مسيحية صادقة ان تغمض العين عن الحقيقة البادية لها

وكان في ودّي ان آتي هنا بشيء من تلك البراهين لكن حال دوني ضيق هذه الرسالة ويسهل عليكم ان تطالعوها في غير موضع باسهاب لا استطيعه الآن فان كثيرين من الافاضل الذين سبقونا قد نشروا في هذا الشأن مقالات عظيمة جميلة ونحن ايضًا قد نشرنا من ذلك كثيرًا إما تلبية لطلب اصدقائنا واما بيانًا للثمر الذي جنيناه من ابحاثنا الخصوصية وإما لرد اعتراضات المناقضين ودحض سفسطاتهم الواهية وهذا كله هو عندنا او عندكم تتداوله ايدي الراغبين في المطالعة والتعلم واذا شاء احدكم ان يعير لذلك اذنًا صاغية مستقيمة بدون روح المخاصمة يستطيع بعون الله (اذا شاء ان يفهم) ان يستنتج فائدة عظيمة

٥ برهان على انبثاق الروح القدس

ومع هذا اذكر هنا من تلك البراهين واحدًا فقط وبايجاز رغبةً في ان اتجاوزه الى غير امور :

يدعى الروح القدس روح الابن كما يدعوه الابن نفسه الذي يسميه ايضًا روح الحق والحق هو الابن نفسه ايضًا وكذا يقول غالبًا الرسول العظيم القديس بولس كما جاء في رسالته الى غلاطية (٤ : ٦) وبما انكم ابناء ارسل الله روح ابنه الى قلوبكم . وفي رسالتهِ الى الرومانيين (٨ : ٩) قال ان كان احد ليس فيهِ روح المسيح فهو ليس منهُ . وقد كرر مثل هذا القول في مائة موضع فهذه الكلمة وحدها يا اخوتي تكفي لبيان كل شيء اذ لا حاجة الى الافاضة في كلام كثير فهو اذًا روحه حقيقيًا وجوهريًا

لا مكتسباً وعندما يكون شيء من آخر على هـذا النمط من الضرورة ان يكون لهذا الشيء الآخر بازاء الناجم منهُ ضرب من الاولية السابقة إما اولية وسابقية المصدرِ بازاء الصادر منهُ و إما اولية وسابقية الخالق بازاء المخلوق الّا ان هذه العلاقة الاخيرة لا يمكن ان تنسب للروح ما لم يُعدّ من الخلائق لكن مجرد الفكر في هذا محض كفر فاذاً بقيت لدينا العلاقة التي بين المصدرِ والصادر منهُ ولا يمكن ان يتصور غيرها

٦ ردّ اعتراض

على ان البعض هرباً من الحق يعترض علينا بقوله ان هذه التسمية « روح الابن » تبين اتحاد الابن والروح القدس بالجوهر مثل القول بانه « مرسل من الابن » وما اشبه الا ان هذا لأوهى من نسج العنكبوت ولقد ابناه مراراً شتى لانه لو كان الروح القدس قد سمي بروح الابن لاجل اتحادهما بالجوهر لامكن لاجل هذا السبب نفسه ان يقال عن الابن انه (ابن وروح) الروح القدس لكن لا يوجد لهذا اثر البتة وان كان الروح القدس سمي هكذا لانه مرسل من الابن ففي ذلك برهان يؤيد قولنا لان ارسال الروح القدس وابثاقه واصداره كمن ينبوع كل ذلك يفرض ارسالاً وابثاقاً جوهريّاً وما من احد يستطيع ان يرسِل قبل ان يبثق كما اوضحنا ذلك غالباً بحجج قوية دامغة

وتملصاً من هذه الحقيقة قال مواطنونا اشياء كثيرة لا طائل تحتها الا ان المعتصمين بالحقيقة اجابوا عليهم بافاضة وقوة ونحن اعرَف بكل ذلك من غيرنا اذ اتفق لنا انّا جاوبنا مراراً على المعترضين . ولئـلاّ يضيق بنا المقام نطوي عن كل هذا كشحاً اما الراغبون في مزيد بيان في هذا الشان فنحثهم الى مطالعة ما كتبنا سابقاً

٧ براهين جديدة لدعم الحقيقة نفسها

والآن نقول لكم بملء الثقة ان الكلمة المذكورة آنفاً تكفي وحدها لتوضيح هذه الحقيقة ان الروح القدس ينبثق من الابن والآب كمن مبدإٍ واحد ومن مصدر

واحد فلو كنت بينكم ولو كنت استطيع سبيلاً الى مخاطبتكم واستماعكم لكنتم عرفتم ان في ذلك شهادات عديدة من الكتب المقدسة كهذه الشهادة « الروح الذي ارسله اليكم من عند الآب » (يوحنا ١٥ : ٢٦) وهذه الاخرى « يأخذ مما لي ويخبركم » (يوحنا ١٦ : ١٤) وهذه ايضاً « يتكلم بكل ما يسمع » (يوحنا ١٦ : ١٣) وامثالها فمن كلٍّ من هذه الشهادات تتضح بكل سهولة حقيقة الايمان الذي تعلمه الكنيسة الرومانية وتذيعه اليوم كما كانت سابقاً والذي اعتقدت به الكنيسة برمتها منذ الابتداء

٨ اعتراض آخر وردُّه

ولعلكم تعترضون عليَّ بان الرب نفسه قد قال « روح الحق الذي من الآب ينبثق » (يوحنا ١٥ : ٢٦) دون ان يضيف انه منبثق منهُ ايضاً . فما هذا يا اخوتي انه لم يقل البته انه لا ينبثق منهُ ومهما تخيل من القوة في هذا القول لا يؤيد شيئاً من اعتراضكم لان الرب نفسه قال « فاما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمهما احد ولا ملائكة السموات الا الآب وحده » (متى ٢٤ : ٣٦) وايضاً « ان تعليمي ليس هو لي بل للآب الذي ارسلني » (يوحنا ٧ : ١٦) وكذلك « ليس احد يعرف الابن الا الآب » (متى ١١ : ٢٧) ومع هذا القول الصريح نعتقد الخلاف وحسناً نصنع ونؤكد انه يعرف ذلك اليوم وتلك الساعة كما يعرفهما الآب وانه يعرف نفسه كما يعرفه الآب ايضاً وان تعليمه هو بالحقيقة منهُ ايضاً فاذاً ان كنا نصدق بايقان و يحق لتصديقنا الفخر بما قد أُنكر صريحاً فلماذا اذاً لا نصدق هنا ايضاً بتقوى ما لم ينكر البتة

٩ الكنيسة هل هي عند الروم وحدهم

علينا ان نبحث في هذا الامر ايضاً : ان المسيح وعد انه على ايمان بطرس يبني كنيسته وان ابواب الجحيم اي جلبة الهراطقة الباطلة لن تقوى عليها لكن اين هي الكنيسة التي هذه صفتها يا اخوتي هذه مسألة يجب البحث فيها فلا احد من المسيحيين يستطيع ان يرتاب في كون وعد المخلص ثابتاً وحقيقياً وواجباً تصديقهُ . لكن لننظر اين هذه

الكنيسة أهي كنيسة اللاتين ام كنيسة الروم اذ لا يمكن ان تكون خارجاً عنهما لان سائر الكنائس الاخرى ليست الّا جمعيات سرية ممتلئة هرطقات قد رذلها وابسلها الآباء القديسون وعلماء الكنيسة والمجامع المسكونية . فان قلتم ان الكنيسة هي عند الروم فقد حصرتموها في بقعة ضيقة جدًّا بل قد لاشيتموها اذ يا للداهية الدهياء نراها تنحل يوماً فيوماً وكادت تهوي فان الاعداء قد استولوا على كل شيء . . . حتى ان اللغة اليونانية نفسها وكل المصاحف وتآليف آباء الكنيسة القديسين بل الكتب المقدسة نفسها بل الانجيل الطاهر عينه هذه كلها ستبقى اثرًا بعد عين عند مواطنينا ان دامت الحال على هذا المنوال . الا تعلمون ان الطائفة القليلة الباقية من المسيحيين في المشرق وجميع ابناء الكنيسة اليونانية في المغرب اضحوا (اولئك من نحو مائة سنة وهؤلاء من نحو خمسين ونيف) لا يعرفون الكتاب المقدس الا بالاسم ولا يستطيعون ان يذكروا اسماء اسفاره الا في مدينة القسطنطينيــة وبعض الجزائر المجاورة ولا يمكنهم ان يدروا ولا يشرحوا موضوع املنا ورجائنا ولا يفهمون شيئًا مما يقرأ في الانجيــل المقدس حتى الكهنة انفسهم الذين يقرؤونه لا يدرون ما يقرؤون بل ليس لديهم الانجيل كاملًا وليس عندهم منهُ الا بعض فصول تقرأُ في الكنيسة

فمثلهم مثل الببغاء او غيرها من الحيوانات المقتدية بالانسان يلفظون الكلمات اليونانية قارئين ما يبصرون باعينهم بئس القراءة ولكن لا يفهمون شيئًا مما يقرؤون

١٠ الكنيسة الحقيقية هي الكنيسة الرومانية

فالآن وقد فتحت القسطنطينية وا أسفاه اين هي واين تكون الكنيسة التي لن تقوى عليهـا أبواب الجحيم وفي اية كنيسة حفظ وعد المخلص . إعرفوا يا اخوتي رأس الكنائس كرسي بطرس اعرفوا الكنيسة التي هي الام والمعلمة

ان بحثتم في الكتب بتمعن وجدتم الكنيسة الرومانية كانت منذ الابتداء متسلطة على الكل وفي مقدمة كل الكنيسة حتى لا ترى مسألة كنسية ولا عقيدة قد حُددت

او اعتقد بها من دونها فهي اذاً بالحقيقة تلك التي بنى المسيح عليها كنيسته وهي التي ورثت وحفظت ايمان بطرس وتبشّر بهِ الجميع . وجميع الذين يتبعونها يؤلفون معها كنيسة واحدة وكل الذين يفترقون عنها قد فصموا عرى الاتحاد معها ولا يستطيعون الى الخلاص سبيلًا اذ لا خلاص البتة خارج بيت المسيح . فالذين لا يسمعون صوت الراعي لا بد ان يذهبوا فريسة الذئاب الخطفة السراق . ولكيلا ينال المسيحيين هذا النصيب التعيس لا سمح الله يجب ان يؤمنوا بهذا الايمان الذي تعتقد بهِ وتمارسه الكنيسة الكاثوليكية و يعلموه فاذاً احرضكم جميعاً ان تقبلوه وتحفظوه ككنز ثمين كما اني لا افتأ اتضرع الى الله في هذا الشأن من اجلكم

١١ محبة الكردينال لاخوته وكيفية ادراكه الايمان الصحيح

لاني ارغب ان تكونوا جميعكم مثلي فليس ما اريده واشتهيه لكم بشيء قليل يا اخوتي . لا ينبغي احتقار الخير اذا اشتهيته لكم كما اشتهيه لنفسي فما من احد يستطيع ان يعرب لقريبه عن محبة اعظم مما اذا اشتهى لهُ الخيرات عينها التي يشتهيها لنفسهِ لان الكتاب يقول احبب قريبك كنفسك . ولا يطلب الله منّا محبة اكثر من هذه اشارة الى انها هي اسمى درجات المحبة . ولا اظنكم تقولون ان الجهل وقلة التثقف قد حالا دون بلوغنا الى الحقيقة لانكم تعلمون اننا درسنا منذ صبوتنا ولسنا بادنى من احد بين رجال امتنا بهذا الشأن فقد بذلنا اعظم غيرة في درس العقائد الدينية و بحثنا بكل قوانا عن الحقيقة . اذ اي شيء يستطيع ان يطلب سواها رجلٌ رُبي في حجر الحشمة والتواضع وعاش في الطاعة واطراح ارادته جهد الطاقة بمساعدة نعمة الله . رجلٌ خزن في صدره عدة كتب قرأها في اباطيل العالم واصلاح السيرة في هاته الحياة وفي عقاب وثواب الآخرة وذلك تثقيفاً لنفسه بقواعد الدين الصحيح واعتناق الايمان الحقيقي بعد البلوغ اليهِ والآن اعتبره اثمن من كل شيء واحسن جداً مما كنت احسبه ويزداد اعتباري لهُ بقدر تقدم شيخوختي وتضاعف الامراض التي تنذرني كل يوم بموتي وتجعل حياتي

مستحيلة. فانا اعرف يا آبائي واخوتي واعلم جيدًا اني لست بعائش طويلًا وما هذا بسرّ يخفى عليَّ فان زمن الرحيل كاد يأزف ذلك الزمن الذي (حسب اختبار عابريه) يبتدئ الناس فيه ان يخافوا الاشياء التي لم يكونوا يهابونها من قبل اذ يشاهدون ان ساعة تأدية الحساب عن حياتهم قد دنت. اما انا فان طهارة الايمان تعزيني ما اقترب الموت لاني ارجو ان ما ينقص اعمالي لنوال الخلاص يتمم باستقامة الرأي في الايمان فلاجله احتقرت الكرامات التي كان يمكنني احرازها بينكم (ولم تكن بقليلة ولا حقيرة) لاكون بكليتي للحق. اني اكلمكم انتم الذين تعرفوني او تستطيعون ان تسألوا عني ان شئتم مَن يعرفوني اذ لما كنت شابًا بل فتىً يافعًا كان ذكري مكرمًا جدًّا حتى عند الذين لم يعرفوني وكان اسمي مشهورًا عند جميع الناطقين باليونانية

وما كدت ابلغ من العمر اربعًا وعشرين حتى كان الاكابر والامراء يجلّونني ويعتبرونني كما تعتبروني كلكم وكان الملوك يودونني حتى انهم كانوا يقدمونني على جميع منصبي السلطنة لا على الشبان فقط بل على الشيوخ ايضًا وكانوا يجزلون لي الاكرام والتعظيم اكثر مما يليق بي لا لاجل استحقاقي لكن من كرم اخلاقهم. وان كنت الآن في كنيسة المسيح لابسًا ثوبًا كبيرًا ومتسنمًا مقامًا خطيرًا ومحفوفًا بكرامات هي بالحقيقة عظيمة بل عظيمة جدًّا وفوق ما استحق فيعلم الله اني لم اكن لانتظرها ولم انلها الّا بعد دخولي في الايمان الكاثوليكي. ولعلكم تقولون اني لو كنت بينكم لكنت احرزت ربحًا اكبر وصرت بينكم إمامًا بينما انا هنا بين عدد كبير من الرجال البالغين شأنًا ساميًا في العلم والحكمة وكل فضيلة اكون بالكد في الرتبة الوسطى. والحال ان احد مشاهير الاماجد المعروف عندكم قد قال: انه احب اليهِ ان يكون امامًا ومتقدمًا في بيت حقير من ان يكون في المصف الثاني في مدينة رومية العظمى البهية لان المرء يسرّ ان يكون في الصف الاول ولو بين الصغار

الّا اني لم اكترث الى ما عندكم. ويشهد الله عليَّ ان ما انا حاصل عليه الآن

احسبهُ كالزبل. ولو كنت لم اقتنع اني اخترت الحظ الاصلح والشيء الانفع وان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تؤمن بما يقود الى الحياة الابدية وتعلّمه لكنت هجرت كل شيء مهما كان سامياً وعظيماً ولكنت رجعت اليكم دون ان التفت الى الوراء. فاذاً ان كنت احرضكم وارجوكم بشأن ما اعتقد انه يقودكم الى الخلاص يجب عليكم ان تعيروني اذناً صاغية وتقبلوا بملء الرضى ما قلت لكم

١٢ جوابه على اعتراض بشأن الانبثاق

لكن ربما تقولون ان في زيادة اللاتين على قانون الايمان لشكاً عظيماً لنا

فلو كنتم تريدون يا اخوتي ان تنظروا الى الامور بعين الانصاف لكنتم عرفتم جيداً ان ليس في ذلك زيادة بل شرح وتفسير

لان الزيادة حسب رأي علمائنا انفسهم انما هي تعليم قواعد مغايرة. اما توضيح القواعد التي تبقى على حالها فانما هو تفسير لا زيادة فان بقينا مستمسكين بالحقيقة وكان التفسير متفقاً مع رأي العلماء فلا عذر لنا في هذا الخوف اذ يمسي ضرباً من الاعتقاد الباطل لا من التقوى فالمجمع الثاني قد اضاف اشياء كثيرة الى قانون الايمان النيقوي بشأن الوهية الروح القدس ووحدة الكنيسة والمعمودية ومغفرة الخطايا وقيامة الاجساد والحياة الابدية وقال عدة امور لم يذكر منها المجمع الاول شيئاً. وهكذا الآباء الذين جاؤوا بعد قد علموا بشرح اوسع اشياء كثيرة لتتميم الايمان ومع ذلك لم يُقل عن هذا التوسيع زيادة بل شرح وتفسير. ولمَ اذاً لا تستطيع الكنيسة الكاثوليكية ايضاً اتيان مثل هذا التفسير عندما يضطرها الهراطقة اليهِ

ولعل آخر يقول ان هذا كان مسموحاً به سابقاً لكن فيما بعد من حين منع المجمع الثالث كل زيادة امتنع السماح باضافة شيء الى القانون ولو حقيقية

لكن يا اخوتي ان هذا البرهان ساقط وهو بالحقيقة باطل وبعيد عن الصواب فاقرؤوا ان حسن لديكم الكتاب الذي وضعناه في هذا الشأن وقد ابنّا فيهِ صريحاً

هذه الحقيقة واني متأكد انكم تفتكرون مثلنا . وايضاً يا اخوتي و يا آبائي لا تحذوا حذو القوم المحبين الخصام ولا تقتدوا باولئك الزاعمين ان لهم فخراً ومجداً في مقاومة التعاليم الحقيقيــة لكن احرى بكم ان تتضعوا قدام الله وتقتفوا آثار كثير من الرجال الممتازين بالتقوى والعلم الذين ولدتهم الكنيسة الرومانية وتقبلوا تعليمها وايمانها و باطاعتكم وتكريمكم الحبر الذي هو راعي الكنيسة وامامهــا ورأسها اتبعوه فيبلغكم الى الحياة الابدية . لانكم تعلمون حسناً ان من الاشياء الضرورية للخلاص ان يعرف المرء راعيه ورئيس كل جسم المؤمنــين ويدري من هو قائده ويكرمه اذ حسب قول القديس غريغوريوس اللاهوتي اينما لا يوجد رئيس لا يوجد نظام وحيث ينقص النظـام يوجد الاختلال

١٣ ادارة الكنيسة من رئيس واحد

فان نظرتم الى الاشياء الهيــةً كانت او بشرية وجدتم يا اخوتي انه لا بد للكل من رأس وحيد والّا فلا يمكن سياسة شيء حسناً

واولاً في الامور الالهية يعلّم لاهوت المسيحيين الحقيقي ان فوق كل شيء الهاً واحداً وانه في ثلاثة اقانيم ولاجل حفظ الوحدة نعتقــد ان هؤلاء الاقانيم الثلاثة ليسوا الّا جوهراً واحداً بعينه . والعلم الوثني المؤسس على اعتبار الاشياء الحسيــة يعترف بالحقيقة نفسها لان بعض مشاهير الوثنيــين علّم ان للوجود علة واحدة اولية وخالقاً واحداً و بعد ذلك يضع درجات متفاوتة بين الكائنات ويجد ايضاً المبدأ الوحيد الذي تحته عدة مبادىء مختلفة و بعضهم يعلّم التعليم نفسه مسنداً الى براهين عديدة ثم يلخص الكل بعبارة انتحلها من مؤلف سابق اقدم منهُ قال ان سلطــة كثيرين ليست بجيدة فلا بد من وجود سيد واحد وملك واحد لانه لا ينبغي حسب قوله ان تساس الاشياء سياسة سيئة وانما تكون السياسة سيئة ان لم يكن السائس واحداً

اما من حيث الامور البشرية والحكومات وخير البلاد فجميع المؤلفين وفوقهم

مخلصنا يسوع المسيح نفسه يعتبرون سلطة الرئيس الواحد افضل جداً من سائر انواع السياسات لان المخلص يقول « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » موضحاً انه كما ان في السماوات الهاً واحداً كذلك على الارض سلطان واحد. ومن كان بين حكماء العالم اسمى فلسفة يفتكر ايضاً ان الحكومة التي يرأسها رجل واحد اعظم من غيره فضيلة لأفضل من سائر الحكومات ويمكنكم ان تسموها بالحكومة الحسنى لانه يقدمها فوق غيرها من حيث هي اقرب شبهاً بالحقيقة (الالهية) ولهذا يعظمها و يفضلها وهكذا تلميذه بعد عرضه جميع الهيئات السياسية قد اعتبرها الحسنى وسماها بالملكية العامة

وهاته الحكومة الوحيدة الرأس الفضلى والكملى المفتقرة اليها الاشياء الارضية والزائلة كل الافتقار هل نرفضها يا اخوتي في سياسة النفوس الابدية وتدبير كنيسة الله المقدسة حاشى لانّ حسن الترتيب هنا هو ايضاً اشدّ لزوما بقدر ما الاشياء الابدية هي اسمى من الزمانية وهكذا ان واضع شريعتنا يسوع المسيح الذي هو اسمى جداً وفوق كل حكمة بشرية وهو عندنا ينبوع كل حكمة هو نفسه رئيسنا المانح ولا ريب كنيسته هذه هيئة الحكومة الفاضلة وذلك باقامته بطرس ملكاً لها وخلفاءه من بعده اذ قال له « انت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي » وايضاً « سأُعطيك مفاتيح ملكوت السما » (١) وايضاً « ارعَ خرافي ارعَ غنمي » (٢) وايضاً « وانت متى رجعت فثبت اخوتك » (٣)

١٤ اثبات سلطان البابا الاسمى بالحوادث

ولا تظنوا يا اخوتي اني آتيكم باشتراع جديد واعلمكم عقيدة جديدة انتم مطلعون على كتب المؤرخين القدماء ودارسون اعمال المجامع المسكونيـة فتذكروا ما اعظم

---

(١) متى ١٦ : ١٨ و ١٩ (٢) يوحنا ٢١ : ١٦ و ١٧ (٣) لوقا ٢٢ : ٣٢

السلطان الذي احرزه الحبر الروماني في كل الكنيسة . ان البابا كلستينس هو وحده جزم آمرًا بعقد المجمع الافسسي (١) رغمًا عن وجود الكنيسة الشرقيـة والبطاركة هناك . وآباء المجمع الخلكيدوني المائة والثـلاثون اسقفًا قبلوا رسالة (البابا) لاون الكبير قبولهم للاناجيل ودعوها بعمود استقامة الرأي وبحسبها فصـلوا المسألة المختلف فيها مقتفين آثار تحديداتها التعليمية . والآباء انفسهم الذين نزعوا عن بطريرك الاسكندرية الرتبة الثانية ليمنحوها لبطريرك القسطنطينية اقتداء بالمجمع الثاني قرروا انهم لن ينتفعوا شيئًا ان لم يصدق على ذلك البابا لاون الكلي القداسة وتوسلوا اليـهِ برسائلهم ان يتنازل لقبوله فلم يقبل به ولو لم يثبته بعده بابا آخر لما كان قد تقرر البتة وقبل ذلك الزمان كان البابا اينوكنتيوس قد ابسل الامبراطور اركاديوس والامبراطورة افدكسية ورشقهما بالحرم لنفيهما القديس يوحنا فم الذهب ظلمًا فلو لم يكن لهُ سلطان على كل الكنيسة ولو لم يكن هو الراعي المسكوني وابا جميع المسيحيين ومعلمهم العام ولو لم تكن القسطنطينية وقياصرتها من غنمه لما كان قد طردهما من شركة الكنيسة ووحدتها ولو لم يكونا خاضعين لهُ لما كان لحكمه عليهما اقل قوة وادنى تأثير

ثم لما اختلس فوتيوس الكرسي القسطنطيني بعد ان طرد اغناطيوس البطريرك الكلي القداسة حرمه البابا وارجع القديس اغناطيوس فبأي حق (صنع ذلك) ان لم يكن بحق السلطان الذي لهُ على الجميع . ولما انتقـل القديس اغناطيوس الى الله والتمس القياصرة مرارًا بالحاح اجابة التماس فوتيوس ألم يكن البابا يوحنا خليفة البابوين نيقولاوس واربانس على كرسي رومية هو الذي ارجعه الى الكرسي البطريركي بارساله

(١) وفي نسخة اخرى موثوق بها يقول (لاشي ورذل مجمع افسس) وانمـا يريد به حسب هذه النسخة المجمع اللصي الذي عقده يوحنا البطريرك الانطاكي ضد القديس كيرلس الاسكندري

لهُ الباليوم (الدرع المقدس) مع الاسقف بسكاس. فعلى مَ يدل هذا كله يا اخوتي ألا يوضح سلطان الحبر الروماني الاسمى على الكنيسة كلها

١٥ النتيجة

فاذًا لدى تذكركم بكل هذه الامور وترويكم فيها جيدًا اطرحوا كل وهم مخالف للصواب وكل بغضة جائرة وكل رأي باطل بشأن اللاتين. و باعتناقكم حقيقة وطهارة الايمان حسب الكنيسة الكاثوليكية وتكريمكم الكنيسة الرومانية المقدسة فوق الكل كونوا معنا متحدين وانسلخوا عن الذين لمجرد حسدهم الشخصي يقولون لكم اشياء باطلة ويزيغونكم عن الايمان الحقيقي اعتبروا ان البابا هو الراعي المسكوني الحقيقي والاب والمعلم والحبر الاعظم واجلّوه وكرموه بما هو اهله. وبمعرفتكم ايضًا اننا رغمًا عن عدم كفاءتنا قد نصبنا رئيسًا شرعيا لكنيستكم و باعتباركم ايانا كذلك اقبلوا نصائحنا كنصائح اب لكم واشتركوا معنا بوحدة الرأي والايمان حتى باعتقادنا المعتقد نفسه بروح واحدة وفكر واحد نكون متحدين قلبًا محبين ومكرمين بعضنا بعضًا في كل الزمان الذي نعيشهُ في هذه الدنيا انا اباكم افرح بكم وابذل في سبيلكم كما يليق بي جميع الخيرات الممكنة جهد الطاقة حتى ننال بعد هذه الحياة مجد يسوع المسيح ونتمتع بالحياة الابدية مدركين بسعادةِ الغاية التي نشتهيها آمين

أُعطي في ويترب في ٦ حزيران سنة ١٤٦٣ للمسيح بساريون برحمة الله

كردينال الكنيسة الرومانية المقدسة

وقّعت بيدي نفسها وبطريرك القسطنطينية رومية الجديدة

وكنا نودّ لولا ضيق المقام ان نأتي على ذكر ترجمة بساريون برمتها لكن حسبنا ان نقول ان هذا الكردينال الشرقي كان على جانب كبير من سموّ الاعتبار ورفعة الشأن لدى جميع معاصريه من الغربيين والشرقيين حتى ان مجمع الكرادلة قد رشحهُ مرتين

ليجلس على عرش خلفـاء المسيح البابوات المعظمين في المرة الاولى عند موت البابا نيقولاوس الخامس اوشك ان يرقى ذروة البابوية بل تقرَّر انتخابه حتى اعتاد اكثر المؤرخين ان يقولوا ان بساريون كان بابا ليلة واحدة لكن في اليوم التالي تحولت الانظار الى الكردينال الفنس دي برجيا فانتخب وسمي بالبابا كالستس الثالث. ثم عند فروغ الكرسي بموت بولس الثاني ترَّجح في الافكار انتخاب بساريون خلفًا لهُ لكنهُ كان قد طعن في السنّ ووهت قوَّته وصحتهُ بما قاسى من مشاق الاشغال ولم يعش طويلًا بل توفاه الله بعد سنة وهو راجع من مهمة انتدبهُ اليهـا البابا لدى ملك فرنسا لويس الحادي عشر فقد اعتراه المرض الاخير في تورين فظلَّ مواصلًا مسيره الى راقنـة حيث فاضت روحه الطاهرة في ١٨ ت ٢ سنة ١٤٧٢ فاخلف للقلوب حسرة عظيمة وقد أسفت عليهِ الكنيسة قاطبةً. وهاك ما ذكر عنهُ الكردينال الباني اذ ابَّنهُ قال:

«لم يكن في بساريون شيء من الجبانة بل كان يتدفق منهُ الشرف والشجاعة والنبل فقد خسر بفقده مجمع الكرادلة المقدس ذراعهُ وركن مشورته وكل مجده وفقد العلماء ابًا والاتقياء معزيًا ورُزئَ به مؤمنو العالم كلهِ رزءهم بسندهم المتين»

خاتمة الكتاب

هذا آخر ما علقناه واقفين عند افول شمس ذلك الرجل العظيم الكردينال بساريون عمود البيعة الجامعة والكوكب الساطع في أفق الكنيستين الشرقية والغربية لان ذكره قد ضاع نشره في كل الكتاب من اوائل اخبار الملك يوحنا حتى سقوط السلطنة ومهاجرة الروم الى ايطاليا وكان اعظم رجال العصر علماً واشدهم محبة لأمته وانعطافاً الى بني ملّته وهو وان لم يستطع الجهاد عن المملكة في ساحة الوغى كما فعل رصيفه الكردينال ايسيدور فقد بذل قصارى همه في استنهاض همة ملوك المغرب واستحثاث غيرتهم على اغاثة الروم حتى بعد فتح القسطنطينية لم ييأس من النجاح بل اجتهد في جمع قوّة جندية لانقاذ اقليم المورة لكنهُ حال دون قصده موانع ثبّطتهُ فخبطت آمالهُ

فباختتامنا ايراد المصائب الفاجعة التي حلت بالروم بانقراض سلطنتهم والقلب يتفتت حزناً وكآبة لا نتمالك الّا نسلو شيئاً من هذه الغصص ممّلين بعدامة التعزية لدى مشاهدتنا هذا الشيخ الجليل زهرة الكنيسة الشرقية الكاثوليكية منتقلاً الى الحياة الابدية معمرًا الثمانين لينال الاكليل المجيد المعد لهُ جزاءً عما قاساه من الاتعاب والانصاب في بحر ستين سنة باذلاً نفسه في سبيل خير الكنيسة ومحبة الوطن والامة ممثلًا لنا صورة أعظم قديسي الشرق باسيليوس وغريغوريوس والذهبي الفم وغيرهم الذين كانوا لبيعة الله اعمدة واركاناً ولم يكن بمعزّز في الكنيسة الشرقية فقط بل كان رفيع المنزلة سامي المقام في صدر الكنيسة الرومانية التي احبت ان تنتخبه مرتين رئيساً عليها خصوصيًّا ورأساً للكنيسة الجامعة

هذا الرجل الفريد حرٍ بان يكون قدوة لجميع الامم يقتفون آثاره مقتدين بصبره على البلايا الشديدة التي نزلت ببلاده وعشيرته او بمجده الفائق الذي احرزه مفاخراً كبار

الملوك ورؤساء الشعوب ومماثلاً لقسطنطين آخر سلاطين الروم فكما ان هذا الملك العظيم قد ضحى حياته المجيدة بسفك دمهِ عن شعبه ووطنه هكذا بساريون قد بذل حياته الطويلة كلها مضحياً اياها في سبيل خير امته في الدين والدنيا

فيتحصل من كل ما جاء في هذا الكتاب ان الاعمال العظيمة التي باشرها الملكان يوحنا وقسطنطين والكردينال بساريون كان مدارها كلها على قطب بثّ السلام والامان بين شمل المسيحيين اجمعين ووصلهم بعلائق الاتحاد الذي هو لكل امة مِلاك شرفها وقوتها ومجدها وبه يلتئم الجميع رعيةً واحدة لراعٍ واحد

وكان الفراغ من انشائهِ لتسعٍ خلون من شهر كانون الاول في عيد الحبل بالعذراء المجيدة بريئة من دنس الخطيئة الاصلية في العام الرابع والثمانين بعد الثمانمائة والالف للتجسد الالهي

والحمد لله اوّلا وآخراً

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

القسم الثاني

في القيصر قسطنطين الثالث عشر آخر سلاطين الروم

صفحة

صفحة


مكتبة العرب
لصاحبها
الشيخ يوسف توما البستاني
بشارع الفجالة
بمصر

